وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

أنطولوجيا القصة القصيرة الإيرانية

رؤية القمر من وراء الضباب

ترجمة

سليم عبد الرحمن الأمير

أنطولوجيا

القصة القصيرة الإيرانية

الإشراف الطباعي

م. ماجد الـزهـر

أنطولوجيا

القصة القصيرة الإيرانية

رؤية القمر من وراء الضباب

ترجمة

سليم عبد الرحمن الأمير

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٠

أنطولوجيا القصة القصيرة الإيرانيـــة : رؤية القمر من وراء الــضباب / ترجمة سليم عبد الرحمن الأمير .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠ . - ٣٨٤ ص؛ ٢٤ سم .

١- ٨٩١,٥٥ أ م ي   أ   ٢- العنوان   ٣- الأمير

مكتبة الأسد

المقدمة

أمير حسن چهل تن

لا أظن أن أعمالاً كثيرة من الأدب القصصي الإيراني المعاصر قد تُرجم إلى اللغة العربية؛ فإذا ما تجاوزنا الترجمات المتباعدة زمناً والمتناثرة نوعاً - وهي استثنائية- يمكن القول بوضوح إن معرفة جيراننا العرب بآداب اللغة الفارسية قريب من الصفر. إن الإيرانيين والعرب، بذلك الرابط القديم الذي ابتدأ تاريخياً قبل ظهور الإسلام بكثير، لا يعرفون الآن شيئاً كثيراً عن النشاطات الفنية - الأدبية لبعضهما بعضاً. ربما كان السبب هو أن نظرة كل شعوب المنطقة في القرن الأخير كانت متجهة إلى الغرب ومنجزاته وأن مثل هذا التوجه شمل مختلف جوانب الحياة المعاصرة، ومن جملتها الأدب الجديد.

ولكن ألف وليلة وصلت من هذا الجانب إلى ذاك، وهذه الحقيقة وحدها تدل على أننا نعرف سر الأسطورة وحقيقة القصة.

مع ذلك، ينبغي الاعتراف بأن الأدب الإيراني الحديث، في النظم والنثر، مدين للغرب بالتعريف الجديد الذي قدمته الفلسفة الغربية للإنسان. وقد ترك هذا التعريف، بالطبع - قبل، وربما تزامناً مع نشوء بنيتنا الاجتماعية - تأثيره فيها. مع أن التقاليد الباقية من تاريخنا الطويل تبدي صلابة إزاء أي تغيير، وتضعنا أحياناً وجهاً لوجه مع نقلات تاريخية عجيبة وغريبة، لكن ما من أحد - لحسن الحظ

يستطيع أن يدير عجلة التاريخ إلى وراء ويؤخر قبول التحولات التاريخية التي لا يمكن تجنبها، والحاصلة على أساس التجربة العالمية المشتركة. إن أدب إيران الحديث يقوم على حتمية كهذه.

حاولت أن أقدم نماذج لا تعرض السيرورة التاريخية للتطور الأدبي المعاصر فقط، وإنما يكون لها تأمل مناسب على تنوع النظرات والمضامين والأساليب، فعالمنا عالم يميل إلى التعددية، وينبغي الوعي بهذه الحقيقة أيضاً والتمسك بها كذلك.

مع أنني أعتقد أن ترجمة قصصنا المعاصر ـ بسبب تضادات اللغة الفارسية الناتجة عن طريق طوله أكثر من ألف عام مرت به هذه اللغة في الشعر والأدب ـ أمر عسير، إلا أنني آمل أن تناولنا الحسي للحياة، الذي يقوم على مشتركات تاريخية وثقافية غزيرة، يجعل عمل الترجمة الفنية لهذه القصص أمراً ممكناً.

كما أنني أرجو أن يثير صدور هذا الكتاب حب الاستطلاع الإيجابي لدى المجتمع الناطق بالعربية، ويكون بداية لترجمة ونشر نماذج أكثر.

ملاحظات المترجم

من دون أن أتفق مع زميلي، في إعداد هذا الكتاب، وصديقي العزيز، أمير حسن، على موضوع المقدمة، عبّرت مقدمته عن الحافز الذي دفعني شخصياً إلى التفكير بإعداد الكتاب أصلاً ومفاتحته بشأنه ثانياً.

ولكنني، إضافة إلى همّ التعريف بأدب شعب مجاور، كان يسيطر عليّ هاجس أننا مقصّرون تجاه أدب عايش أدبنا منذ القديم، أهدانا مفردات وصوراً وأفكاراً صارت جزءاً من تراثنا الديني والفكري واللغوي، وكسب منا انتشاراً لأفكاره ومفرداته أغنت لغته وجعلتها «شعبية».

وقد حرصت في إقرار ما اختاره زميلي من قصص على أن تكون معبّرة عن تنوع المضامين والأساليب، إضافة - طبعاً - إلى التطور التاريخي للقصة في الأدب الإيراني الحديث.

وإضافة إلى المقدمة المتقدمة، كتب أمير حسن خلاصة حياة كل كاتب اخترناه لهذه المجموعة، وألقى أضواء مفيدة على القصة المختارة له.

وقد اقتصر دوري، عدا عن المشاركة - بشكل ما - في انتخاب بعض قصص المجموعة، على ترجمتها إلى العربية، مع إنارة بعض جوانبها بالإيضاحات اللازمة.

وإنني أرجو أن يكون هذا الكتاب - بعد كتابي عن الرواية الفارسية - مساهمة جديدة في التعريف بالأدب النثري الفارسي المعاصر.

محمد علي جمال زاده[1]

ولد محمد علي جمال زاده في سنة ١٨٩٥ في أصفهان. يعتبر أبوه السيد جمال الدين الواعظ الأصفهاني من الزعماء المبكرين للمشروطة، وكان للخطب - المتأججة حماساً، التي يلقيها من المنبر بلغة بسيطة وأسلوب يسير الإدراك على العامة - دور كبير في تأجيج ثورة المشروطة.

ربما يكون محمد علي جمالزاده تلقى التأثير الأكبر في استخدام النثر البسيط الخالي من التكلف، في كتابة القصة، من أبيه.

كان جمالزاده فتى مراهقاً مايزال عندما ذهب إلى بيروت لإكمال دراسته، وهناك وصله الخبر بأن أباه قتل في السجن بأمر «محمد علي شاه»، ملك إيران المستبد. ينتقل جمالزاده من بيروت إلى أوروبا، وعلى رغم أسفاره المتفرقة والقصيرة أو الطويلة إلى إيران، تصير أوروبا موطنه الأصلي إلى آخر العمر.

في سنة ١٩٢١، مع انتشار مجموعة «يكي بود، يكي نبود»[2] يقع في أسلوب كتابة الحكاية الفارسية، فجأة، حادث. ولقد كان هذا الحادث من البروز بحيث اعتبر مبدأ الأسلوب الواقعي في الأدب الإيراني. كتب جمالزاده لهذا الكتاب مقدمة يذكرها كثيرون على أنها بيان النثر الفارسي الجديد. يؤكد في هذه المقدمة على «إصلاح وترقية وتكميل اللغة» بوصفها من مهمات كتابة القصة، ويميز بين «الإنشاء الحكايتي» أو «الإنشاء الروائي» و«الإنشاءات القديمة». ويرسم لذلك دائرة باتساع كل الكلمات والتعابير والأمثال والمصطلحات والتراكيب الكلامية المختلفة.

كانت ثورة المشروطة قبل خمس عشرة سنة قد فرضت على أركان المجتمع الإيراني تغيرات مختلفة، وبصدور هذا الكتاب تُستهل بداية عصر جديد في أدبنا القصصي.

لكن إقامة جمالزاده في أوروبا تصير سبباً في أن تكون أعماله المتعددة بعد «يكي بود، يكي نبود» خلواً من القريحة والقدرة الخلاقة الأولى. كانت «دار المجانين، سَرّ كَذَشْت حسين علي»[٣]، «سروته يك كرباس»[٤]، «قلتشن ديوان»[٥]، «صحراء محشر»[٦]، «هزار پيشه»[٧]، «راه آب نامه»[٨]، «معصومه شيرازي»، «تلخ وشيرين»[٩]، «شاهكار»[١٠]، «هفت كَشْوَر»[١١]، «خاك وآدم»[١٢]، «غير أز خدا هيچكس نبود»[١٣]، «شور آباد»[١٤]، «صندوقچه أسرار»[١٥]، «آسمان وريسمان»[١٦]، «مركب محو»[١٧]، «قصه هاى كوتاه براى بچه هاى ريشدار»[١٨] و«قصه ما بسر رسيد»[١٩] من بين الكتب التي صدرت عن جمالزاده حتى نهاية حياته. وقد توفي سنة ١٩٩٧ في سويسرا، متجاوزاً المئة سنة عمراً.

* * *

في قصة «مشوي الأوز» يلقي جمالزاده نظرة انتقادية على العلاقات الاجتماعية لناس يعتبرون الحل، في كل مأزق، هو في التوسل بالحيل والألاعيب المختلفة. ولكن في آخر لحظة، عندما يبدو أن الأوضاع تتقدم على نحو ملائم، يدخل عامل عديم الأهمية غير محسوب، فيخرب كل شيء. إن لهذه القصة ـ بسبب تحليلها النفساني لعادات وخصال الشرقيين خصوصاً ـ أهمية بالغة. إن الناس الذين يمضون لاستقبال الكذب، يتقبلون ذلك بيسر ويكيفون أنفسهم معه.

يتصور راوي هذه القصة أن يستضيف بأوزة واحدة مجموعتي ضيوف في يومين. يبدو الحل في ألا يمس ضيوف المجموعة الأولى الأوزة، كي تجري الاستفادة من الأوزة البكر في استضافة ضيوف المجموعة الثانية. تُرسم الخطة، ويتولى محتال محب للإيقاع تنفيذ الخطة مع المضيف، ولكن الحسابات تنجلي عن اشتباه في النهاية.

الحواشي

(١) يكتب لقبه بالفارسية «جمالزاده».

(٢) هذه الجملة هي القسم الأول من مستهل الحكاية الشعبية، لذلك يمكن ترجمتها بـ«كان ياما كان . .».

(٣) تاريخ حسين علي.

(٤) سداة ولحمة واحدة.

(٥) مجمع العفاريت.

(٦) صحراء المحشر.

(٧) ألف حرفة.

(٨) مكتوب مسيل الماء.

(٩) مر وحلو.

(١٠) الرائعة، الإنجاز الكبير.

(١١) سبعة بلدان.

(١٢) التراب (أو الأرض) والإنسان.

(١٣) لم يكن ثمة غير الله ـ وهو القسم الثاني من مستهل الحكايات الشعبية، وعليه فهو يقابل «وعلى الله التكلان» عندنا.

(١٤) حي (أو مدينة) الحماس .

(١٥) صنيديق الأسرار .

(١٦) المتنافران .

(١٧) المركَّب الممحو .

(١٨) قصص قصيرة لأطفال ملتحين .

(١٩) انتهت قصتنا ـ وهذه الجملة تشكل قسماً من خاتمة الحكايات الشعبية .

مشـوي الأوز
أو
رسالة حول الحكمة المطلقة القائلة « نحن جلبنا هذا لأنفسنا»[١]

محمد علي جمال زاده

كان ليلة عيد النوروز[٢] ووقت ترفيع الرتب. كنا قد اتفقنا في الإدارة، نحن الزملاء، أن أول من يتناول ترفيعاً في رتبته يقيم وليمة جماعية يقدّم فيها أوزّة كاملة مشوية كي يأكلها الزملاء ويدعون له بطول العمر ودوام العز.

ضرب الحظ ضربته وصدر الترفيع باسمي، فطرحت موضوع الوليمة والاتفاق مع الرفاق فوراً على عيالي، التي كنت قد تزوجتها حديثاً. قالت: إنك لم توزع حلوى العرس على أصدقائك أيضاً، فينبغي هذه المرة أن يكون موقفك أمامهم جيداً، ولكن المسألة هي أننا لا نمتلك صحوناً وشوكات وسكاكين تزيد عن حاجة إثني عشر شخصاً، فينبغي إما أن نشتري طقماً آخر أو ألا يزيد عدد الضيوف عن احد عشر شخصاً، يصيرون معك إثني عشر.

قلت إنك تعرفين خيراً من غيرك وضع المالية في ليلة العيد هذه، وإن ميزانيتنا لا تسمح قط بشراء خردوات، كما أن الأصدقاء لا يقلون عن ثلاثة وعشرين أو أربعة وعشرين نفراً.

قالت: لا يمكن دعوة قطيع ثيران غلاظ الرقاب. اكتف بأن تأخذ وعد الرتبة الأعلى واشطب على الباقين خطاً، ودعهم يمصون السماق[٣].

قلت: إيه، ما هذا؟ لن يرضى الله. هؤلاء التعساء لا تصيبهم نعمة كهذه إلا مرة في السنة، ولقد فركوا بطونهم بالصابون[٤] كي يأكلوا أوزّاً مشوياً، وهم يَعدّون لذلك الساعات. إذا ما تهربت من ذلك سيقتلعون عينيّ، وإن أردت الحق يحق لهم ذلك. ما رأيك في أن نستعير من بيت أحد الأصدقاء أو المعارف طقم أوعية ولوازمَ آخر؟

قالت منزعجة: اطرد هذه الفكرة من رأسك إذ يستحيل أن أسمح، في أول وليمة بعد العرس، لشيء مستعار أن يدخل هذا البيت. أفلا تدري أن ذلك نحس، وأن الطفل الأول يموت؟

قلت: فليس من بد إذن في أن نقيم الوليمة بيومين: تأتي جماعة يوماً ويأكلون، والجماعة الأخرى في اليوم التالي.

وافقت عيالي على هذا الترتيب، وتقرر أن تأتي المجموعة الأولى في ثاني يوم عيد النوروز، وفي اليوم الثالث تأتي المجموعة الثانية.

هاهو اليوم الثاني للعيد، وقد تمت التحضيرات لكل شيء، وإضافة للوزّة العتيدة أعدّ حساء شعير ممتاز وكباب فاخر من لحم الحملان ونوعان من الرز وبضعة أنواع من المرق، مع كل الملحقات. كنت ممدداً في الفراش الدافئ الناعم، الذي كان جزء من جهاز زوجتي، منشغلاً - بمسرة بالغة - في قراءة حكايات صادق هدايت[٥] عديمة النظير. عندما بلغت ذروة المتعة، دخلت زوجتي وقالت: ثمة شاب طويل نحيل اسمه مصطفى يقول إنه ابن عمك اللح، جاء يتشرف بمعايدتك.

إن مصطفى هو ابن عم بنت خال خالة أمي. شاب في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين. شريد مفلس لا يمتلك شيئاً ولا يعرف لحالة تدبيراً، بليد ثخين الدماغ، وقبيح الشكل سيئ البنيان بقدر ما تريد. كلما أراد أن ينطق حرفاً يزول لونه ويكتسي لوناً، وكما لو أن قبضة هاون برونزية علقت في حنجرته

يبقى فمه مفتوحاً ويبقى يخرخر. وحمداً لله أنني لم أكن أنال حظوة رؤية وجهه الفاتن أكثر من مرة في السنة.

قلت لزوجتي: بالله عليك قولي له إن فلاناً لمّا يصحُ من النوم، ودعينا نتخلص من هذا الغول المخيف، ودعيه يذهب إلى ما بين يدي أبيه عليه الرحمة.

قالت: الأمر لا يخصني. المال السيئ يبقى على قلب صاحبه[٦]. ما شاء الله، بيننا سبعة قرائين، هو ابن عم جماعتك. ما شئت أن تضع من زهور ضعها على رأسك أنت[٧]. لقد اشترطتُ أصلاً ألا يكون لي شأن بأقربائك وأنسبائك. وخصوصاً مع مهرج أحمق مثل هذا.

وجدت أنه ما من مخرج، وأن الله لن يرضى أن أخيّب هذا المسكين الذي لابد أنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً حافياً على أمل الفوز ببضعة ريالات عيديةً. قلت لنفسي: إن لم تصل الأرحام اليوم، فمتى تصلها؟! لذا ناديت عليه. دخل يحني رأسه. رأيت أنه، ما شاء الله، بعيداً عن عين الحسود، سيد ضخم. صارت قامته أطول وقد ازداد قبحاً على قبح. كانت رقبته كرقبة الأوزة التي كانت في هذه الساعة بالذات منشغلة بالانشواء، وقد طلعت من الياقة القذرة، ومع أنه فيما يتصور قد حلق ذقنه إلا أن أصوافاً صفراء وحمراء وتمرية، بطول أصبع، كانت تنفر من ثنايا ياقته وقميصه وتتحرك وتهتز حول عنقه وحنجرته مثل ديدان وقعت بين هليون[٨] فاسد. ويستحسن أن أتجاوز عن وصف لباسه، ولكن يكفي أن أقول إن موقع الركبتين في بنطلونه ـ بعد أن غسلوه ـ انكمش بمقدار شبر وقد انتفخ كثيراً بحيث تصورت حقاً وصدقاً أنه سرق حبتي بطيخ من مكان ما وأخفاهما هناك.

كنت منشغلاً بالنظر إلى هذا المخلوق النادر والشيء العجيب، ورَوْزِه، عندما دخلت عيالي وقالت: على رأسي التراب، أيها الرجل العاقل، إذا ما قدمنا اليوم هذه الوزّة لضيوف اليوم فمن أين ستأتي بوزّة لضيوف الغد؟ إنك لم تجلب غير وزّة واحدة وقد وعدت كل أصدقائك أن تقدم لهم أوزاً مشوياً!

وجدت الكلام صحيحاً، وأنني غفلت غفلة سوء، فقلت: ألا يمكن أن نقدم نصف وزّة اليوم ونجلب نصفها الآخر على مائدة الغد؟

قالت: أفتريد أن تريق ماء وجهك؟ لم يسبق لأحد أن رأى من يجلب نصف وزة على السفرة. إن كل حُسْن مشوي الأوزّ هو أن يأتي مختوماً غير ممسوس على المائدة.

كان كلاماً منطقياً حقاً، ولا مأخذ عليه. أدركت وخامة الأمر على الفور، وبعد مدة بين التفكير والاستشارة وجدت أن العلاج الوحيد هو أن نهيئ، مهما كلف الأمر، وزّة أخرى. قلت: مع أن مصطفى هذا بليد بالغ العته، لكن العثور على وزة واحدة في مدينة كبيرة مثل طهران ليس مثل اكتشاف أمريكا ولا كسر رقبة رستم[٩]. لابد أنه يستطيع تدبّر ذلك. وجهت إليه الكلام، فقلت: يا مصطفى العزيز، لابد أنك فهمت ما الأمر. بارك الله في رأسك اللطيف، أريدك اليوم أن تثبت حذقك وشطارتك، وأن تجد لي - حتى ولو من تحت الصخر - أوزّة جيدة طازجة مهما كان ثمنها.

احمرّ مصطفى واسودَّ، كالعادة المعهودة، في البدء، وأخيراً خرج صوته مقطّعاً كصوت أرجيلة يقللون ماءها ويزيدونه، من أنبوبة حلقومه، وفهمت أن جنابه كان يتفضل بالقول إنه ينبغي، في يوم العيد هذا، أن ألغي فكرة الوزّة تماماً من ذهني لأنه ليس في المدينة ولا حانوت واحد مفتوحاً.

سألت بحال من اليأس: فماذا نفعل إذن؟ فقال بذلك الصوت نفسه وتلك الحركات ذاتها، بعد أن ابتلع ريقه: ماذا أقول والله؟! أنت مخيَّر، ولكن كان يفضَّل أن تؤجل الدعوة. قلت ليعطك الله عقلاً، بعد ساعة يصل المدعوون، فكيف أؤجل؟! قال: تظاهر بالمرض، وقل إن الطبيب منعك حتى من النزول من السرير. قلت: إنني تلفنت صباح اليوم بالذات لعدد منهم، فكيف أقول إنني مريض. قال: فقل إنني اشتريت الأوزة ولكن كلباً خطفها. قلت: إنك لا تعرف أصدقائي. ليسوا أطفالاً في القماط لنقول لهم: سرق العفريت الملهية

فيصدقون كأطفال العالمين. سيقولون: لتزهق روحك، كان عليك أن تشتري أوزّة أخرى، بل إنهم سيعاندون أنْ هات الكلب لنحاسبه نقداً. قال: أوص بأن يقولوا إنك لست في البيت وقد ذهبت لزيارة حضرة (معصومة)[١٠].

وجدته يهرف كثيراً فأردت أن أقصّ منقاره[١١] وأضع ذَنَبه على ظهره[١٢] وأستودعه الله. قلت: أتدري يا مصطفى؟ لقد هيأت عيديتك.. تأخذ ورقة النقد هذه وتذهب سريعاً، فإنني أريدك أن تنقل تحيتي وتحية زوجتي، بأسرع وقت، إلى زوجة عمي الحبيبة، وتقول لها إن شاء الله تكون هذه السنة الجديدة مباركة وأن تقضي ألف سنة مثل هذه السنة.

ولكن كان واضحاً أن فكر مصطفى وخياله كانا في محل آخر. بدون أن يكون سمع كلامي أصلاً، واصل أفكاره وقال: إن أمكن لنرتب خطة لا تدع الضيوف يمسّون الوزّة اليوم ونسخّن الوزّة نفسها ونعيدها إلى السفرة غداً.

اتضح أن هذا الكلام ـ الذي بدا أولاً عديم الأساس فاقد المعنى تماماً ـ بعد أن قلّبته من زواياه وخفاياه، واجتررته، ليس بغير المعقول كثيراً، ولا ينبغي الاستخفاف به. كلما ازددت إمعاناً فيه أحسست نوعاً من الإيمان في داخلي وازدادت النجمة الضعيفة في ظليلة باطني المعتمة الكدرة لمعاناً، وشيئاً فشيئاً نشطتُ واتجهت نحو مصطفى ضاحكاً مسروراً، وقلت: هذه أول مرة أسمع فيها منك كلمة مضبوطة، ولكنني أظن هذه العقدة لا تنفك إلا بيديك. يجب أن تبذل مهارتك كي لا يمد أحد من الضيوف يداً إلى هذه الأوزة.

اكتسب مصطفى روحاً، ومع أنه لم يكن قد أدرك على نحو صحيح بعد ما أقصد، وإلى أية جهة أريد أن أسحب مربط البعير، ظهرت علائم السرور على خديه. وزدت من المجاملة والتملق فقلت: لم لا تأتي فتجلس؟ اقترب، اجلس على هذا الكرسي المخملي إلى جانبي. قل لي كيف أحوالك؟ ماذا تفعل هذه الأيام؟ أتريد أن أجد لك عملاً جيداً وزوجة مناسبة؟ لم لا تأكل من هذا الـ «كز»[١٣]. تفضل هنيئاً من هذه الـ «باقلاوة»[١٤] فهي هدية من «يزد»[١٥].

أقر مصطفى قامته الطويلة المائلة المعوجة على الكرسي المخملي، وأراد أن يتشكر ـ مدردماً مهذرماً ـ على إبراز المحبة والتعلق غير المنتظر، الذي لم يسمع ولم يرَ مثله من قبل، ولكنني لم أمهله فقلت: أستغفر الله، ما هذا الكلام؟ إنك أخي الأصغر. إنني لن أسمح لك أصلاً بأن تذهب اليوم من هنا. لابد أن تصير ضيفي العزيز. لم تأت إلى هنا منذ سنة كاملة. نسيتنا تماماً، وكأنه لا ابن عم لك في هذه المدينة. من الواضح أنك تنفر منا. بالله وتاالله لابد أن تتناول الغداء معنا اليوم. وها سأوصي السيدة الآن أن تعطيك طقماً من ملابسي الأنيقة كي تلبسه، وإذ تصير مرتباً أنيقاً يجب أن تجلس على رأس المائدة إلى جانبي. كل ما هنالك انتبه عندما يجلبون ـ بعد مقدمات حساء الشعير وكباب الحمل والأرز والمرق ـ الأوزة إلى المائدة أن تقول: إيه يا بابا، أتوسل إليكم، لم يعد في بطننا مكان. من قدر ما أكلنا نوشك أن ننفجر. التبن ليس لنا، ولكن مقرّ التبن يعود إلينا أكيداً[١٦]. حرام حقاً أن نضيع أوزة بهذه الجودة. أصالة عن نفسي ونيابة عن هؤلاء السادة ألتمسكم أن تعيدوا هذا الصحن، كما هو، إلى الجوّاني، وإن أصررت كثيراً فإننا سنأتي مجدداً عما قريب في هذا الربيع بالذات ونأكل مجدداً. ولكن، وكيلك الله، إن أطعمتنا اليوم أكثر مما أكلنا فسننطرح هنا ونصير وبالاً عليك. إلا إذا كنت تريد موتنا. وعندئذ، فمهما أجامل وألح تزداد إباءاً وتمنعاً، وبأية طريقة تكون، تجعل بقية الضيوف يرافقونك.

كشّر مصطفى ـ الذي كان يستمع إلى كلامي بفم مفتوح وعنق طويل ـ تكشيرة مليحة تعني أن: هراء، وبعد أن دوزن جهاز صوته زمناً قال: «فهمت جيداً، اطمئن إلى أنني سأتدبر ذلك».

كررت درسه عدة مرات حتى حفظه. عندما تيقنت أنه فهم جيداً، أرسلته إلى غرفة أخرى كي يبدل ملابسه، ويرتب شأنه، وعدت إلى خط مطالعة كتاب «الظل المنير».

بعد ساعتين، تحلق الضيوف بدون تأخير، كاملين تامّين، حول المائدة،

مهتمين تماماً بصيغة «بلعتُ»، وإذا بمصطفى يدخل بغتة بلباس جديد وجوارب وربطة عنق حرير ممتازة وجزمة من جلد لماع متبختراً فتاناً ثملاً كالطاووس. كان قد حلق وجهه وملأ ثقوبه وحفره ومطبّاته بذرور وكريم، كما يملأون ثقوب جدار بالتبن ـ وطين، ولمّع شعره، وقصقص الصوف الزائد من أذنه وأنفه وعنقه، وتزيّن على آخر عيار فصار معطراً منوراً، معنعناً في الأحاديث، كما لو كان من عشاق السينما المشاهير وقد خرج من الشاشة وشرّف مجلسنا وزيّنه بطلعته. تعجبت كثيراً للحيلة التي استخدمها، مع قامته بالغة الطول، بحيث استوى لباسي عليه مضبوطاً، كما لو أنه كان لباساً خاطه خياط الأزل على قامة جنابه الجميلة.

أدى السيد مصطفى العزيز، بكامل الوقار والجاذبية، المجاملات المألوفة واستقر بمنتهى الرزانة والبرود على مكانه أدنى يدي، عند رأس المائدة. قدمته لأصحابي على أنه أحد شبان العاصمة الفضلاء اللائقين، ولما رأيت أنه يتدبر جيداً واجباته المقررة، سررت جداً من صميم القلب، واطمأن بالي تماماً بشأن المسألة إياها.

لماذا أوجع رؤوسكم؟! لم يمض وقت طويل حتى هجم حضراتهم على أنواع المأكولات المصفوفة على المائدة، وصبوا ما كان هناك، إضافة إلى مقدار كبير من المشروبات، في خُمرة بطن هذا الشاب الفاضل اللائق. ولا حاجة للتذكير بأنه لا يعد التقصير، مهما ضؤل، جائزاً في الأكل، وعدا عن هذا فإن أثر الشراب والكباب قد قلب ماهيته على نحو لا يصدَّق. لقد حمي فكّه[١٧] الآن، فقص مناقير الجمع بعذوبة الكلام وكثرة الحكي والمزاح وإلقاء النكات وذكر الطرائف، فصار المتكلم وحده وزينة المجلس بلا منازع.

إن ذلك الإنسان عديم الحياء والخجل، الذي لم يمد قدماً أبعد من الولي (داوود) وحضرة (عبد العظيم)، صار يحكي أشياء عن ماضيه في شيكاغو ومنشستر وباريس ومدن أخرى في أوروبا وأمريكا. بحيث لم يبق الكثير حتى

أرسل أنا نفسي اللعنات على من ينكر ذلك. صار الجميع آذاناً وهو لساناً. والعجيب أن الغوص المتتالي للقم لم يكن ليعيق قط. لكأن في حلقومه أنبوبتين: إحداهما لبلع اللقمة والثانية لإخراج الكلام الضخم.

بمناسبة الحديث عن [اليوم] الثالث عشر من العيد[١٨] شرع يقرأ قصيدة قال إنه نظمها أمس. ارتفع صياح الاستحسان والتشجيع إلى عنان السماء. واستعاد إثنان من الجماعة ـ يُعرفان بالعلم والكمال كثيراً ـ عدداً من الأبيات مرتين أو ثلاثاً. وابتهج أحد الحضور، الذي كان يجر أذيال الشعر والأدب، بحيث أنه تقدم وقبّل جبهة الشاعر وقال: «إي والله، إنك لأستاذ حقاً»، وسأل عن تخلصه[١٩]. عبس مصطفى، من باب الاستهانة، وجهه وقال: إنني أعتبر التخلص من الزوائد، ومن جملة الرسوم والعادات التي ينبغي تركها، ولكن بناء على إلحاح المرحوم أديب البيشاوري ـ الذي كان بالغ اللطف معي، وكان في آخر عمره كثير الإلفة معي وصار كأسنا وكوزنا واحداً ـ اخترت بناء على اقتراحه كلمة «أستاذ»، ولكنني لا أحب استعمالها كثيراً. . .

في هذه الأثناء ارتفع صوت جرس التلفون من صالة المبنى. . اتجه السيد أستاذ نحو الخادم وتفضل بالقول: «أتصور يا صاحبي أنه وزير الداخلية وأنه يطلبني أنا. قل إن فلاناً على المائدة الآن، وسيتلفن هو لاحقاً»، ولكن اتضح أنه رقم خطأ.

لو كانت عيني تقع على عينه مصادفة، لكنت وضعت له حقه بيديه بلسان الإشارة إياه. ولكنه أحس بذلك، فكانت عينه ـ كدجاجة قطع رأسها، تتقافز باستمرار على المائدة من هذا الصحن إلى ذاك الإناء ولا يبالي بالدنيا والكائنات.

في هذه الأثناء جرى صرف حساء الشعير وكباب لحم الحملان والرز والرز المخلوط والملحقات، وبدأت مقدمات التجشؤ، وحانت الفرصة المناسبة لأن يجلبوا الوز المشوي. كما لو كنت أنتظر أمراً هائلاً، كان قلبي يدق،

ومن أجل حفظ الأوزة وصيانتها أقرأ في قلبي: فالله خيرٌ حافظاً. رأيت الخادم يدخل، والطبق فوق يديه، ويضع في وسط المائدة أوزة سمينة محمصة لايزال الزيت يئز من أطرافها.

كانت كل حواسي عند مصطفى خشية أن تُثمله رائحة الأوز فينسى نفسه. ولكن لا، الحمد لله لايزال عقله في موضعه، ورأسه في الحساب، فبمجرد أن وقع بصره على الوزة اتجه نحو الضيوف وقال: أيها السادة، صدقوا أن مضيفنا العزيز لم يقرأ هذا النفس الأخير على نحو صحيح. أفالآن وقت جلب الأوز؟ أنا شخصياً أكلت حتى الحلقوم، وإن فصلتم رأسي عن جسدي لا أستطيع أن آكل ولا لقمة أخرى حتى ولو كانت مائدة من السماء. فنحن لا نفكر في أن نخرج من هنا مباشرة إلى مستشفى حكومي. ليست معدة الإنسان مجرى نهر (زِنْدَه رُوْد) حتى لا تمتلئ مهما صببتم فيها. وعندئذ نادى على الخادم وقال: «تعال يا صاح، إن السادة ليرجون أن ترفع هذه الوزة، وتأخذها ـ بلا كلام أو جدال ـ مباشرة إلى الجوّاني».

وقع الضيوف في موقف بالغ الحرج، وما كانوا يعرفون ما ينبغي أن يفعلوا. فمن ناحية بلغت رائحة الشواء الجديد أنوفهم، وهم ليسوا غير ميالين قط إلى أن يذوقوا ولو لقمة، من باب المقارنة، ليقارنوا بين طعم الأوز والحمل، ولكن مقابل تظاهرات شخص شاخص مثل السيد أستاذ بقوا مترددين، ومع أن أنظارهم كانت مسمرة على الوزة لم يكن أمامهم ـ شاؤوا أم أبوا ـ إلا أن يؤيدوا كلام مصطفى ويقولوا: نعم وطبعاً. رأيت أن مؤامرتنا كانت تنعقد. كنت أتمنى أن أتمكن من أن أقول لمصطفى أحسنت وأتولى شفته ورؤاله البعيريين بالتقبيل. فكرت في أن أسنده من الآن فصاعداً وأتدبر له شغلاً مناسباً، ولكن لمجرد حفظ المظاهر ولكي لا أبقى ساكتاً أمسكت السكين العريضة الطويلة، التي تشبه ساطور القصابين بيدي، ومثل أب يريد التضحية بابنه هجمت على الوزة عليها السلام وتظاهرت بأنني أريد أن أمزق هذا الحيوان عديم الناصر والمعين، وفي

هذه الأثناء أيضاً وجهت سلسلة مجاملات وإصرار نحو السيد أستاذ، من أنه: ولو لمجرد خاطري تفضل بتناول لقمة واحدة فقط، بحيث - في الأقل - لا تضيع زحمات طباخنا سدى، ولا يغلبه الخجل.

من حسن الحظ أن القصاب كان قد قطع لسان الأوزة مع رأسها وإلا فما كانت لتقول بذلك اللسان لي أنا عديم الحياء المنافق. الخلاصة؛ كان مني إصرار لا ينقطع ومن مصطفى إنكار دائم، وجر الأمر إلى أن اتحد الضيوف معه فصاروا جميعاً مطالبين بإعادة الوزة وأنصار تماميتها وعدم المساس بها.

كان الأمر يجري وفق المراد لمّا أفلت من فمي أنه: أليس حراماً أن يتجاوز السادة عن أوزة كهذه ملأوا بطنها بيرقوق (بَرغان)[٢٠] وحمّروها خصيصاً بزبدة إفرنجية؟ لم يكد هذا الكلام يخرج من فمنا، الذي ليفتّته الله، حتى مدّ مصطفى، كما لو كان نابضه أفلت غفلةً، بلا إرادة، يده وأوصل كتف أوزة إلى ما تحت أسنانه قائلاً: «الآن إذ يقول جنابك إنها مملوءة بيرقوق برغان ومحمرة بزبدة إفرنجية فليس مناسباً أن نريق ماء وجه مضيفنا المحترم أكثر من هذا، فمن أجل خاطره فقط لنذق لقمة مختصرة». ولم يفوّت الآخرون - الذين كانوا ينتظرون مثل هذا الكلام - الفرصة فانكبوا، كالمصابين بقحط، على الأوزة، وفي رمشة عين قَطعت عظامُ الأوزة ولحمُها، كما لحم وعظام بعير أضحية، مراحلَ المضغ والبلع والهضم والتمثيل في ثنايا إثني عشر حلقوماً وأكناف دزينة بطون وأمعاء، أي كما نقول نحن الشطّار بلساننا: استأصلوها من الجذور كما لو أن أوزةً لم يسبق أن خرجت من بيضة قط ولم تمد قدماً إلى عالم الوجود! يقولون: إن الإنسان حيوان آكلُ لحم، ولكن يبدو أن هذا المخلوق العجيب خُلقَ آكلَ عظام. حقاً كان الأمر كما لو أن كلاً منهم جلب معه معدة احتياطية. لم يكن قابلاً للتصديق قط أنهم كانوا، على هذه المائدة ذاتها، في نزاع ومعركة طوال ساعتين كاملتين، بالسكاكين والشوكات، مع تل من اللحم والجلد والبقول والحبوب، وقد لعقوا حتى قعور الصحون. انشغل الإثنا عشر جميعاً، مجدداً،

بالتمام والكمال وعلى خير ما يرام ، بالأكل ورأيت ، بأم عيني ، أوزتي الدامية تصير ، فلذة فلذة وقطعة بعد أخرى ، طعمة هذا الجمع نسري الصفات فتختفي كأن لم تكن شيئاً مذكوراً في مقبرة بطون السادة .

صرت كأن الماء نشف في فمي لرؤية هذا المنظر الهائل ، ولم يكن بيدي غير أن أقدم ضحكات مقسرة وترحيبات مصطنعة .

ولكن اسمعوا بضع كلمات عن السيد أستاذ ، الذي تفتّح مرحه حديثاً ، إذ أخرج منديلي الحرير من جيب البنطال العائد للداعي ، وراح يمسح - متظاهراً متغنجاً - شفته وفمه البديعين ، ومرة أخرى طاب له ممارسة الخطابة عن صيد خنزير قام به في غابات سويسرا في معية جمع من مشاهير تلك الديار وأشرافها وعن مطارحاته الغرام مع بنات تلك البلاد الجميلات جداً الكاملات للغاية . . وروى حكايات ماذا أقول لكم عنها! وأيد الحضور كلامه كما لو كان وحياً منزّلاً ، وراحوا يقدمون فروض التحسين والتشجيع .

في ذروة هذه المعركة الأكلية ، التي ذكّرني فيها منظرُ فناء الأوزة ، رحمها الله ، وزوالها بعدم استقرار فلك الدجاج الرومي ، وشقاء الناس الدون ، ومكر الدنيا العاهرة وحيلها ، ووقاحة مصطفى كريه التركيب هذا ، ارتفع صوت التلفون مجدداً . قفزت إلى الخارج وعدت فوراً وتوجهت إلى السيد الصياد قاتل النساء وقلت: يا سيد مصطفى خان ، وزير الداخلية على التلفون شخصياً ، ويصر على أن يكلمك أنت ذاتك . أتم صاحبنا حساب عمله ، وبدون أن يقلل بقدر رأس إبرة من تظاهره وادعائه ، اقتحم المخاطر وخرج ورائي من الغرفة .

بمجرد أن خرجنا من الغرفة أغلقت الباب ودوّى صوت صفعة جافة ، يصفها المجددون بالرنانة ، ألقيت فيها أصابع الداعي الخمسة بمعية معصمي وكفي وما يتعلق بهما فانطبعت على خد السيد أستاذي المورَّد . قلت: يا مخروب البيت ، بلعت حتى الحلقوم ، ولكن ما أن وقعت عينك على الأوزة حتى خسرت الدين والإيمان وخنتني وخدعتني أنا الذي جعلتك ، أيها اللئيم ، عيبة أسراري . خذ إذن فهذا إنعامك ، وأكرمته بصفعة أخرى .

بذلك الصوت المقطّع ذاته، واللسان الألكن وحركاته المألوفة تلك التي لم يظهر منها شيء طوال وقت الغداء قال لاهثاً باكياً: يا ابن عمي العزيز، ما ذنبي أنا، أفنسيت أنك عندما اتفقنا وتواعدنا لم تتحدث إلا عن الأوزة؟ متى قلت إنها حمرت بالزبدة الإفرنجية وحُشي بطنها ببرقوق برغان؟ صدقني إن كان ثمة تقصير فهو تقصيرك لا تقصيري.

صرت عصبياً بحيث لم تكن عيناي تريان. كنت أصعق من تبريراته هذه. بلا إرادة فتحت باب المنزل وألقيت خارجاً هذا الشاب ناكر الجميل كما جرذ سحب من خُمرة زيت، وتمشيت قليلاً في الباحة من أجل تسكين أحوالي وتهدئة غلياني الداخلي، ثم دخلت غرفة الوليمة بوجه كأنه مُدَّ فوقه قشر من الضحك المفتعل.

رأيت الضيوف متمددين يساراً ويميناً ومنشغلين بلعب النرد، وكل حواسهم منصرفة إلى فكر الشش وبش وسدّ الخانات. قلت إن السيد مصطفى خان اعتذر كثيراً لاضطراره إلى الانصراف من دون توديع السادة؛ كان وزير الداخلية قد أرسل سيارته الشخصية كي يذهب إليه مباشرة، فلم يرد أن يزاحم السادة.

تأسّف جميع أهل المجلس، وقالوا أشياء عن طيب مشربه وحسن معشره وأُنس محضره وفضله وكماله، وطلبوا مني رقم تلفونه وعنوان منزله من أجل دعوته إلى مجالسهم، وأنا أيضاً ـ ولا يخفى عليكم ـ أعطيتهم كل ذلك بمنتهى عدم الحياء والخجل وبدون أن يبدو على وجهي، على نحو مغلوط.

في اليوم التالي تذكرت أنني رميت خارج بيتي بالأمس طقماً من أحسن ملابسي المخيطة حديثاً مع كل ملحقاته مرفقة بما انطوى عليه، يعني السيد أستاذي مصطفى خان، بيدي التي شُلت ـ إن شاء الله ـ ولكن لما كان السهم الذي يترك القوس لا يعود فقد آمنت مرة أخرى بالمثل الرفيع القائل: «نحن جلبنا هذا لأنفسنا»، وكويتُ ظاهر يدي متعهداً أنني لن أسعى إلى ترفيع المرتبة مادمت حياً.

الحواشي

(١) مثل فارسي سائر، يشبه قولنا: «على نفسها جنت براقش».

(٢) عيد رأس السنة الفارسية، يوم ٢١ آذار، وهو أول أيام الربيع.

(٣) كناية عن تلهية الفم على حساب المعدة، أكل ما لا يُشبع.

(٤) كناية عن الاستعداد لوليمة قادمة بتجويع الذات!

(٥) انظر ص٢٦ من هذا الكتاب.

(٦) مثل سائر: لا يمكن دفع السيئات عن الذات.

(٧) وضع الوردة على رأس أحد كناية عن أداء عمل نتيجته تضر.

(٨) Asparagus

(٩) البطل التاريخي، شبه الأسطوري، الإيراني. كان ضخم الجسد قوياً، حتى صار لقبه: القوي أو الضخم.

(١٠) ابنة الإمام موسى بن جعفر، شقيقة علي، اسمها الأصلي «فاطمة»، هاجرت كي تلتحق بشقيقها الذي صار ولي عهد المأمون، لكنها توفيت على مشارف «ري» القديمة، فدفنت في مدينة «قم» وصار مدفنها مزاراً.

(١١) قص المنقار كناية عن الحمل على الصمت.

(١٢) أجعله ينسحب خجلاً .

(١٣) المن والسلوى ، مَنّ السماء .

(١٤) حلوى ، تُحشى بالفستق أو الجوز .

(١٥) محافظة ، ومركزها ، على مشارف الصحراء في وسط إيران ، أُميل إلى الجنوب الشرقي . مشهورة بعمارتها اللِبْنية ، باقلوتها ، ومناديل الحرير الكبيرة .

(١٦) مثل ، واضح المعنى: يُضرب للحث على الاعتدال في المأكل .

(١٧) لبسته رغبة الثرثرة والكلام .

(١٨) يحتفل الإيرانيون في اليوم الثالث عشر من السنة الجديدة بقضاء نهارهم خارج البيوت .

(١٩) لقب يتخذه الشاعر لنفسه ، كما اسم مستعار ، ولكن يدرجه كثيراً في قصائده .

(٢٠) من مناطق كردستان إيران الزراعية .

صادق هدايت

ولد صادق هدايت ـ أهم كاتب قصة إيراني معاصر ـ في شباط ١٩٠٣ في عائلة من الأعيان. اختبر في حياته القصيرة نسبياً كل الأساليب الأدبية لعصره وخلف وراءه أعمالاً خالدة.

فيما عدا منزلته الممتازة في الأدب، كانت له خصوصيات لا تجارى من حيث المباني الفكرية المتفتحة. تشمل أعماله طيفاً متنوعاً من القصة النفسية، السخرية، قصص بأسلوب الواقعية الاجتماعية وحتى الرومانسية القومية. مع أن ميلاد القصة الفارسية المعاصرة يُنسب إلى محمد علي جمالزاده، لكن هدايت هو من منحها رونقاً ووسعها بشكل ملفت للنظر، وهو كذلك أشهر كاتب قصة إيراني خارج حدود إيران.

أكمل هدايت في سنة ١٩٢٥ الدراسة الثانوية في ثانوية «سن لُوِي» في طهران، وكان من جملة الطلاب الذين أوفدوا في السنوات الأولى من سلطنة رضا شاه، فعيِّن في سنة ١٩٢٦، لمواصلة الدراسة في أوروبا، ولكن عدم موفقيته في الدراسة الجامعية يصير سبباً في عودته إلى إيران سنة ١٩٣٠ ويفتتح حياته الأدبية المثمرة. إن أعماله الرئيسة هي: «زنده بكور[١] (وتضم ثماني قصص قصيرة)»، «پروين دختر ساسان، سه قطره خون[٢] (وتضم إحدى عشرة قصة قصيرة)»، «سايه روشن[٣] (وتضم سبع قصص قصيرة)»، «نيرنكستان»[٤]، «علويه خانم»[٥]، «مازيار»، «وغ وغ صاحاب»[٦]، «بوف كور»[٧]، «سك ولكرد[٨] (وتضم سبع قصص قصيرة)» ورواية «حاجي آقا»[٩].

كما أنه معرِّف كافكا باللغة الفارسية وأول مترجم لأعماله.

أنهى حياته في نيسان سنة ١٩٥١ في باريس، بتركه حنفية الغاز مفتوحة في شقته المستأجرة.

صادف العقد الأخير من حياة هدايت سقوط دكتاتورية رضا شاه وانتعاش الحياة السياسية للمجتمع الإيراني. في هذا العقد ذاته، نشأت الأحزاب السياسية المختلفة في المجتمع، وتبدل جزب توده - الحزب الشيوعي الموالي للاتّحاد السوفييتي، الذي جذب إليه أكثر مفكري ذلك الزمان - إلى أقوى حزب سياسي في إيران. كما أنه في هذا العقد أيضاً تفرض حركة تأميم النفط الإيراني تأثيرها في منطقة الشرق الأوسط كلها. لكن هدايت - بشامّته القوية ووعيه الاجتماعي العميقين - يواجه كل هذه المسائل باحتياط، وحتى بسوء ظن. طبيعي أنه مات قبل انقلاب المخابرات المركزية الأمريكية - الذي وضع حداً لكل تلك الصحف والأحزاب والحماس الاجتماعي - بسنتين، ولكن يبدو أنه قد تنبأ حتى بالثورة الإسلامية لسنة ١٩٧٨ في إيران، لكثرة ما كان يعتبر إمكان التحول في هذا المجتمع المتصلب بعيداً وضعيفاً.

كان هدايت غير قابل للفهم من قبل الآخرين طول حياته؛ وكان سلوكه يفسر بالطبع على أنه سلوك مغرور وضد اجتماعي، ولكن الجهل والخرافات والتخلف هي ما جعل هدايت في الواقع ينفر من عصره ومجتمعه، وإلا فإن صحيفة أعماله الأدبية الحافلة كانت تؤشر، أكثر من كل شيء، عشقه للغته الأم. إن إحدى النقاط المهمة في تاريخ الأدب القصصي الإيراني الحديث، القصير، هو أن ابتداء هذا الأدب سُكَّ باسم شخص كانت حياته وأعماله يحملان، على نحو جيد، الانكسارات والضياعات التي أفعمت حياة الكاتب الإيراني لحظة فلحظة. إن أعماله، وحياته، و- خاصة - موته حوّلته إلى وجه أسطوري. حيث البحث حول موضوعات بسيطة، كالمقاهي التي كانت محال لقاءاته وعمله، يمكن أن يصير موضوعاً لذيذاً لأصدقائه.

إن رواية البوم الأعمى، التي تُرجمت سريعاً جداً إلى أغلب لغات العالم الحية، هي رائعته. لم يقم في إيران حتى اليوم فيما يتعلق بأي عمل آخر قدر ما أثير حول هذه الرواية من بحث وجدل. لقد كُتبت مقالات وكتب عديدة حولها، فتح كل منها الطريق أمام بحث وتفسير مختلفين. فاعتبرها بعضها تأريخاً للثقافة، وقتلاً للأسطورة عن بلاد إيران، فيما اعتبرها آخرون - ببساطة - نقداً لاستبداد رضا شاه.

* * *

إن «داش آكل»، التي اختيرت من مجموعة «ثلاث قطرات دم»، واحدة من أشهر قصص هدايت القصيرة، التي يجري فيها التأكيد على اضمحلال عصر وموته التاريخي، عصر كان اللون الغالب فيه وجود الفتوات في الأزقة والأحياء والأسواق.

في هذه القصة انكسر داش آكل - الذي يعي جيداً انتهاء عصره - في عشق حرّمه عليه التزامه الأخلاقي، فيقبل الموت على يد عنصر الشر في المحلة، أو الانتحار في الواقع، بيسر.

الحواشي

(١) الموؤود .

(٢) پروین ابنة ساسان ، وثلاث قطرات دم .

(٣) الظِلال .

(٤) بلاد الحيل .

(٥) السيدة علوية .

(٦) وغ وغ صاحب ـ وهي اللفظة التي كان يخاطب بها الأجانب ـ وخصوصاً الإنكليز ـ في الهند .

(٧) البوم الأعمى .

(٨) الكلب السائب .

(٩) السيد الحاج .

داش آكل

صادق هدايت

يعرف أهل (شيراز)[1] جميعهم أن (داش[2] آكل) و(كاكا[3] رستم) لا يطيق أحدهما رؤية الآخر. ذات يوم، كان داش آكل مقرفصاً على صفَّة مقهى الـ(ميلَيْن)، هناك حيث ملتقاه القديم. كان قد وضع القفص المزأبر، الذي ألقى عليه ملاءة قرمزية، إلى جانبه وراح يدير برأس أصبعه الثلج في طاس الماء. فجأة دخل كاكا رستم من الباب، ألقى عليه نظرة احتقار ومضى، ويده في حاشية شاله لاتزال، فجلس على الصفة المقابلة، ثم التفت نحو صبي القهوجي وقال:

- يايا صبي، هاهات شاياً.

ألقى داش آكل نظرة ملأى بالمعاني على صبي القهوجي بحيث حسب هذا حسابه، وعامل أمر كاكا كمن لم يسمعه. كان يُخرج الأقداح من الطاس البرونزي ويُغطسها في دلو الماء، ثم يجففها بعدئذ واحداً واحداً ببطء شديد. من مَسْح المنشفة حول زجاج الأقداح، كان يرتفع صوت احتكاك.

غضب كاكا رستم من هذا الإهمال، صاح مرة أخرى:

- أأ. . . أأنت أطرش؟ معـ. . . معك!

نظر صبي القهوجي بنظر متردد إلى داش آكل، فقال كاكا رستم من بين أسنانه:

- هه هُو. . هؤلاء المتعنترون، لو كانوا رجالاً! ليأتوا الليلة ويمـ. . . يمتحنوا قوتهم!

ضحك داش آكل، الذي كان لايزال يدير الثلج في الطاسة ويعاين الموقف متلصصاً، ضحكة جريئة جعلت صفاً من الأسنان البيض المرصوصة يلمع من تحت شاربه المصبوغ بالحناء، وقال:

- عديمو الغيرة يقرأون الأراجيز. سيُعلم حينئذ من هو رستم صولت وأفندي پيزي . .

ضحك الجميع، ضحكوا لا بسبب تلعثم لسان كاكا رستم - فهم كانوا يعرفون أن لسانه يتلعثم - ولكن داش آكل كان كالشاة ذات الغرة، مشهوراً، وما كان ثمة من فتوة لم يذق ضرب صفعته، وعندما كان كل ليلة، إذ يشرب زجاجة عرق مضاعف الغلْي في بيت الملاّ[٤] إسحاق اليهودي، ويقف في رأس محلة (سردزك)، فكاكا رستم أمر بسيط، حتى جده لو جاء لكان يرفع راية التسليم. كان كاكا ذاته أيضاً يعرف أنه ليس نداً لداش آكل ولا يصير منافساً له، لأنه ذاق جرحاً على يده مرتين، وكان قد جلس على صدره ثلاث مرات أو أربع أيضاً. كان أسودَ الحظ كاكا رستم قد رأى الميدان خالياً قبل بضع ليال فراح يثير النقع والغبار. وصل داش آكل كالأجل المعلّق ونثر عليه حفنة كنايات هازئة. كان قال له:

- يا كاكا ليس رجُلك في البيت. معلوم أنك دخنت «بَسْت»[٥] «فُوْر»[٦]، فأثملك جيداً. أتدري ماذا؟ دع مظاهر عدم الغيرة، مظاهر الدونية هذه، لقد افتعلت الفَتوَنة، أفلا تخجل أيضاً؟ هذا أيضاً نوع من الشحاذة جعلته حرفة لك. أتقطع الطريق على الناس في كل ليلة من ليالي الله؟ قسماً بالولي (پوريا)[٧]، لو أسأت التصرف في حالة السكر مرة أخرى لأحرقنّ شاربك، أنصفُك بحد هذه الـ (قمه)[٨].

عندئذ وضع كاكا رستم ذيله على ظهره[٩] ومضى. ولكنه حمل الضغينة على داش آكل في قلبه، وراح يبحث عن ذريعة كي يثأر.

ومن الطرف الآخر كان أهل شيراز جميعهم يحبون داش آكل؛ لأنه في الوقت الذي كان يحرّم محلة سردزك على الأغيار، لم يكن له شأن بالنسوة والأطفال، وإنما على العكس، كان يسلك مع الناس برقّة وعطف، ولو أن أسودَ بخت كان يعاكس امرأة أو يحاول فرض شيء على أحد، فإنه ما كان لينجو من يد داش آكل، وغالباً ما رؤي داش آكل يعاون الناس، يعطيهم، وعندما تتفتح أريحيته يوصل أحمالهم إلى بيوتهم.

ولكن لم تكن عنده عين تسمح له برؤية شخص آخر أعلى منه، خاصة كاكا رستم، الذي يدخن يومياً ثلاثة قراريط أفيون ويقوم بألف نوع من الحيل. كان كاكا رستم قد جلس، بفعل هذه الإهانة التي لحقته في المقهى، مثل سمّ أفعى، يعض شاربه، ولو أن أحداً طعنه بسكين ما كان دمه ليسيل[10]! بعد بضع دقائق، حين خفت صخب الضحك هدأ الجميع إلا صبي القهوجي، الذي وضع يده - بلونه المرهق، قميصه عديم الياقة، طاقية النوم وسراويله الأطلس - على فؤاده وراح يتلوى من ضغط الضحكة فيجعل أغلب الباقين يضحكون لضحكه. أفلت كاكا رستم زمام أعصابه، مدّ يده فرفع وعاء السكر البلوري ورماه على صبي القهوجي. ولكن وعاء السكر ارتطم بالسماور فانطرح السماور من فوق الصفّة مع وعاء الشاي وكسر بضعة أقداح. ثم نهض كاكا رستم وخرج من المقهى بوجه منفعل.

تفحص القهوجي، باضطراب، السماور وقال: «كان رستم وطاقم أسلحة، وكنا نحن ولا شيء غير هذا السماور القراضة»!

قال هذه الجملة بنبرة مهمومة، ولكن لأنه كنّى بها عن رستم[11]، فقد اشتد الضحك على نحو أسوأ. ومن ضغط القهر هجم القهوجي على صبيه، ولكن داش آكل مدّ يده، باسماً، فأخرج من جيبه كيس نقود، وألقى به في الوسط.

رفع القهوجي الكيس. رازه، وابتسم.

في هذه الأثناء دخل المقهى، مرتبكاً، رجل بقميص مخملي وسروال فضفاض وطاقية من لبد. ألقى نظرة في ما حوله، مضى إلى أمام داش آكل حيث ألقى التحية وقال:

- توفي الحاج (صمد).

رفع داش آكل رأسه، وقال:

- ليرحمه الله.

- أفلا تدري بأنه أوصى؟

- أنا لست آكلَ موتى. اذهب وخبِّر أكلة الأموات.

- لكنه جعلك وكيله ووصيه.

كأن هذا الكلام مزّق وسن داش آكل، إذ أنه ألقى مجدداً نظرة عليه من رأسه حتى قدميه. مدّ يده على جبينه، فاندفعت طاقيته بيضية الهيئة إلى وراء وانكشف جبينه ذو اللونين، الذي كان نصفه قد احترق من أشعة الشمس وصار بنياً وبقي نصفه الثاني، الذي كان تحت الطاقية، أبيض. ثم هزّ رأسه، وأخرج چپقه - المشغول مبسمه بشغل الخاتم[١٢] - ووضع في رأسه، بهدوء، تبغاً جمعه من حوله بإبهامه، أرّثه ثم قال:

- رحم الله الحاج، لقد مات الآن، ولكنه لم يفعل حسناً؛ لقد ألقى بنا في ورطة. طيب، اذهب أنت، وسأجيء بعدك.

كان الشخص الذي دخل وكيل أعمال الحاج صمد، وقد خرج الآن بخطى طوال.

قطب داش آكل، سحب من چپقه نفساً بتفنن، ثم - كما لو طغى فجأة على جو المقهى، المغطى بالغيوم السوداء، ضحك وسرور - بعد أن أفرغ داش

آكل رمــاد چـپقه نهض فأودع القفـص المزابر بيد صبـي القهوجي وخـرج من المقهى.

عندما دخل داش آكل برّاني[١٣] الحاج صمد، كانوا قد رفعوا مجلس العزاء. كان بضعة نفر من القراء وموزعي أجزاء القرآن يتنازعون على المال. بعد أن تأخر بضع دقائق عند الحوض، أدخلوه إلى غرفة كبيرة كانت أراسيُّها[١٤] تنفتح على الخارج. جاءت السيدة إلى ما وراء الستارة، وبعد السلام والمجاملات المألوفة جلس داش آكل على الحشية وقال:

ـ لتسلمي أنت أيتها السيدة، ليسلّم الله أبناءك.

فقالت السيدة بصوت مخنوق:

ـ في الليلة التي تلخبطت فيها حال الحاج، ذهبوا فجلبوا إمام الجمعة إلى عند رأسه، وقد جعلك الحاج في حضور السادة جميعهم وكيله ووصيه، لابد أنك كنت تعرف الحاج من قبل؟

ـ لقد تعرفنا على بعض منذ خمس سنوات أثناء السفر إلى كازرون[١٥].

ـ كان الحاج رحمه الله يقول دائماً: لو كان ثمة رجل فهو فلان.

ـ أيتها السيدة، إنني أحب حريتي أكثر من أي شيء، ولكن الآن وقد صرت مديناً لميت، فقسماً بحد الشمس هذا: إن لم أمت.. فسأري الجميع.

ثم، إذ أدار رأسه، رأى من شق الستارة الآخر فتاة ملتهبة الوجه لها عينان جذابتان سوداوان. لم يدم نظر أحدهما إلى عيني الأخرى دقيقة، ولكن كما لو أن تلك الفتاة خجلت، فقد ألقت الستارة وتراجعت. أكانت تلك الفتاة حسناء؟ ربما، ولكن عينيها الجذابتين فعلتا، على أية حال، فعلهما وغيّرتا حال داش آكل. طأطأ رأسه واحمر وجهه.

كانت هذه الفتاة (مرجان)، ابنة الحاج صمد، وقد جاءت ـ من حب استطلاعها ـ كي ترى داش آكل: شهير المدينة وقيِّمهم.

انشغل داش آكل منذ اليوم التالي بتحري أعمال الحاج، فسجّل - مع دلال خبير، وإثنين من فتيان المحلة وكاتب - كل الأمور بدقة، وأعدّ بها قائمة. وضع ما كان زائداً في المخزن، أقفل بابه وختمه. وباع ما كان قابلاً للبيع، وأعطى سندات الأملاك فقرئت له، وتسلم طلباته وسدد ديونه. وقد تم تنفيذ كل هذه الأعمال في يومين وليلتين. وفي الليلة الثالثة كان داش آكل ذاهباً إلى بيته، متعباً مرهقاً، من مفترق (سيد حاج غريب)، إذ صادفه في الطريق (إمام قلي) صانع الأقفال، وقال:

- إن لكاكا رستم ليلتين الآن وهو ينتظرك. كان يقول ليلة أمس إن فلاناً زرعنا حقاً والتهى عنا، أظنه نسي قوله».

مسح داش آكل شاربه بيده، وقال:

- لا تهتم لأمره.

كان داش آكل يتذكر جيداً أن كاكا رستم قد توعده قبل ثلاثة أيام في مقهى الـ(ثلاثة أميال)، ولكنه لما كان يعرف خصمه ويعرف أن كاكا رستم قد تواطأ مع إمام قلي كي يريقا ماء وجهه، فإنه لم يبالِ كلامه، وسلك طريقه ومضى. وخلال الطريق كانت كل حواسه وفكره تتجه إلى مرجان، ومهما حاول أن يبعد وجهها عن عينيه، كان يزداد ويشتد تجسداً أمام ناظريه.

كان داش آكل رجلاً في الخامسة والثلاثين، قوياً ولكن سيئ التركيب. كان كل من يراه أول مرة يشمئز من مظهره، ولكنه إن جلس يستمع إلى حديثه مجلساً واحداً فإنه يفتتن بحكاياته التي يرويها عن دوران حياته التي كانت على ألسنة الجميع، وإذا ما تجاهل المرء الجروح المتداخلة التي أحدثتها الـ قمات بوجهه، فإن لداش آكل شكلاً نجيباً وجذاباً: عينين زرقاوين بخضرة، حاجبين أسودين كثين، خدين عريضين، أنفاً دقيقاً بلحية وشاربين أسودين. ولكن الجروح خربت شغله؛ فعلى خديه وجبينه كانت آثار جروح سيف التأمت على

نحو سيئ، فكان اللحم الأحمر يلمع من بين أخاديد وجهه، والأسوأ من ذلك كله أن أحدها سحب حاشية عينه اليمنى إلى أسفل. كان أبوه واحداً من ملاّك فارس، وعندما توفي وصلت كل تركته إلى ابنه الوحيد الفريد. ولكن داش آكل كان أريحياً متلافاً، لا يولي مال الدنيا ونقدها قيمة، يقضي حياته برجولة وحرية وكرم وطيب نفس، ولم يكن عنده أي اهتمام آخر في حياته، وكان يبذل كل ماله للمحرومين والمعوزين ويهبه لهم، أو يشرب عرقاً مكرر التقطير، ويقف صارخاً في مفارق الطرق أو ينفق في مجالس الطرب على مجموعة من الأصدقاء صاروا طفيليين عليه.

وتتلخص كل معايبه ومحاسنه في هذه الحدود، ولكن ما كان يبدو محيراً أن موضوع العشق والغرام لم يتسلل إلى حياته حتى الآن. وعندما أقنعه رفاقه بضع مرات فهيأوا مجالس سرية، كان يبتعد على الدوام. ولكنه من يوم أن صار وكيل الحاج صمد ووصيه ورأى مرجان، وقع تغيير تام في حياته؛ فمن جهة كان يعتبر نفسه مديناً للمتوفى وأنه قد صار تحت عبء المسؤولية، ومن جهة أخرى كان قد تولّه بمرجان. ولكن هذه المسؤولية كانت تضغط عليه أكثر من أي شيء آخر ـ هو الذي كان أوقع العبث في ماله وأحرق مقداراً من ثروته بلا أباليته. كان لا يفكر يومياً، منذ الصباح الباكر حين يصحو من نومه، إلا في تنمية أملاك الحاج. نقل زوجته وأطفاله إلى بيت أصغر، وأجّر بيته الشخصي، وجلب لأطفاله معلماً خصوصياً، وطرح ممتلكاته في التداول وانشغل هو من الصباح حتى المساء بمتعلقي الحاج وأملاكه.

منذ ذلك الحين فما بعد لم يعد لداش آكل شأن بجولان الليل وتحريم المرور في المفترقات. لم يعد له مع أصدقائه اختلاط، وهمد اندفاعه السابق. ولكن جميع الفتوات والسائبين، الذين كانوا ينافسونه، جاءهم الدور فراحوا ـ بتحريك من الطفيليين الذين انقطعت أياديهم عن أموال الحاج ـ يتحدّون داش آكل، وجعلوا من ذكره نُقل المجالس والملاهي. في مقهى (پاچنار)، لأن الأغلبية يتداولون موضوع داش آكل، ويقال:

ـ أتعني داش آكل؟ ليجمد حلقه، من يكون؟ حسناً ما انزوى، إنه يتمسح بمنزل الحاج، كأنما ينمسح به شيء منه. . صار عندما يبلغ محلة سردزك ينحشر ذيله بساقه ويمر.

وكان كاكا رستم، بالعقدة التي كانت في فؤاده، يقول بلكنته:

ـ شيخوخة وتظاهر! صار صاحبنا عاشقاً لابنة الحاج صمد، غلّف خنجره! نثر تراباً في أعين الناس. بدعوى أنه صار وكيل الحاج فقد شفط كل أملاكه. ليمنح الله الحظوظ!

لم يعد لحنّاء داش آكل لون[١٦] عند أحد، وما عادوا يفرمون له الكراث[١٦]. أينما كان يدخل كانوا يتهامسون فيما بينهم ويغمزونه. كان داش آكل يسمع هذا الكلام من هنا ومن هناك عرضاً، ولكنه يتجاهله، ولم يباله أيضاً، لأن عشق مرجان تغلغل في شرايينه وعروقه على نحو لم يعد يذكر معه غيرها أو يفكر في غيرها.

في الليالي كان يشرب العرق من اضطراب الفكر، ومن أجل تسلية نفسه اشترى ببغاء. كان يجلس أمام القفص ويناجي الببغاء بهمومه. لو أن داش آكل خطب مرجان فلا شك أن الأم كانت ستعطيه مرجان على راحتي يديها. ولكنه لم يكن يريد، من الجهة الأخرى، أن يصير أسير امرأة وأطفال؛ كان يريد أن يكون حراً، على النحو الذي نشأ عليه. وعلاوة على ذلك، فقد فكر مع نفسه، أنه إن تزوج البنت التي أُودعت لديه، فسيكون ذلك خيانة للخبز والملح. والأسوأ من ذلك كله أنه عندما كان ينظر إلى وجهه كل ليلة في المرآة كان يعاين مواقع جروح القمات الملتئمة، وزاوية عينه المسحوبة إلى أدنى، ويقول بنغم مبحوح وبصوت عال:

ـ ربما لم تكن تحبني، لعلها تجد زوجاً وسيماً وشاباً. . لا، هذا بعيد عن الرجولة. . إنها في الرابعة عشرة وأنا في الأربعين من عمري. . ولكن ماذا

أفعل؟ هـذا الحب يقتلـني . . مرجان . . لقد قتلتِني . . لمن أقول؟ مرجان، قتلني حبك . .

كان الدمع يتجمع في عينيه ويشرب العرق كأساً بعد كأس. ثم ينام، وقد أصابه الصداع، فيما هو جالس. ولكن في منتصف الليل، عندما تنام مدينة شيراز بأزقتها الملتفة الملتوية وبساتينها التي تشرح القلوب وأشربتها الأرجوانية، عندما تتغامز النجوم هادئة وعلى نحو مرموز، فوق السماء التي كالقار، عندما تتنفس مرجان بخديها الزهريين في فراشها بهدوء ويمر طيفها نهاراً أمام عينيه، عندئذ كان داش آكل الحقيقي، داش آكل الطبيعي، بكل أحاسيسه وأهوائه وهوسه يخرج من دون حرج من القشرة التي لفتها حوله آداب المجتمع وأعرافه، من الأفكار التي تم تلقينه بها منذ الطفولة. ولكنه عندما كان يفز من النوم، كان يشتم نفسه، ويلعن الحياة ويدور في الغرفة كالمجانين، يكلم نفسه همساً ثم يقضي بقية النهار - لكي يقتل فكرة الحب في داخله - في السعي والاهتمام بأشغال الحاج.

مرت سبع سنوات على هذا المنوال، لم يقصِّر فيها داش آكل مقدار ذرة في العناية والإيثار فيما يتعلق بزوجة الحاج وأطفاله. لو أن أحد أطفال الحاج مرض، كان يحيي الليل عنده، مثل أم حانية، وقد تعلق بهم أي تعلق. ولكن حبه لمرجان كان شيئاً آخر، وربما كان عشق مرجان هو ما جعله إلى هذا الحد هادئاً وأليفاً.

أثناء هذه المدة كان جميع أطفال الحاج صمد قد شبوا عن الطوق. ولكن، ما كان لا ينبغي أن يقع وقع، وطرأ حادث مهم: لقد وُجد عريس لمرجان. وأي زوج! إذ كان أسنّ وأقبح من داش آكل. لم يبد على وجه داش آكل من هذه الواقعة عبوس أو تقطيب، وإنما على العكس انشغل، بمنتهى السرور، بتهيئة الجهاز وهيأ للعقد حفلاً لائقاً. نقل امرأة الحاج وأطفاله مرة أخرى إلى منزلهم الخاص، وعيّن لاستقبال الضيوف الرجال الغرفة الكبيرة ذات الأراسي. كان جميع رؤوس مدينة شيراز: التجار والكبار، مدعوين إلى هذا الحفل.

في الساعة الخامسة من عصر ذلك اليوم، عندما كان الضيوف يجلسون متلاصقين حول الغرفة، متربعين على سجاجيد رفيعة القيمة وقد صُفّت أمامهم أطباق الحلوى والفواكه، دخل داش آكل بوضعه الفتواتي القديم: شعر نافر ممشط، صديري مخطط، حمالة سيف، شال معقود الطرف، سروال من الساتان الأسود، ملكي[١٧] شغل (آباده)[١٨] وطاقية جديدة. ودخل معه ثلاثة أشخاص يحملون الدفاتر والكشاكيل. حدق الضيوف جميعاً إليه من رأسه حتى قدميه. اتجه داش آكل بخطى واسعة نحو إمام الجمعة، حيث وقف وقال:

ـ «يا حضرة الإمام، لقد أوصى الحاج رحمه الله فألقى بنا سبع سنوات عسيرات في ورطة. إن أصغر أبنائه، الذي كان في الخامسة له الآن اثنتا عشرة سنة. وهاهو أيضاً حساب وكتاب أموال الحاج»، وأشار إلى الأشخاص الثلاثة الذين كانوا خلفه.

ـ وكل ما جرى صرفه حتى اليوم، مع نفقات الليلة، تم صرفه من جيبي الخاص. والآن: نحن وشأننا، وهؤلاء أيضاً وشأنهم!

عندما وصل إلى هنا، خنقته العبرة. ثم من دون أن يضيف شيئاً بعد أو ينتظر جواباً، دلّى رأسه وخرج من الباب بعينين دامعتين. تنفس في الزقاق الصعداء. أحس أنه تحرر. وأن عبء المسؤولية أزيح عن كاهله، ولكن فؤاده كان مكسوراً جريحاً. كان يمد خطى طويلة غير مبالية، وفيما هو يمر ميّز بيت الملا إسحاق، مقطّر العرق اليهودي. بلا تأخير دخل، عن طريق سلالم آجرية مرطوبة، إلى باحة عتيقة مدخنة تضم في داخلها غرفاً صغيرة قذرة لها نوافذ ثقبية تشبه قفير نحل وعلى حوضها أشنات خضر متشابكة. كانت رائحة محمضة، رائحة ريش وسراديب عتيقة، تملأ الهواء. تقدم الملا إسحاق بطاقية ليل مشحمة ولحية تيسية وعينين طماعتين، واصطنع ضحكة مفتعلة.

قال داش آكل في حال شرود:

- وحق زوج شاربيك هات زجاجة جيدة نطرّي بها حلقومنا.

هز الملا إسحاق رأسه، هبط سلالم القبو وصعد بعد بضع دقائق حاملاً زجاجة، أخذ داش آكل الزجاجة من يده، ضرب عنقها بحافة الجدار فقطع رأسها، ثم شرب نصفها. تجمع الدمع في عينيه، حبس سعاله ومسح فمه بظاهر كفه. كان ابن الملا إسحاق - الذي كان طفلاً مصفراً قذراً - ينظر إلى داش آكل ببطن منفوخ وفم فاغر ومخاط يتدلى فوق شفته. دفع داش آكل أصبعه تحت غطاء المملحة، التي كانت في رف الباحة.

تقدم الملا إسحاق، ضرب على كتف داش آكل وقال من طرف لسانه:

- مازة الفتى التراب.

ثم مد يده تحت قماش ملابسه، وقال:

- ما هذا الذي ترتديه؟ لقد بطل هذا الصديري الآن. متى ما لم تعد ترتديه سأشتريه منك بسعر جيد.

ابتسم داش آكل بسمة كئيبة. أخرج من جيبه مالاً، وضعه في كفه وخرج من البيت.

كان الوقت قريب المغرب. كان جسده ساخناً وفكره مضطرباً ورأسه يؤلمه. كانت الأزقة ماتزال، على أثر مطر بعد الظهر، مرطوبة، ورائحة التبن - طين[١٩] والقدّاح في الهواء.

تجسم وجه مرجان، خداها الأحمران، عيناها السوداوان وأهدابها الطويلة مع ذؤابة الخصلة التي تساقطت على جبينها، غامضاً موحياً أمام عيني داش آكل. تذكر حياته المنصرمة، وراحت ذكرياته السابقة تمر واحدة واحدة أمام ناظريه. تذكر الجولات التي كان يقوم بها مع أصدقائه إلى قبر (سعدي)[٢٠] و(بابا كوهي)[٢١]، فكان يبتسم حيناً ويقطب زمناً. ولكن ما كان مسلّماً بالنسبة

له أنه كان يخاف بيته. كان ذلك الوضع غير قابل التحمل بالنسبة له، كما لو أن قلبه اقتُلع. كان يريد أن يذهب فيبتعد. فكر أن يشرب الليلة عرقاً مرة أخرى ويناجي الببغاء. لقد صارت الحياة كلها، بالنسبة له، ضئيلة جوفاء لا معنى لها. وفي هذه الأثناء تذكّر شعراً فراح يترنم به سأماً:

أتحسر على سهرة السجناء إذ نُقل مجالسهم حبات السلسلة

وتذكر لحناً آخر، فغنى بصوت أعلى:

جن قلبي، أيها العقلاء، هاتوا سلسلة فلا تدبير للمجنون غير القيد!

غنى هذا الشعر بلحن اليأس والغم والغصة. وكما لو نفد صبره، أو أن فكره كان في مكان آخر، لزم الصمت.

كان الظلام قد حلّ عندما وصل داش آكل محلة سردزك. كان هنا الميدان ذاته الذي كان - في السابق عندما كان له خلق وهوى - يحرّمه على الناس، فلم يكن أحد ليجرؤ أن يتقدم. ذهب، بلا إرادة، فجلس على صفة حجرية أمام أحد البيوت. أخرج چپقه وعمّره، وراح يدخن بطيئاً. تهيأ له أن المكان صار أكثر خراباً منه في السابق. تغير الناس في عينيه كما انكسر هو وتغير. كانت عيناه تتغشيان، ورأسه يؤلمه. فجأة ظهر ظل معتم كان يتجه نحوه من بعيد، وفيما هو يتقدم قال:

- الـ. الـ. الفتى يعرف الفتى في الـ. الـ. الليلة الظلماء..

عرف داش آكل كاكا رستم. نهض. وضع يده في نطاقه، وبصق على الأرض، وقال:

- إي وأرواح أبيك عديم الغيرة، تصورتَ أنك فتى جداً. ولكن، ومماتك إنك لم تَبُلْ على أرض صلبة(٢٢).

أطلق كاكا رستم ضحكة ساخرة. تقدم وقال:

ـ مُنْـ . . مُنـ . . منذ زمن لم . . لم . . لم تعد تظهر في . . في . . في هذه الأنحاء! الـ . . الـ . . الليلة في بيت الـ . . الـ . . الحاج عقد قران . . أفلم يسـ . . يسـ . . يسمحوا لك . . فقطع داش آكل كلامه:

ـ لقد عرفك الله فأعطاك نصف لسان ، وسآخذ أنا الليلة نصفه الآخر .

مدّ يده فسحب قمته . وتناول كاكا رستم أيضاً ، كما رستم الحمام[٢٣] ، قمتــه بيــده . دق داش آكل رأس قمـته بالأرض . وقف واضعاً يده على صدره . وقال:

ـ أريد الآن فتى يستخرج هذه القمة من الأرض!

هجم كاكا رستم عليه فجأة ، ولكن داش آكل ضربه على معصمه ضربة جعلت القمة تطير من يده . توقفت مجموعة من المارة على صوتهما ، ولكن لم تؤات أحداً الشجاعة لأن يتقدم أو يتوسط . قال داش آكل مبتسماً:

ـ رح ، رح يا أخ ، ولكن شريطة أن تمسكها أشد الآن ، لأنني أريد الليلة أن نصفي حساباتنا!

تقدم كاكا رستم بقبضتين مشدودتين فتماسكا . بقيا يتدحرجان على الأرض مدة نصف ساعة ، والعرق يتصبب من رأسيهما ووجهيهما ، ولكن النصر لا يحالف أياً منهما . في وسط النزاع اصطدم رأس داش آكل شديداً بحجارة رصْف الطريق ، فأوشك أن يغمى عليه . كما أن كاكا رستم ، مع أنه كان يضرب بنية القتل ، إلا أن طاقته على المقاومة كانت قد نفدت ، ولكن عينه في هذه اللحظة وقعت على قمة داش آكل التي صارت في متناوله . بكل قوته وقدرته سحبها عن الأرض وغرزها في خاصرة داش آكل؛ وتعطلت ذراعاهما معاً عن الحركة .

ركض المتفرجون قُدُماً ورفعوا داش آكل بصعوبة عن الأرض ، وكانت

قطرات دم من خاصرته تخضب الأرض. وضع يده على الجرح، جرجر نفسه بضع خطوات إلى جنب الجدار. ثم رفعوه وحملوه على الأيدي فنقلوه إلى بيته.

في صباح الغد، لما بلغ خبر جرح داش آكل بيت الحاج صمد، ذهب (ولي خان)، ابنه الأكبر يسأل عن حاله. وصل إلى فراش داش آكل. وجده ملقياً على الفراش شاحب اللون، وقد خرج زَبَدٌ دام من فمه وغامت عيناه. كان يتنفس بصعوبة. وكما لو أنه عرفه قال بصوت نصف مكتوم، راعش:

- في الدنيا.. لم يكن عندي غير هذا الببغاء.. وحياتك.. وحياة الببغاء.. أودِعْه عند..

ولزم الصمت مرة أخرى. فأخرج ولي خان منديل حرير، ومسح دمع عينيه. فَقَد داش آكل الوعي، ومات بعد ساعة.

بكى لموته أهل شيراز جميعاً.

رفع ولي خان قفص الببغاء فأخذه إلى البيت.

كان في عصر اليوم ذاته أن وضعت مرجان قفص الببغاء أمامها وراحت تتأمل - ذاهلة - تلوين الريش والجناح، المنقار المقوس والعينين المستديرتين الغائمتين للببغاء. فجأة، قال الببغاء بلهجة فتيان، بنغمة مشروخة:

- مرجان، يا مرجان، يا مرجان.. لقد قتلتِني.. لمن أقول؟.. يا مرجان.. قتلني حبك.

فجرى الدمع من عيني مرجان.

الحواشي

(١) مركز محافظة فارس، جنوبي إيران.

(٢) مخفف (داداش)، أي: أخ.

(٣) في لهجة أهل شيراز هي (أخ).

(٤) لست أدري من أين جاء لقب (ملاّ) ليهودي! فهو يعني رجل الدين المسلم، المعمَّم.

(٥) الجرعة، أو الكمية المستخدمة في المرة الواحدة من المادة المخدرة.

(٦) مختصر، أو «اسم تحبيب» للـ(وافور) لدى الفتوات. والوافور وسيلة تدخين الأفيون و/أو ثفالته.

(٧) ولي صوفي صعد نجمه أيام الصفويين، كان بطلاً رياضياً تقليدياً، وذلك ما يجعل الفتوات يكنّون له تقديراً خاصاً.

(٨) سلاح بارد، بين الخنجر والسيف حجماً، يكون عادة ذا حدين.

(٩) وضع الذيل على الظهر كناية عن إحساس الخيبة.

(١٠) عدم خروج الدم كناية عن الغضب الشديد.

(١١) بطل إيراني، شبه أسطوري، احتفي به كثيراً في «شاهنامة» فردوسي حتى صار بطلاً شعبياً لدى الإيرانيين.

(١٢) طبقة تُصنع من رقاقات من الخشب الملون والعظام والصدف وبعض المعادن، تلصق على المصنوعات الخشبية للتزيين . . نوع من الفسيفساء.

(١٣) مدخل البيت، الذي يسمح للرجال الغرباء بدخوله.

(١٤) جمع أرسي، وهو نافذة مشبكة، طويلة، مزينة عادة بالزجاج الملون.

(١٥) مدينة في محافظة فارس. تقع جنوب غربي إيران.

(١٦) كنايتان بالمعنى نفسه تقريباً، أي: لم يعد لديه مكانة، فقد اعتباره، قلّ احترامه، وإلخ.

(١٧) أحد طرز، أو «ماركات» الـ«كيوه» وهو حذاء يُحاك وجهه من حرير أو قطن، ويصنع نعل الجيد منه من جلد مدبوغ نباتياً، والعادي من اطارات السيارات المستهلكة.

(١٨) مدينة تابعة لشيراز. اشتهرت بكيوتها.

(١٩) الخليط المستعمل لكسوة الجدران قبل الصقل والدهان.

(٢٠) الشيرازي، الشاعر والحكيم.

(٢١) شيرازي آخر، من الأولياء.

(٢٢) كناية عن عدم التجربة بسبب الطفولة: يكون بول كبير السن منقذفاً بشدة تجعله يرتد عن الأرض الصلبة، ولابد له أن يناور كي لا يصيبه رشاش البول المرتد.

(٢٣) المقصود تصاوير رستم الشاهنامة الشعبية، التي كانت ترسم على جدران الحمامات العامة لتزيينها، وتتناول مشاهد من بطولاته.

بُزُرْك عَلَوي

ولد بُزُرْك علوي سنة ١٩٠٤ في طهران. ويُعتبر هو أيضاً ـ شأنه شأن هدايت ـ من الفئة الممتازة، الدارسة والمثقفة في المجتمع. أنهى دراسته الجامعية في ألمانيا، وبعد العودة إلى إيران عمل في التدريس.

أصدر سنة ١٩٣٤ أولى مجموعاته القصصية، باسم «چمدان»[١]. تعرض هذه المجموعة بشكل بين تأثره بصديقه صادق هدايت.

كان من جملة الثلاثة والخمسين نفراً الذين وقعوا، بمعية الدكتور أراني ـ الشيوعي المعروف ـ في السجن سنة ١٩٣٨.

يقتل جلادو رضا شاه الدكتور أراني في السجن، ولكن بزرك علوي يتحرر من السجن، مع الآخرين، بسقوط رضا شاه سنة ١٩٤١، ويعكف على شرح ما وقع عليه وعلى رفاق كفاحه في السجن في كتابَي «ورق پاره هاي زندان»[٢] و«پنجاه وسه نفر»[٣].

أما أعماله المهمة الأخرى فهي: «نامه ها»[٤]، «چشمهايش»[٥]، «ميرزا»[٦]، «سالاري ها»[٧]، و«موريانه»[٨].

مع تشكيل حزب توده إيران، ينضم علوي إلى هذا الحزب ويكون في كادر قيادته، ومع انقلاب ١٩٥٣ يضطر للإقامة في أوروبا حتى نهاية عمره. زار إيران مرتين بعد الثورة الإسلامية، وأخيراً توفي في ألمانيا سنة ١٩٩٨.

إن «عيناها» أشهر أعماله. استفاد الكاتب في هذا العمل ـ كما في كثير من

أعماله الأخرى ـ من وسائل القصة البوليسية. يوجد معمى في بداية هذه القصة، وتخطيط القصة وتوسعها اللاحقان ينصبان في جانب كشف هذا اللغز. في هذه الرواية، تتبقى ـ بعد وفاة أستاذ رسم في المنفى ـ لوحة له رُسمت لوجه امرأة؛ امرأة لها عينان غامضتان. إن راوي القصة، المتطلع لكشف سر هاتين العينين، يعمل على العثور على موديل الرسم. يجد المرأة ويجلس لسماع روايتها؛ رواية تفاصيل النضال السري للأستاذ وقضايا أخرى.

* * *

قصة «الرجل الجيلي» واحدة من أحسن قصص بزرك علوي القصيرة بناءً. في هذه القصة يأخذ إثنان من مأموري الحكومة المسلحين متمرداً معتقلاً إلى طهران، عن طريق المونولوج الداخلي للجيلي المتمرد ندرك سبب اعتقاله: التمرد إزاء ظلم الملاك، المعتمدين على دعم حكومة ذلك الزمان، وكذلك الامتناع عن الدفع المتكرر لفائدة الملاك، والعراك مع المأمورين المسلحين الذين جاؤوا لأخذها، ثم الكر والفر.

عن طريق المونولوج الداخلي لأحد هذين المأمورين، الذي هو بلوشي، نتعرف على ماضيه أيضاً. للبلوشي أيضاً ماض يشبه ماضي الجيلي، أصابه جرح ظلم الملاك، مع هذا التفاوت: أنه الآن صار رجل أمن يعمل في خدمة المسؤولين عن إقرار النظام الذي كان قبل هذا من أسباب فقره وتحقيره ومذلته. إن سخرية هذه القصة المريرة هي أن الجيلي يسقط، أخيراً، أرضاً نتيجة لطلقات هذا البلوشي: البلوشي الذي التحق الآن ـ بعد أن قتل ناساً كثيرين ـ إلى قوة الأمن ليبقى في مأمن من تعقيب القانون.

في الطريق، لكي يستولي البلوشي على الخمسين توماناً التي يحملها الجيلي معه، يغريه بأن يبيعه السلاح الذي وجده في بيته عند التفتيش. ألكي يجد لنفسه عذراً لقتل الجيلي على اعتبار أنه متمرد استناداً على سلاحه؟

ورجل الأمن الآخر، محمد ولي، يتملكه الحقد على الجيلي من رأسه حتى أخمص قدميه. لقد تعلم هذا الحقد من قائده، وقائده تعلمه من راديو الحكومة الذي يسمي كل إنسان معترض «عابد الأجانب» و«مغامر»، و- أسوأ من هذا - عدو الله والنبي، الذي يكون قتله، بالطبع، واجباً.

مضى الآن أكثر من نصف قرن على صدور هذه القصة، ثم أن الكاتب تحدث عن عهد يفصله عن اليوم ما يقرب من القرن، ومع ذلك فكأن بزرك علوي روى وضعنا وحالنا الفعليين: مركب مشؤوم عن الظلم وانعدام العدالة، دعاية حفظة النظام الذين ينسبون كل اعتراض لدسائس الأجانب والأعداء، ثم التغطية الدينية لتصفية المخالفين.

وسبب الجيلي للحقد قطعي وواضح أيضاً: لقد قتل رجال الأمن، في حملة مفاجئة، امرأته الشابة وتركوا طفله بلا أم.

إن الحقد وليد دورة مَعيبة يسببها انعدام العدل، ولا نتيجة لها غير مراكمة العنف.

الحواشي

(١) حقيبة الملابس.

(٢) قصاصات ورق السجن.

(٣) ثلاثة وخمسون نفراً.

(٤) الرسائل.

(٥) عيناها.

(٦) ميرزا - هي في الأصل «ميرزاده» - الأمير، صارت تُطلق على المتعلم المشتغل كاتباً أو سكرتيراً.

(٧) المتحكمون، أو المستبدون.

(٨) الأرضة.

الرجل الجيلي(١)

بُزُرْك عَلَوي

كان المطر يضج. تغرز الريح مخالبها وتسعى لأن تقتلع الأرض من مكانها. وراحت الأشجار العتيقة تنازع إحداها الأخرى. من الغابة كان يأتي صوت عويل امرأة تتألم. كان عصف الريح قد أطلق العنان لأغانٍ صامتة. وكانت خيوط المطر تخيط السماء المعتمة بالأرض الموحلة. فاضت الأنهر وسالت المياه من كل جانب ومكان.

كان مأموران يحملان بندقيتين يقتادان الجيلي إلى (فومن)(٢). وكان هو قد لفّ بطانية رمادية حول عنقه، وأمسك اللفيفة المدلاة على ظهره بيده. ومن دون اهتمام بالريح والعاصفة والمأمور والغابة والأشجار المهددة والبندقية والموت، كان يُغطس ساقيه العاريتين بالماء، ويمد خطى بطيئة قصيرة. كانت ذراعه اليسرى مدلاة، كما لو كانت تثقل عليه. كان يختلس النظرات من المأمور الذي يسير إلى جانبه، وإلى الحربة التي لا تبعد عن مرفق ذراعه اليمنى غير كفٍّ يد، والتي كان الماء يقطر منها. كان كمّ جاكتته قصيراً، والماء الذي يسيل من البطانية يغور فيه. كان الجيلي يترك البطانية بين آن وآخر، وينقل المنديل المشدود إلى يده الأخرى فيُفرغ الماء من الكم ويمسح وجهه بيده، كما لو كان قد توضأ وراح يجمع آخر قطرات الماء عن وجهه. ولم يكن الخوف الذي

ارتسم على وجهه يبدو للعيان إلا عندما يضيء بصيص خافت لمصباحِ مارٍّ وجهه العريض المعظم وعينيه البيضاوين والواسعتين وأنفه المكسور.

كان اسم المأمور الأول النائب محمد ولي، وكان معبأ الفؤاد ضد السجين. لم يكن ليتركه يرتاح. يطعنه بكلام جارح. يسبه، ويعد كل الأضرار التي أصابه بها الطريق الطويل والمطر والظلمة وبرد الخريف، من تقصير الجيلي.

«مغامر! عبد الأجنبي! ماذا أردت جنابك أن تفعل؟ أردت إحداث ضجة؟ تظن البلاد من غير صاحب؟!...».

كلمات «عبد الأجنبي»، و«مغامر» هذه، كان محمد ولي قد تعلمها من القائد، والقائد قد تعلمها من الراديو والصحافة الوطنية.

«ستة شهور والحكومة تصيح أن تعالوا وأعطوا حق الملاكين، أفيستمع أحد؟ تعوّدوا على الأكل المجاني. ولكن ذلك العهد انتهى. انقضى، انتهت فترة الهرج والمرج. فمن أين يعيش الملاّك إذن؟ من أين يدفعون الضرائب؟ إذا لم يكن عند الحكومة مال، ماذا نفعل نحن إذن؟ فعلتم كما في السنة الماضية حين أخّروا رواتبنا أربعة أشهر. ولكن الحكومة صارت قوية الآن. انتهى هراء البلشفة والتبلشف. مضى شهر وأنا أقول في المقهى. أذهب من هذه القرية إلى تلك القرية. أقول: يا جماعة هيا ادفعوا حقوق الملاكين. جلبت إعلان الحكومة، ألصقته، قرأت لهم أنه إن لم يرد الرعايا أن يدفعوا حصة الملاك «.. مراجعة.. السيد.. قائد الموقع.. لكي يتم بوساطة أجهزة الأمن استيفاء وتسلّم كل فوائد الملاكين». قلت لهم من هو السيد قائد الموقع، غرزت في آذانهم أنني أتولى كل شؤونه. أفهمتهم ما معنى استيفاء وتسلّم. أفسمعوا الكلام؟ تقولون: الملاك يعطي الأرض، يتحمل نفقات الإرواء، وفي الآخر لا يدري أيأخذ فائدة الملاكين، حصته، أم لا! لم يعطوا، الآن الحكومة عندها قدرة، تأخذ ضعفها. نحن موجودون. وقد صرنا أكثر مَضاء أيضاً. ثياب أمريكية، معطف أمريكي، شاحنة أمريكية. عندنا كل شيء. أفيسمع أحد. ما سهم الملاك؟ لا يعطوني حتى ولا قدح شاي.. والآن.. الآن..».

ثم يقهقه ويقول: «الآن، سيتولّونكم. قل لي الآن، ماذا كنت؟ أكنت ريّساً؟ تعرف القراءة والكتابة. . ؟».

لم يكن الجيلي يعنى بهذا الكلام ولم يكن يجيب أساساً. مِن (تولم)[٣] إلى هنا أمضيا على الطريق أكثر من أربع ساعات، وطوال هذا الوقت لم يكن نائب محمد ولي ليكفّ: يهدد، يطعن هازئاً، يسوي الحسابات القديمة. ولم يكن الجيلي يفكر في غير كيفية هربه.

من هذا السلاح الذي كان في يد النائب، لو كانت ثمة قطعة في يده هو، ما كانوا ليظفروا به. لو كان عنده سلاح، لم يكن أحد ليراه أصلاً على الزرع كي يتمكن المأمور ـ بهذه المجانية ـ أن يأتي فيقبض عليه. يا لجودة البنادق التي عندهم! لو كانت مئة من هذه لدى أفراد (آكل)، لما كان بمقدور أحد أن يمد قدماً إلى الغابة. لو كان عنده من هذه البنادق، فإن الكثير من الأمور لم تكن لتكون أصلاً ما هي عليه اليوم. لو كان عنده بندقية ذلك اليوم، لكانت (صُغْرا) حية اليوم، وما كان سيضطر، من أجل طفله الرضيع، أن يعود إلى الزرع ويتحمل سخرية (آكل لولماني) وكناياته، إذ يقول له: «لست رجلاً، إنك أمّ طفلك». لو كان مئة من هذه البنادق في يده ويد آكل لولماني، لما كان أحد يذكر اسم فائدة الملاكين. بل ما البندقية؟ لو وقعت عصا غليظة بيده، لكان ينهي أمر هذا المأمور الـ(شيري)[٤]. ليت المطر يتوقف ويمكنه أن يعثر على قطعة خشب. حينئذ سيلقي بنفسه أرضاً، وينهض بقفزة واحدة، وفي غمزة عين يوقع على الحربة ضربة بالخشبة تجعل البندقية تقفز من يد محمد ولي. . . فينهي أمره. . ولكن المأمور الثاني يتحرك أمامه بثلاث خطوات! وكأن وجوده يشكل إشكالاً في تنفيذ الخطة. لم يكن يعرفه. لم يكن قد رأى هيئته بعد، ولم يتكلم معه كلمة واحدة بعد.

لم يكن قتل امرئ ـ لم يره ولم يعرفه ـ بالعمل الهيّن، لو أنه تمكّن من قاتل صغرا، يدري ما الذي يفعله به؛ يمزق حنجرته بأسنانه. . يقلع عينيه بأظفاره. .

ارتجف الجيلي، نظر. رأى محمد علي يسير إلى جانبه والماء يقطر من حربته. ومن الغابة يأتي صوت امرأة أخذت تصرخ ثم أغمي عليها.

لم يقع في الفخ اليوم إلا بسبب طفله. والمسألة هي كم كان هؤلاء مطلعين على وضعه؟ إلى أي حد يعرفون عنه؟ كان محمد ولي قد قال له: «قال السيد النائب تعال دقيقة إلى (فومن) واذهب. يريدون أن يعرفوا إن كان عندك خبر عن (آكل) أم لا». ولا يصح الاعتماد على كلام هؤلاء. وكان آكل حتى تلك الدقيقة الأخيرة يقول له: «لا تذهب، لا تعد، لا تمض للزرع!». لكن ما يفعل لطفله؟ لمن يسلمه؟ لولا الطفل، ما كان يمكن لأحد أن يعثر عليه. وعندئذ، كم كان سيصير الانتقام لصغرا يسيراً. إنه قادر على معالجة مئات مثل هذا. ولكن آكل لولماني كان إنساناً آخر. كان يغمض عينيه ويطلق النار. خاصة منذ أن ماتت ابنته، صار قاسياً جداً. إن بمقدوره، هكذا بلا سبب، أن يقتل شخصاً. يمكن لآكل أن يُنهي شأن المأمور، الذي تخوض جزمتاه بثلاث خطوات أمامه في الماء والوحل، بطلقة من وراء ظهره، ولكنه هو لا يقدر على هذا. لا يتأتى ذلك منه. كان قد رأى محمد ولي. إنه يعرفه، سمع أنه جاء ذات يوم إلى كوخه وقال: «إن لم يأت فوراً إلى عند النائب في فومن، أضع حنجرة الطفل على رأس الحربة وآخذه كي يأتي وراء طفله». كان قد قال ذلك لأمه.

كان المأمور الثاني يسير أمامهما. كان يتقدمهما بأكثر من ثلاث خطى. كان هو الآخر مشغولاً بالتفكير في بؤسه وسوء طالعه. كانوا قد جاؤوا به من (خاش)[٥]. بلا علم ولا خبر، جاء إلى كيلان. لم يكن أرزّ هذه الولاية يناسبه. كان مصاباً بالإسهال دائماً، يصيبه البرد. أصابه البرد والرطوبة بالفتور. كان يثلج ليلاً رغم التفافه ببطانيتين. في الأيام الأولى جمع كل ما كان ينقصه من أكواخ الكيلانيين. يمكن بسهولة أن يسمّى هذا: «أثاث سلبه الكيلانيون من بيوت الملاكين قبل مجيء القوات الحكومية». ولكن الإدبار كان أن هذه الأكواخ ما كانت تضم شيئاً. في كل هذه الأنحاء لم يتم العثور على قطعة

زجاج كي يتمكن أن يحلق بها لحيته، فما قولك بمرآة! كان المأمور البلوشي[٦] قد تذوّق طعم هذه الحياة. فلقد نهبت حياة قومه تكراراً. هناك في ولايتهم ينكبّ رجال الـ(خان)[٧] فجأة كما النمل والجراد في الريف، فيأخذون كل ما يملكون، ابتداء من البقر والغنم حتى الفراخ والبيض. وما كانوا يرحمون طفلاً أو عجوزاً. يكوون، وفي مرة أو مرتين عندما كان سكان القرية يفتقدون الوسيلة كانوا يرسلون العمدة إلى الخان المجاور ويطلبون منه العون، وهكذا تصير القرية تحت تصرف خان ما. كانت هذه هي القصة التي سمعها البلوشي من أبيه. هو نفسه لم يعمل رعية قط. لقد كان، طول ما يذكر، حامل بندقية وأجيراً للخان. ولكنه تذوق في طفولته طعم الغارة والتشرد. عندما يفكر المأمور البلوشي في أنه هو نفسه صار الآن مأمور حكومة يحس رعباً. لأنه كان يعرف خيراً من أي شخص آخر أنه في زمان حمله البندقية قتل عدداً من رجال الأمن والجنود. كان هو نفسه يقول: «بقدر شعر رأسي». بالنسبة له لم تكن ثمة حياة منفصلة عن البندقية. لقد جاء إلى الدنيا بالبندقية، وكبر مع البندقية وبالبندقية سيموت، إن قتل البشر عنده كشربة ماء، ولعل المرة الأولى التي حزن فيها من القتل كانت إذ طارد، على الحصان، جندياً شاباً جرى به البعير، في صحراء ساخنة. لم يتحمل البعير، فبرك، فألقى الجندي بندقيته على الأرض واختفى وراء جهاز البعير. رمى البلوشي بضع إطلاقات ثم اقترب منه. تناول بندقيته وأراد أن يستهدف رأسه، الذي كان يلوح من وراء سنام البعير، عندما صرخ الجندي: «الأمان يا أخ، لا تقتلني». فقال: «ماذا أصنع بك إذن؟ إن لم أقتلك ستموت من فقدان الماء!» ثم فكر مع نفسه وقال: «إطلاقة واحدة توفير أيضاً»، وأمسك بعنان البعير والتفت: «في ميدان إلى ذلك الجانب نبع ماء. اذهب فأوصل نفسك إلى هناك». سحب البعير مئة خطوة خلفه ثم أراد أن يطلقه، لأنه لا ينفع. إلا أنه رأى أنه لا يمكن ترك الجندي والبعير هكذا، لشأنهما، فعاد وأنهى الجندي بإطلاقة واحدة. هذا هو القتل الوحيد الذي يقضّ مضجعه أحياناً. كان هو نفسه يدري أيضاً أن مصيره هو أيضاً سيكون أخيراً منطوياً على موت من هذا

النوع. إن أباه، وأخويه، وأغلب أبناء قومه أيضاً أسلموا أرواحهم نتيجة إصابة إطلاقة العدو. عندما جاء الخانات إلى طهران وصاروا نواباً، لم يكن أمامه بدٌّ، هو أيضاً، إلا أن يصير من أفراد الأمن. ولكنه لم يكن يتوقع قط أن يشردوه من دياره ويرسلوه إلى كيلان، التي هي رطبة وباردة إلى هذا الحد. لم يكن المأمور البلوشي يبالي الجيلي قط، ولم يكن يفرق بالنسبة له أن يهرب الجيلي أو لا يهرب. كانوا قد قالوا له أن ينهي أمره بطلقة متى ما أراد الفرار، وكان هو واثقاً من بندقيته. كان المأمور البلوشي يفكر أن عليه أن يتدبر مالاً، على أي نحو كان، ويهرب مرة أخرى إلى هذه الصحارى الساخنة ذاتها، فالصحراء من السعة بحيث لا يستطيع رجال الأمن أن يعثروا عليه. إن كل واحد من هؤلاء المأمورين عندما يفتشون منزل أحد ما، يحصلون على شيء ما، إلا أنه هو نفسه فعل ما أراد، لقد سجلوا محضراً بالمال، البالغ خمسين توماناً، الذي أخرجه من جيب الجيلي. وأعادوه له. كان الشيء الوحيد الذي استطاع أن يفوز به مسدس، وجده في خم، بين كوم الأرزّ. فجأة طرأت فكرة على رأس المأمور البلوشي. إن المسدس يساوي خمسين توماناً في الأقل. وقد يساوي أكثر. لو ضبط نفسه، فثمة من يدفعون به مئة تومان؛ صناعة إيطالية. طلقاته نادرة. . وما من أحد يشتري سلاحاً في هذه الأيام. هؤلاء الريفيون يلقون أسلحتهم في البحر. يستحق خمسين توماناً. شريطة أن يكون قد جلب المال معه ولم يعطه لأحد.

لم تكن الريح لتتوقف. كان المطر يصفع، قبضة قبضة، آذان وعيون المأمورين والسجين. كان يريد أن يفك البطانية عن عنق الجيلي، وأن يسلب معاطف المأمورين المطرية. كان هدير المياه الكثيفة يخنق صياح الأوز الوحشي. من الغابة، كأن امرأة متوجعة كانت تعول. في بعض الأحيان كان انكسار جذر شجرة عتيقة يهز الأرض هزاً.

كانت موجة ريح تبدأ من بعيد مخشخشة وتختتم بعويل وحشي. إلى

المقهى، الذي كانوا يتحركون نحوه، لم يكن يفصل أكثر من مئة ذراع، ولكن بصيص سراجه النفطي المعتم كان يبدو بعيداً في الظلمة والمطر والريح.

عندما بلغوا المقهى، سأل محمدُ ولي القهوجيَّ:

ـ أعندك (كَتَه)[٨]؟

ـ عندنا.

ـ وماذا عن الشاي؟

ـ عندنا شاي أيضاً.

ـ وعندك ضياء أيضاً؟

ـ هذا الواحد فقط.

ـ أخلِ الغرفة الفوقانية سريعاً!

ـ في الغرفة العليا، جففنا التبغ[٩].

ـ لكن أرضها خالية؟

ـ خالية.

ـ ألا يوجد مركز أمن هنا؟

ـ لمَ لا؟ يوجد.

ـ أين؟

ـ إلى ذلك الطرف قليلاً. كانوا هنا أول الليل. ذهبوا.

ـ تعال خذنا إلى الغرفة الفوقانية.

كانت «الغرفة الفوقانية» تنفتح على الإيوان. من الإيوان الذي كان له

سياج خشب، كان الأفق الساطع ظاهراً. ولكن المطر كان لايزال يهطل، وفي الغرفة التبن ـ طينية التي علقوا من سقفها ورق تبغ وبطيخاً وبصلاً وثوماً، كانت تفوح رائحة رطوبة. قال محمد ولي: «يا الله، تذهب إلى زاوية الغرفة، إن تحركتَ سأضرب»، ثم التفت إلى القهوجي، وسأله:

ـ ليس لذلك الجانب طريق إلى الخارج؟

عندما رأى القهوجي الشاب الجيلي في نور المصباح الهوائي الضعيف فهم ما كان الأمر، فقال مجيباً: «ما من طريق. يا مأمور، أهذا أيضاً من أولئك الذين جردوا السيارة؟».

ـ اذهب يا أزعر وراء شغلك. عديم الشرف، إن ألقيت نظرة إلى أعلى أهدم كل جهازك. أنت أيضاً أسوأ من هذا.

ثم التفت إلى المأمور البلوشي وقال: «يا خان، ابق هنا، أنا سألزم الحراسة تحت، ثم أصعد فتنزل أنت لتقوم بالحراسة وتشرب شاياً أيضاً».

خلع الجيلي في الغرفة المظلمة جاكتته القصيرة الردنين. وعصر ماءها، ومسح بيدها على ساقيه. جمع ماء وجهه وأراقه على الأرض. رفع سرواله الطويل إلى أعلى، فرك قليلاً ساقيه وركبتيه وفخذيه؛ كان قد اقشعر من البرد. نفض نفسه ورمق خفية المأمور الثاني. كان المأمور البلوشي يمسك بندقيته بيديه بإحكام ويقف في الإيوان الضيق الذي كان بين السياج والجدار وراح يراقب الأفق.

لم يكن يُسمع في الظلمة غير صوت صفير الريح وخرير المطر وفي بعض الأحيان صرخة أوزة وحشية. كأن في عمق الغابة امرأة تُعول، كما لو كانت تريد أن تملأ الدنيا أنيناً وصراخاً.

على عكس محمد ولي، لم يكن المأمور البلوشي ينبس حرفاً. لم يكن

ثمة علامة على أن طريق حرية الجيلي وحياته مسدود غير ظله. على أرضية الغيوم الرمادية التي كانت في حركة دائمية في الأفق، كانت الريح تهز الكوخ، والعويل الذي يشبه أنين امرأة تعاني الوجع يسرق النوم من عيني الجيلي، خاصة وأن الريح كانت تشتت أحياناً الغيوم التي كانت تغطي قرص القمر فيُتعب برق الحربة ومعدن البندقية عينيه.

كان الصوت القادم من الغابة شبيهاً بتوجع صُغرا، بالضبط حين أصابت الطلقة القادمة من أعلى كوخ العمدة، في (تولم)، خاصرتَها.

وضعت صُغرا الطفل أرضاً وعوّلت..

ـ أفلا تريد أن تهرب؟

ـ لا.

بلا إرادة أجاب «لا»، ولكنه لملم نفسه. كان عازماً على ألا يكلمهم. لأنه كان قد سمع أنه يجب عدم الكلام مع المأمور. فهؤلاء يستفيدون من كل كلمة تخرج من فم الإنسان لصالحهم. يجب لزوم الصمت عند الاستجواب. لماذا يجيب بلا داع؟! إن رجل الأمن يريد أن يعرف إن كان نائماً أو صاحياً، وقد فهم ذلك من كلامه فلن يجيب بعد.

«اسمع ما أقول!»، ضاع صوت البلوشي المبحوح المصاب بالبرد في صفير الريح. كانت العاصفة تُحدث صخباً عنيفاً، ولكن سكوتاً مرعباً كان يخيم على الغرفة. كان نَفَس الجيلي محبوساً.

«لا تخف!».

كان الجيلي يخاف. لأن صوت البلوشي الحاد الذي كان يخرج من بين شفتيه ولحيته كان يخيفه. «لقد كنت مثلك قاطع طريق».

ولزم البلوشي الصمت. انهار فؤاد الجيلي. كأن هؤلاء قد شمّوا شيئاً. «كنت مثلك قاطع طريق». إن الكافر ليكذب، يريد أن يستخرج منه حرفاً.

كانت مهابة الصمت ترعب رجل الأمن البلوشي. فتكلم أبطأ:

«صباح اليوم عندما كنت أفتش بين عدة العمل..»

جاء في الظلمة صوت خشخشة، كأن يداً اصطدمت بشدّات ورق التبغ التي كانت تتدلى من السقف.

«لا تتحرك وإلا رميت!»، كان صوت البلوشي قاطعاً ومهدداً. رأى الجيلي في الظلام أن رجل الأمن يسدد نحوه.

«اقعد!».

جلس القروي وأرهف أذنه كي يسمع، رغم ضجة السيل والمطر والريح، الكلمات التي تخرج من فم رجل الأمن على وجه الدقة. كان البلوشي يهمس.

«بين العدة - تسمع؟ - وسط حزمة شتلات أرزّ وجدت مسدساً. أنت تعرف لمن يعود المسدس. لم أرفع به تقريراً. لأنه كان يمكن أن يسرق ويروح هدراً. جلبته معي كي أعطيه بنفسي للقائد، تعرف أن الإعدام مسجل عليك».

صمت. كما لو لم يكن ثمة عاصفة بعد، ولم تعد الأشجار العتيقة تعول وكان صوت البلوشي الحاد يشق كل هذه الصرخات والضجات والهدير والانهيار.

«أدري ما تعانيه، لقد عانيتُ كثيراً على أيدي خاناتنا، ولكن مع ذلك ليرحم الله الخانات، الأسوأ من هؤلاء رجال الأمن. أنا نفسي كنت مدة متمرداً، قتلت ناساً بعدد شعرات رأسك، ولهذا صرت رجل أمن، كي أتخلص

من شر رجال الأمن، لا تخف مني! إن الله لا يحب أن يروح شاب مثلك ضحية، فداء للاشيء، ليس عندي من خبر عن زوجتي وأطفالي لمدة شهر، لم أرسل لهم مصروفاً. لو لم يكن من أجل هؤلاء، ما كنت لأكون هنا. أتريد أن أعيد لك ذلك المسدس؟

كان الجيلي يتنفس مخرخراً، كان شيء ما يقبض حنجرته، قلبه ينبض، استقر عَرَق على جبينه. رسم البلوشي صورة مخيفة عن رجال الأمن في ذهنه وكان في خوف منها، لم يكن يدري ما يفعل. كان يتمنى أن ينهض ويتنفس على نحو أهدأ.

«لا تتحرك! المسدس في يدي. سبع طلقات، الطلقات جميعاً في مشطه، ليس جاهزاً للرمي. إذا أردت أن ترمي يجب أن تسحب الطارق، إنني أعطيك هذا المسدس».

لم يعد الجيلي يحتمل.

«لا تعطيه، تكذب! لمَ لا تدعني أنام؟ تعذبني! أيها المسلمون أعينوني! ما تريد من روحي؟»، ولكن صيحاته لم تكن تستطيع أن تبلغ مكاناً، لأن العاصفة كانت تخنق كل نوع من الأصوات الضعيفة في أمواج الريح والمطر.

«لا تصرخ! لا تخف! أعطيك إياه، أقول لك، إذا بلغت إدارة الأمن في فومن فأنت مقضي عليك. أفلم تسمع أن باصاً جُرِّد من كل شيء قبل بضعة أيام في الجادة؟ منذ ذلك اعتقلوا كل إنسان. أنا مسلم. أؤمن بالله وبالنبي، إن الله لا يرضى أن...».

هدأ الجيلي. ارتاح. لقد اعتُقل كثيرون منهم. يريدون إذن استجوابه.

«لماذا تصرخ؟ أعطيك إياه! سأبيعه لك أصلاً. السباعي يخصك. لو أنني رفعت تقريراً بأنني وجدته في بيتك فأنت تدري أن نصيبك الإعدام، أبيعه لك،

إنه يساوي طبعاً خمسين توماناً. أنت، أنت تدري مع محمد ولي، ها؟ لا يساوي؟ مالك عندك. أم أنك أعطيته لأحد ما؟».

هدأ الجيلي، ولم يعد يرتجف. مدّ يده تحت البطانية وفتح المنديل الملفوف الذي كان في معيته، وأمسك بيده الخمسين قطعة ورقية من ذات التومان، التي كانت مبلولة ونصف ممرودة، جاهزة في يده.

«تعال خذ!».

كانت الآن نوبة البلوشي أن يرتعب.

«لا، لا يصير هكذا، تنهض فتقف، تدير لي ظهرك. تضع المال في جيبك، أخرج أنا المال من جيبك وعندئذ: أضع المسدس في جيبك، ويجب أن تضع يدك إلى أعلى. إن تحركت أضربك بأخمص البندقية في رأسك. انظر، إنني أعرف كل الحيل التي تريد أن تلعبها. طول المدة التي ألزم فيها الحراسة ينبغي أن تقف مواجهاً الجدار وظهرك إليّ. إن تحركت فإطلاقة في ظهرك. عندما أذهب، فأنت تعرف تكليفك مع النائب».

* * *

كان خرير الماء يتكرر رتيباً. كان هذا النغم القاتل قد أوصل روح الجيلي إلى شفتيه. كان الماء ينزل من المزراب. كانت هذه النغمة الصغيرة تخرق ذينك الغليان والهدير. ولكن أكثر من أي شيء كانت تأكل قلب الجيلي وكبده. كان قد أوكأ يديه على الجدار.

في بعض الأحيان كانت الريح تحرك باقة ثوم فتدغدغ رؤوس أصابعه. كان القميص الخام الرطب يلتصق بظهره. كان المسدس يثقل على جيبه. وفي بعض الأحيان كان يحبس أنفاسه حتى لمدة دقيقة كي يتمكن أن يسمع الصوت الذي يريد على نحو أفضل. كان ينتظر وقع أقدام محمد ولي على السلالم الخشبية.

أحياناً، كان عواء الريح يصير أخف، وفي بعض الأحيان يحصل توقف في انهمار المطر الرتيب، مما كان يؤثر بالنتيجة أيضاً في إيقاع خرير المزراب، ولكن وقع أقدام لم يكن ليأتي. عندما نادى رجل الأمن البلوشي: «هاي! يا محمد ولي! هاي! يا محمد ولي!»، تنفس بارتياح. كان هذا تغييراً. «هاي! يا محمد ولي. .» كان الجيلي قد أرهف أذنه. ما أن يأتي صوت أقدام على السلالم الخشبية، فإن عليه أن يكون منتبهاً جداً، وفي اللحظة التي يسلم فيها الأمني البلوشي مكانه لمحمد ولي، أن يلتفت ويستفيد من البضع الثواني التي يتكلمان فيها فلا يسمعان خشخشة حركاته، فيخرج المسدس من جيبه ويستعد. كأنما أجاب صوت من أسفل على نداءات البلوشي.

ليت المطر ينقطع ولو لبضع دقائق، وليت عويل الريح يسكن. ليت هدير السيل الجارف ينقطع ولو دقيقة واحدة. إن حياته، كل شيء يخصه، متعلق بهذه البضع الثواني، البضع الثواني أو أقل.

لو أن خرير ماء المزراب الرتيب انقطع في هذه البضع الثواني فسيتمكن، بالأذن الحادة التي عنده، أن يدرك أدنى حركة. وعندئذ، سيتم وضع حد لكل هذه العذابات. سيذهب إلى طفله، يأخذ الطفل من مارجان، ويهرب ببندقية النائب هذه بالذات إلى الغابة ويعرف هناك ما يفعل.

لم يكن يسمع من تحت غير أصوات عويل الريح وخرير الماء وخشخشة أغصان الأشجار. كأن امرأة تعول في الغابة، ولكن البلوشي كان يتكلم. كانت كل أعصابه وعضلاته، كل حواسه، كل قواه البدنية متجهة إلى الصوت القادم من تحت، ولكن صفير الريح وهطول المطر كانا يمنعان نفوذ الأصوات الأخرى.

ـ لا تتحرك، ضع يدك على الجدار!

كان الجيلي قد تحرك، تحرك بلا إرادة من أجل أن يسمع أحسن.

قال الجيلي بصوت خفيض: ـ اسمع ما أقول.

لم يسمع البلوشي. كان يتصور لو أنه قاله باللغة الجيلية فسيكون أكثر سرية. «هاي! يا أخ، معك لا شغل لي. سيكون شغلي مع ذاك إذ يأتي».

مرة أخرى لم يسمع البلوشي. أخافه صوت الجزمة الذي كان يقع على السلالم الخشبية، وفي الوقت نفسه منحه أملاً.

ـ يا له من مطر عجيب. لا ينقطع!

كان هذا صوت محمد ولي، إنه يعرف هذا الصوت. في طرفة عين، اتخذ الجيلي تصميمه. استدار. وضع يده في جيبه. أمسك قبضة المسدس في يده. لم يكن يجب غير سحب الطارق فيكون المسدس جاهزاً للرمي، ولكن لم يكن الوقت الآن وقت إطلاق، لأنه عندئذ فإن المأمور البلوشي، ولو من أجل الحفاظ على حياته، سيضطر إلى الرمي فلا يستطيع التغلب عليهما معاً. ليته يستطيع أن يسحب الطارق كي يكون جاهزاً للهجوم في أي وقت أراد. أخرج المسدس الذي يعرفه جيداً من جيبه. وزَنَه، كما لو أنه يجد اطمئناناً أكثر على هذا النحو، في هذه اللحظة لخبط صوت الكبريت خطتَه. لحسن الحظ لم يشتعل العود الأول.

ـ أفيسمح المطر؟! تبلل الكبريت وهو في قعر جيب الآدمي.

لم يشتعل عود الكبريت الثاني، ولكن في أثناء هذه البضع الثواني وجد الجيلي طريق الدفاع، وضع المسدس في جيبه. ألقى البطانية، كما عباءة، على كتفه وانطوى على نفسه في زاوية الغرفة.

ـ هاي! هات المصباح لأر، لقد تبلل الكبريت.

فسأل البلوشي:

ـ ما تريد أن تفعل بالمصباح؟

ـ أهو موجود؟ عساه لم يذهب!

ـ أين يمكنه أن يذهب؟ هو صاح، ناده وسيجيب.

سأل محمد ولي: ـ هَيْ، أيها الجيلي. نائم أم صاح؟

في هذه اللحظة اشتعل عود الكبريت وأضاء نور أصفر ذلك الوجه الريفي. من كل وجهه كان يشاهد جبينه العالي وقلنسوته القُمعية الطويلة، وبعود الكبريت نفسه أرّث سيجارته: «كما لو أنه يريد أن يبدأ رحلة قندهار[١٠]. جلب معه حتى البطانية. ولقد أكلت الكَتَه خاصتك؟ أيها الأخ آكل رأس السمك[١١]. ينبغي الآن أن تذهب لبعض الوقت إلى طهران لينشطك حساء وحل الكيوات[١٢] جيداً. لمَ لا تغفو؟».

كان محمد ولي قد دخّن أفيونه، فكان ثملاً:

ـ كيف حالك؟ كيف أحوال البطل؟ كنت أنت أيضاً بطلاً أم لم تكن؟ لابد أنك كنت من أبطال فلاحي تولم؟ ها؟ لا تجيب؟ ها ـ ها ـ ها ـ ها.

كان الجيلي يتمنى لو تصير هذه القهقهة أعلى كي تمنحه فرصة سحب الطارق وجعل شعلة السيجارة هذه هدفاً فيرمي.

ـ قل لي لأرَ: ذلك اليوم عندما جئنا مع الرائد إلى تولم كي نهيئ ثكنة، أفلم تكن أنت الذي تصديت وقلت: «هنا عندنا حرس ولا نريد أحداً؟» عديمي الشرف، وضعونا نحن البضعة الأنفار في بيت وكانوا يريدون إشعال البيت. من المؤسف أن الرائد كان هناك ولم يدعني، وإلا لكنت حصدتكم جميعاً بذلك الرشيش. الآن، أنا من أرسلت بطلكم الضخم إلى الدرك الأسفل. قل لي: أكنت هناك أنت أيضاً؟ حقاً، أولئك الأبطال، الذين للواحد منهم لسان بحجم كف اليد، أين صاروا الآن؟ لمَ لا يأتون لنجدتك؟»، ثم وجه بضع شتائم مقذعة.

ـ في طهران قطعوا نسلهم، ما عاد أحد يجرؤ أن يتنفس، كنتم تريدون أن تعملوا بلشفية؟ ثم نساؤهم! أية نساء سليطات! واه، واه، لخاطرهن فقط لم يسمح الرائد أن نطلق النار. ماذا جرى حتى صاروا الآن فئراناً وذهبوا إلى الجحور؟ آخ، لو كان بيدي! لا أدري ما كنت أفعل بك! لماذا قالوا أن أسلمك صحيحاً وسالماً؟ لابد أنك واحد من كبارهم. وإلا لكنت، لمّا كنت رأيتك صباح اليوم، قد أنهيت شرّك. وأمام ناظريك، امرأتك. . أوهوه، ماذا تفعل؟ إن تحركت أرميك!

جعل صـوتُ طارق البندقيـة الجيـلي، الذي كان قلّ حذّره، يجلس في مكانه.

كان الجيلي قد ذهبت يده، بلا إرادة، إلى مقبض مسدسه. إن تلك المرأة التي أصيبت قبل بضعة أشهر في معركة تولم بطلقة ثم ماتت، ذاتها، كانت امرأته. كانت صُغرا، كان عندها طفل ابن ستة أشهر، وهذا الطفل في كوخه الآن وليس معلوماً ما الذي سيقع على رأسه. ليست مارجان إنسانة ترعى طفلاً. إن هذا العمل أصلاً لا يُرجى من مارجان. من أيضاً بفكر طفله؟ في بعض الأحيان كان الجيلي لا يصغي لكلام النائب. كان يفكر في أمر آخر. عسى ألا يكون المسدس خالياً. عسى ألا يكون البلوشي والنائب مزحا معه وأعطياه المسدس خالياً. ولكن ما فائدة هذا المزاح؟ ليس شيء كهذا ممكناً. من أجل طفله هذا كان يضطر أحياناً للعودة إلى تولم. وَزَنَ المسدس. أبقى يده في جيبه، كأنه كان يستطيع أن يجد ـ من وزنه ـ ما إذا كان المشط في المخزن أم لا. كانت هذه الحركة بالذات هي ما نبّه محمد ولي إليه فوجّه أسطوانة البندقية إليه. لم يكن رأس الحربة ليبعد عنه غير ذراع واحدة، وإلا لكان دق الأسطوانة ـ بضغطة واحدة ـ بالأرض وأخذ البندقية من يده:

ـ «هاي! يا أخ، نائم أم صاح؟ قل لأرَ. ربما أخذوك إلى فومن حيث لك ارتباط بـ آكل لولماني؟»، وصبّ عليه بضع شتائم. .

ـ سلب نوماً أسبوعاً! في وضح النهار جرّد سيارة في وسط الجادة! سيحرقون شارب ذاك أيضاً! سيصل دوره أيضاً! قل لأرَ، أصحيح أن تلك المرأة التي أصيبت بطلقة ذلك اليوم في تولم ابنته؟

أحياناً تصير العاصفة من الشدة بحيث تجعل من المتعذر على الجيلي سماع صوت محمد ولي القاطع الطنان عديم العقد، رغم الانتباه الذي كان يوجهه إليه، في حين كان يريد أن يعرف بالذات هذه الأمور ويمكن من أقوال النائب تخمين سبب أخذه إلى فومن. كان المأمورون (أو، في الأقل، من أصدر أمر توقيفه) يعرفون أنه كان صهر آكل وأنه لاتزال ثمة رابطة بينهما. كان الجيلي يعرف أن الحارس قد كشفه. كان قد قال في الأغلب لأبي زوجته إنه يجب ألا يثق بهذا الدعي السوقي، ولربما لو لم يكن هذا الدعي السوقي فلعل حادثة تولم تلك، التي يعرفها محمد ولي جيداً، لم تكن لتقع، ولربما كانت صُغرا قد بقيت حية. ثم أن آكل لم يكن ليضطر إلى الالتجاء للغابة ولم تكن كل الحوادث التالية لتقع ولم تكن حياته اليوم لتكون في خطر.

هزّت هبة ريح شديدة الكوخ. لربما كانت شجرة عتيقة قد سقطت على الأرض وأن الكوخ اهتز من وقعها. ولكن محمد ولي كان يتكلم بلا انقطاع، ويضحك مقهقهاً ويهدد ويلتذ من وخز لسانه.

كم كان منظر الحارس السوقي جيداً في نظره. لقد نهب الناس سنيناً، وعند الشيخوخة صار يأخذ الأتاوة. لكي يرتاحوا من شره جعلوه حارساً. لأنه في سنوات ما قبل الحرب تلك، كان المالك هو كل شيء في طهران، وقد قطع عن أرضه أرجل رجال الأمن، فلم تعد لديهم الجرأة على الظهور هناك. آكل هذا نفسه، أبو زوجته، توسّط كي يصير الـ(ويشكا سوقي) حارساً، وكان في الواقع لا يسرق مالاً غير أموال منافسيه.

مرة أخرى أرّث محمد ولي سيجارة. هذه المرة قدّم عود الكبريت لحظة، فأضاء وجه الجيلي. أحرق دخان بنفسجي اللون أنف الجيلي.

ـ «. . انظر ما أقول. لمَ لا تجيب؟ أنت ذلك الشخص نفسه الذي ـ عندما جئنا إلى تولم كي ندير مركزاً ـ قلت للرائد نحن دفعنا الفائدة عنا، وقمت تخطب. لماذا صرت أخرس الآن؟. .».

كان يتذكر جيداً. يقول حقاً: عندما قال القرويون: عندنا حارس، قال: روحوا عيّنوا ممثليكم. لي معهم كلام. فكان هو أحد الممثلين. سألهم الرائد: أأعطيتم فائدة هذه السنة أم لا؟ قال الجميع: أعطينا. ثم سأل: قبل أن يكون عندكم متمرد دفعتم، أم دفعتم بعد ذلك أيضاً. قال القرويون: «دفعنا عند ذاك ونعطي الآن». ثم اتجه الرائد إلى الجيلي وسأله: «أنت مثلاً، ماذا أعطيت». فقال: «أعطيت إبريسم، أعطيت رزاً، أعطيت بيض دجاج، ثوماً، حصرماً، رماناً حامضاً، بصلاً، مكانس، رزاً أخضر، تبناً، طحين رز. أعطيت كل شيء». ثم سأل: «أأعطيت حصة سنتك هذه أيضاً؟» فقال الجيلي: «أعطيت هذه السنة إبريسم. وسأعطي رزاً أيضاً». ثم فجأة قال: «رح هات إيصالاتك وتعال». فقال المسكين لطف علي الشيخ: «إنك لست ممثل المالك!» لم يكن قد أتم كلامه حتى صفعه الرائد. عندئذ خرج القرويون من الغرفة، وليس معلوماً من نفخ البوق بحيث جاء آلاف الفلاحين حول البيت. ثم جرى إطلاق نار، وأصابت طلقة خاصرة صُغرا ومات لطف علي أيضاً لحينه.

اجتمع القرويون ليلاً واقترح هذا الحارس الويشكا سوقي ذاته أن يحرقوا المنزل، ولو لم تكن حضيرة جنود أخرى قد وصلت ليلاً، لما بقي منهم أثر. .

كان محمد ولي يدخن سيجارة. فكر الجيلي: الآن أفضل فرصة كي أجرده من سلاحه. كان بدنه كله يرتجف. كان تصور موت صُغرا المؤلم يسلبه إرادته. هو نفسه أيضاً لم يكن يعرف أكان يرتجف برداً أم اضطراباً. . لكن محمد ولي لم يكن ليكفّ:

ـ إنك لأستاذ جداً. . إنك من أولئك التالدين. لا تنطق بكلمة واحدة،

تخشى أن تفضح نفسك. قل لأرَ، مَن مِن أولئك الذين كانوا يتكلمون داخل الغرفة هو آكل؟ أنا لا أخاف من أحد قط. آكل كافر، أريد بنفسي أن أقضي عليه. رأى زملائي بأعينهم أنه أحرق القرآن. إنني لأتمنى أن يقع في يدي، أيهم كان. لابد أنه ذاك الذي كانت له لحية خفيفة، وكان يقف فوق رأسك، ها، لم لا تجيب؟ نائم أم صاح؟..

كان عويل الريح يجلب معه إلى الكوخ صيحات عجيبة من قعر الغابة: صوات امرأة، خوار بقرة، أنين وصيحة اعتراض. كلما أرهف الجيلي سمعه، كان يسمع أكثر، كما لو أن أنّات صُغرا الحارقة، عندما أصابت الطلقة خاصرتها، كانت في هذه الضجة. ولكن خرير ماء المزراب القاتل كان يدمي فؤاد الجيلي أكثر من أي شيء آخر، كما لو أن شخصاً كان ينتف برأس ظفر جرحاً. كانت أسنانه تصطك على إيقاع انهمار الماء الرتيب، وكان يفقد صبره.

ويبدو أن الهدوء الذي كان مخيماً على الغرفة جعل نائب العريف محمد يرتاب. كان يريد أن يعرف هل الجيلي نائم أم لا.

ـ لم لا تجيب؟ أنتم أعداء الله والنبي.. قتلكم جميعاً واجب، سمعت أن آكل قال إنهم لو قتلوا قاتل ابنته فهو مستعد أن يستسلم. إي، وحياتك، إنني لا أبالي أصلاً إن كانت المرأة التي سقطت ذلك اليوم بطلقتي ابنته أو لم تكن. ما يهمني؟ أنا قمت بواجبي الديني. أقول إن آكل عدو الله وإن قتله واجب. أسمعت؟ أنا لا أخاف أحداً. أنا قتلت، فليفعل ما استطاع..

ـ ضع البندقية أرضاً. إن تحركتَ متَّ..

قال الجيلي هذا. كان صوتاً مكتوماً مبحوحاً، سحب نائب العريف كبريتاً فكان هذا للجيلي صافرة إنذار. في طرفة عين أخرج المسدس من جيبه، وفي اللحظة التي أنار فيها الضياءُ الأصفر والدخان البنفسجي الباهت للكبريت

الغرفةَ، تمكّن الجيل من سحب الطارق واستهدافه. كان محمد ولي، لكي يشعل الكبريت، قد أوكأ أخمص البندقية على الأرض ووضع أسطوانتها بين مرفقيـه. عندما مدّ يـده بعود الكبريت إلى أمام، كانت الحربة تستقر تحت مرفقه الأيسر.

في نور شعلة الكبريت، كان يُشاهَد أسطوانة مسدس وعين الجيلي المفتوحة البيضاء. انسطل نائب العريف. أحرقت نار عود الكبريت يده وسقط ذراعه، كما لو كان فقد الروح، فاصطفق بفخذه.

ـ ضع البندقية على الأرض! إن تحركت متّ!

مست أسطوانة المسدس صدغ النائب. مدّ الجيلي يده فأمسك حنجرته وسحبه إلى داخل الغرفة.

ـ انتظر، الآن أعطيك أجرك بكف يدك. تقرأ لي الرجز؟! أتعرفني؟ لم لا تنظر؟..

كان المطر يهطل ولكن الأفق كان يتنور. كانت الغيوم المظلمة تنكشف شيئاً فشيئاً.

ـ كنت تقول إنك لا تخشى أحداً! لا تخف، لن أقتلك، أخنقك بيدي. كانت صُغرا زوجتي. يا لئيم، قتلت زوجتي. أنت قاتل صُغرا. أنت يتّمت طفلي. سأقضي على نسلك. سأجعلك بائساً. أنا آكل. لا تخف منه. ها، لماذا لا تتحرك؟

أخذ البندقية من يده. ذاب النائب كعمود انتقع ماء. أوكأ الجيلي البندقية بالجدار.

ـ قلت إنك لا تخشى آكل. أنا آكل. يا مسكين، مات آكل اللولماني من غصة ابنته. قلتُ: لو سلموني قاتل صغرا، فإنه سيسلم. نعم، لا يوجد

آكل كي يسلم. أنا من هاجمت الباص في الجادة. وكل من هم معي جميعاً من أولئك الذين صاروا بلا عوائل، كلهم من أولئك الذين طردوا من أرضهم ومائهم. إنني أقول لك هذا لكي تموت، عندما تموت، عارفاً. ولقد وضعت المسدس أيضاً في جيبي. أريد أن أقتلك باليد، أريد أن أعض حلقومك. أنا آكل. إن فؤادي ليبرد..

كان يلهث من شدة الرغبة في الافتراس. لم يكن يدري كيف يقضي على العدو، لقد تحيّر. في نور الفجر، صار هيكل نائب العريف المهروس المدعوك يُرى بالتدريج.

ـ نعم، أنا نفسي كنت الثائر. وأنا أعرف القراءة والكتابة أيضاً. تعلمت طوال هذه السنوات الخمس. تعلمت أموراً كثيرة. تقول إن البلاد ليست فوضى؟ ما الفوضى إذن؟ تسرقوننا، تشردوننا من بيوتنا ومن حياتنا. لم يبق منا شيء بعد، لم تبق فلاحة بعد. كم ابتززتني أنت بالذات؟ كان عمرك طويلاً، لو أنني كنت أعرف أنك قاتل صُغرا، لكنتُ جعلتك قد أبليتَ الآن سبعة أكفان! من الكافر؟ أنتم الذين ختمتم على القرآن ألف مرة ثم نكثتم قولكم؟ أفلم تأتوا لتقسموا أن الجميع صاروا في أمان من الآن فصاعداً؟ لماذا يعتقلون الناس بلا داع؟ لماذا تقتلون بلا سبب؟ من الذي يسرق؟ لقد عاش أجدادي وأجداد أجدادي في هذه البلاد، فمن من الملاكين كان في جيلان قبل أكثر من خمسين سنة؟

كان لسانه يجري، وكان يتكلم بسرعة تجعل بعض الكلمات غير مفهومة. كان النائب يلصق، راكعاً، جبينه بأرضية الغرفة الخشبية ويحمي قفاه بيديه. كانت قبعته قد سقطت عن رأسه إلى أرضية الغرفة:

ـ «لا تخف، لا أقتلك على هذا النحو. انهض، أريد أن أشرب دمك. حرام فيك الطلقة. يا تعس، ما الذي أنت جدير به كي أبذر واحدة من طلقاتي لأجلك؟ انهض!».

ولكن النائب ما كان يتحركِ. وحتى عندما ركله الجيلي في ساقه اليمنى لم يحدث غير أن التصق وجهه بالأرض أكثر، فلم يعد لعضلاته وعظامه قدرة الاستجابة للاوامر. مدّ الجيلي يداً وأمسك بياقة معطفه المطري وألقى نظرة على وجهه. في الضوء الخافت للصباح الممطور، كان وجه محمد ولي الخائف يزداد جلاء. كان العرق يتصبب من وجهه. تميل عيناه إلى البياض. صار عديم الطاقة. كان يسيل زبد أصفر من فمه. كان يخرخر.

ما أن وقع نظره على عين الجيلي البراقة الملتهبة حتى غلبه الارتباك والتلعثم. انفك لسانه:

ـ لا تقتلني. أعطني الأمان! عندي خمسة أطفال. ارحم أطفالي. سأفعل ما تأمر به. هبني لشبابك. لقد كذبت. لم أقتل. أنا لم أقتل صغرا. هو الذي كان يرمي. لم يكن الرشيش بيدي..

* * *

كان يبكي. أطفأ التماسُ المأمور وعجزه ونحيبه، مثل ماء يُصبُّ فوق نار، التهابَ الجيلي. تذكر أن عنده خمسة أطفال. لو كان يقول الحق! تذكر طفله الذي كان يلعب في زاوية الكوخ. انقطع المطر، وفي سكوت الصباح وصفائه، أثار ضعفُ محمد ولي وانعدامُ غيرته نفورَه. حمله نور النهار على الإسراع.

بصق الجيلي، وفي طوال بضع دقائق خلع المعطف المطري عن بدن نائب العريف، وفتح صف الرصاص عن خصره، ولف بطانيته هو حول رأسه وعنقه، ثم وضع قبعة النائب على رأسه هو، ومعطفه المطري على بدنه هو، وخرج من الغرفة.

في الغابة كان لايزال يطرق الأسماع عويل امرأة يعذبونها. في هذه اللحظة، سُمع صوت طلقة، وأصابت طلقة ساعد الجيلي الايمن. لم يكد يستدير حتى أصابته طلقة أخرى في صدره، وقلبته من فوق الإيوان.

كان المأمور البلوشي قد فعل ما أراد.

الحواشي

(١) يهتم الجيليون بتأكيد أنهم قومية خاصة، وليسوا فرساً. وهم يستوطنون شمال إيران، حول بحر الخزر، وفي محافظة كيلان (جيلان) أساساً.

(٢) إحدى مدن محافظة كيلان.

(٣) مدينة أخرى في كيلان.

(٤) مدخن الـ شيرة، وهي فضلات استخراج و/أو تدخين الأفيون، وهي مادة رديئة وتزيد مضارها على مضار تناول الأفيون ذاته.

(٥) مدينة في محافظة بلوجستان.

(٦) ينتمي إلى واحدة أخرى من قوميات إيران. وهي تتوزع عليها وعلى أفغانستان وباكستان.

(٧) الملاّك، الإقطاعي، شيخ العشيرة، وما أشبه.

(٨) رز مسلوق. المادة الرئيسة واللازمة في أكل أهل كيلان.

(٩) ينشرون أوراقه كما الغسيل.

(١٠) ولاية، ومركزها، في أفغانستان الجنوبية. والتعبير كناية عن السفر الطويل والشاق.

(١١) بوصفه من منطقة بحرية.

(١٢) كناية عن الحساء الرقيق!

صادق چوبك

ولد صادق چوبك سنة ١٩١٦ في ميناء بوشهر على ساحل الخليج الفارسي. تخرج في طهران من كلية «البُرز» الأمريكية، وعمل في شركة النفط. أصدر مجموعته القصصية الأولى باسم «خيمه شب بازي»(١) سنة ١٩٤٥ والثانية باسم «چرا دريا طوفاني شد؟»(٢) سنة ١٩٤٩، فكشف عن نفسه بوصفه كاتباً خلاقاً جيد القريحة. أصدر بعد ذلك رواية «تنكسير»(٣)، وهي قصة متمرد: رجل يحمل السلاح ويشتبك مع السلطات المحلية من أجل إحقاق حقوقه. ثم أصدر مجموعتين قصصيتين واحدة باسم «چراغ آخر»(٤) والأخرى باسم «روز أول قبر»(٥)، لم تكونا بقدرة قصص مجموعتيه الأوليين.

كان آخر أعماله رواية طبيعية (ناتوريالية) باسم «سنك صبور»(٦) تروى بشكل مونولوج داخلي. وأخيراً، شأنه شأن جمالزاده وهدايت وعلوي، توفي سنة ١٩٩٨ - خارج الحدود الجغرافية للغة التي عشقها - في أمريكا.

تدور قصصه عادة في محيط قذر متعفن، محيط مملوء بالإدبار والفقر والنكبة وحتى الكذب والجريمة. إنه لا يبرر شيئاً، ولا يوضح أيضاً، لا يطلعنا على جذور الوقائع وعللها، إنه يأخذنا فقط لرؤية تفاصيل الحادثة كي يعرّض للضوء التحليل النفسي للأفراد وحتى بناء وتركيب مجتمع ما. والسمة البارزة لهدايت وچوبك هي انهما لم يكونا قط مداحين للفقر والجهل والخرافات بذريعة الدفاع عن الشعب، تلك الذريعة التي ابتذلت، بل كانا يعرضانها بقسوة تامة.

ولهـذا السـبب ذاته لم يكونا موضع إسناد «اليســار السياسي الحزبي» في مجتمعنا كثيراً.

* * *

إن قصة «بعد ظهر يوم في آخر الخريف»، التي انتُخبت من مجموعة «عرض الدمى»، تبدأ بشرح تفاصيل فصل دراسي، من وضع وسيرة التلاميذ إلى الأشياء الموجودة في الغرفة، التي في كل منها يوجد نوع من النقص غير القابل للجبران، نوع من نقيصة قطعية. إن علاقة الناس ببعضهم بعضاً من هذه النوعية الدنيئة المنحطة أيضاً، ويمكننا أن نرى نموذجها في أقوال المعلم عندما يخاطب «أصغر». إن أصغر، الصبي كثير التخيّل البائس، غارق في رؤاه الطويلة العريضة، من دون الانتباه للمعلم المشغول بتدريس الصلاة. إن العوامل الخارجية، اعتباراً من فريدون زميله في الفصل إلى المرأة الجالسة على باب دكان القصاب ملتفة في شادر مخطط، وحتى منظر البستان المجاور، كل واحد من ذلك يجره إلى تجربة مريرة وغير إنسانية، أو إلى تجديد ذكرى خفية وآثمة. أيمكن العثور على نقطة مضيئة فيما هو أمامنا؟

إن ذكريات طفل بريء وتجاربه ومشاهداته، مع فقرات من تعليم الصلاة، تقدم تخطيطاً موزائيكياً، ينبئ عن عالمين لا يمكن الجمع بينهما.

إن المعلم مشغول بتدريس الصلاة.

الحواشي

(١) مسرح العرائس، أو: عرض الدمى.

(٢) لماذا صار البحر عاصفاً؟

(٣) المضيق.

(٤) المصباح الأخير.

(٥) اليوم الأول في القبر.

(٦) الصخرة الصابرة، أو: صخرة الصبر.

عصر يوم في آخر الخريف

صادق چوبك

كانت الشمس تشع بلا دفء ولا حوْل، عصر ذات خريف، على نحو مائل من وراء زجاج الباب، على المناضد والمصاطب الصفراء المشخبطة للصف والملابس الخشنة الرمادية للطلاب، ولم تكن لها حتى طاقة أن تخفف قليلاً من لسع الريح الباردة التي كانت تقتلع الأوراق الزعفرانية، المتفرقة، لأشجار دلب الشارع وبستان الجار الكبير عن زهور الشجرة فتفرقها وتنثرها في الهواء.

كان الطلاب يجلسون، بوجوه مفزوعة، مكفوخين مرتّبين، صفاً وراء بعضهم، وينظرون بعيون مبحلقة إلى المعلم. كان تركيب الأشكال لما يكتمل، وكما لو أنه كان لايزال ثمة حاجة إلى شغل الخالق كي يتم فيصيروا مثل آبائهم. ويقيناً لو أن نحاتاً ماهراً كان أنشأهم لما كان سمح لأحد بأن يخرجهم من مشغله ويعرضهم على أعين الناس. لأنهم، بصرف النظر عن أي شيء، كانوا يكشفون عدم مهارته، الأمر الذي سيسيء إلى سمعته. كما لو أن مواقع الأنوف كان ينبغي أن تتبدل أو تستحدث خطوط في الأوجه. كانت النظرات بليدة وبلا نور، كانوا أشبه بجراء كلب منهم بيني بشر. كان ثمة شيء ناقص في شكولهم.

كانت ثلاثة صفوف من آخر الفصل خالية وقد استقر فوقها غبار الطباشير والتراب. وكانت معلقةً خارطةٌ لإيران وتصوير ملوّن لهيكل عظمي بشري

عظامه متنافرة الشكل ناتئة استقرت أسنانه شديداً على بعضها وتكشف عيناه ـ كبئرين لا قرار لهما في قحف رأسه ـ سواداً، وإلى الجانب الآخر علقت لوحة سوداء متخلخلة يكتب عليها الطلاب. وكان بعض الورق المدعوك وحفنة طباشير وممسحة لوحة، انتُزع لبادها ولم يبق مثبتاً إلاّ بشعرة، مرمية في زاوية الفصل جنب صندوق خفيض الحافة مملوء بمزق الورق. وكان تصوير يشبه تصوير إنسان كبير الأنف أبيض الشاربين، له عينان تقدحان شرراً، بلا عاطفة، وكتفيتان مطرزتان وصدر مغطى بالأوسمة والنياشين التي يبدو أنه أعطاها لنفسه بنفسه، يجلس ـ مثل فزاعة زرع، فوق اللوحة، في إطاره، يخزر الطلاب.

كانت منضدة المعلم أعلى من بقية المناضد. وكان عليها دفتر كبير للحضور والغياب كتبت فيه أسماء الطلاب، وكأس بلور روسي فيه وردتا نرجس ذاويتان على وشك الموت، وكان ثمة أيضاً دواة. وكانت مدفأة فحم حجري، مع سيخ وجامعة رماد وملزمة فحم، في الزاوية، تدخن. هنا كان الفصل الثالث.

كان المعلم يلقي الدرس، وفيما كان يدير مسطرة ملأى بالبقع والنمش بين أصابعه أمسكها بغتة بين الإبهام وراحة يده، ورفع كفي يديه أمام وجهه وقال قارئاً:

«في الركعة الثانية بعد قراءة الحمد والسورة نمسك بكفي اليدين أمام الوجه ونقرأ الدعاء التالي: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. ويسمى هذا العمل بالقنوت. وثمة غير هذا أدعية أخرى يقرأها الناس. أحدها هذا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا ويسّر لنا أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. ولكن ليس بكم حاجة لتحفظوا هذا. يكفي أن تتعلموا ذلك المكتوب في كتابكم. ثم الركوع في الركعة الأولى والسجود. . ».

ولكنه قطع كلامه فجأة وتيبس كالتمثال فيما كان يحتفظ بيديه مقابل وجهه. كانت لحظة وقحة ملأى بالغضب إلى حد أن (أصغر سپوريان)، الذي

كان جالساً، حدّق مبهوتاً. كان أصغر ينظر إلى الزقاق، ولم يكن منتبهاً لنظرة المعلم الغاضبة. لكن صمت الفصل وانقطاع درس المعلم، الذي كان يرن في أذنيه، نبهه إلى نفسه. بغتة أدار وجهه سريعاً من الزقاق إلى الفصل فرأى التلاميذ ينظرون صوبه. كان هؤلاء جميعاً يحدقون إليه بنظرات مرتعبة ونظرات لائمة.

أنزل المعلم بهدوء يديه عن مقابل وجهه وأخرج المسطرة، بدون مساعدة اليد الأخرى، من بين أصابعه فأمسكها بإحكام في وسط راحته وصاح بصوته الجاف:

«هَيْ سپوريان يا عِجْل! هَيْ يا بزر الكلب! أين حواسك؟ أين تطوف؟ إنني أقول هذا لك كي لا تبقى غداً في الامتحان كما حمار أعرج في الوحل. يا من على رأسك التراب يا مكسور الرقبة. يرى بنفسه أنني أقرأ له ياسين[1]، وهو ينظر إلى الزقاق. ما الذي كان في الزقاق بحيث يكون أرقى من كلام الله؟ أظن أنهم يطيّرون فيلاً، نعم؟ انظروا إلى شكله. يشبه الكنّاسين[2]. ستنتقل جيداً هذه السنة إلى الفصل الرابع! إي وحياتك! ستأتي هنا غداً قدّام الصف فتقرأ صلاة من الأول إلى الآخر، ولو أنك قدّمت أو أخّرت كلمة واحدة منها سأقلع أظفارك».

هز المسطرة بشدة وعلى نحو مهدد في الهواء نحو أصغر. كما لو كان يضرب الهواء. صارت عيناه، من فرط الغضب، ووراء نظارتيه المكبرتين، مثل عيني ديك مدورتين وحمراوين وراحتا تبرقان بظلم. وكانت غضون وجهه وجبينه تتماوج. ولكنه إذ أمعن النظر في وجه أصغر احترق من أجله فؤاده بغتة. بدا له أن أصغر أسوأ حظاً وأكثر بؤساً من كل أطفال المدرسة الآخرين. تذكر أن أم أصغر تغسل الملابس في البيوت وأنها تعيل نفسها وأصغر وأختين صغيرتين أخريين، وتذكر أنه بعد نجاح أصغر إلى الصف الثالث ببضعة أيام، في ظهر ذلك

اليوم الذي صرف فيه الطلاب وكان يريد الذهاب إلى البيت، تصدت له امرأة تلبس چادر صلاة[٣]، غير متقدمة في السن، وقالت له:

«رحت فداء لك يا سيد، أصغر ابني هذا ليس له أب. قبل شهر بينما كان أبوه في الشارع يكنس دهسته سيارة فأعطاك عمره. الطفل محب للعب. صدقة عن رأسك افعل شيئاً كي يقرأ دروسه، في هذا ثواب. أنا نفسي لا شيء عندي أقدمه، ولكن مهما قلت فإنني فاعلة لأخدمك. أغسل لك الملابس. افعل له شيئاً كي يصير قارئاً للدرس. كلما صار فضولياً أو لم يكن حافظاً درسه اضربه حتى تسّاقط أظفاره. هذا غلامك وأنا جاريتك. هو راض عنك تماماً. يكفي أن تتفضل فتفعل شيئاً يتعلم به هذا قليل تعلُّم».

ثم انحنت وقبلت رجله. والآن، وهو ينظر إلى أصغر، يتذكر كل هذه الأمور التي كانت أمه قالتها له فانكسر له قلبه.

انكتم الفصل. انقطع ذلك الطنين الممتد الرتيب، الذي يلقي أطفال المدارس دائماً مسؤوليته على أحدهم الآخر. كان كل واحد من التلاميذ يسعى لأن يكتسي وجهه علائم عدم التقصير، والبراءة. لم يكن ليندّ عن أحدهم نفَس.

اهتز أصغر كثيراً، وكان فؤاده يضرب سريعاً وصار جذر حنجرته ورأس لسانه مُرّيْن. كان الصف كله والطلاب جميعاً يدورون حول رأسه. فكر مع نفسه فوراً أنه سيضربه الآن بالذات. يا إلهي. وعندئذ طأطأ رأسه خجلاً خائفاً، وضغط يديه، المتجمدتين الملوثتين بالحبر، ببعضهما شديداً.

مرة أخرى ارتفع صوت المعلم.

«إذا رأيت مرة أخرى أن انتباهك موجه لغير الدرس فسأضربك على رأسك بحيث يقفز مخك من أنفك. يا حيوان مكسور الرقبة!».

فيما كان رأسه مطأطأ أحس أن كل الطلاب ينظرون إليه، خاصة

فريدون، الذي كان سيئاً معه. نظر من فوق عينيه فرأى فريدون قد لف كلّ جذعه، بدون خوف من المعلم، وبدالّة شديدة، على المصطبة الأمامية وسمّر عينيه الجميلتين اللتين كانت أهدابهما، واحدة واحدة، قد ألقت دوائر من ظل على بشرة وجهه البيضاء، على وجهه وراح يخالسه النظر، وما أن صارت عيناه في عيني أصغر حتى أخرج لسانه من فمه ورفع حاجبيه وحَوّل عينيه وعوج له فمه ثم عاد سريعاً ينظر إلى أمام.

توجع فؤاد أصغر. ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً. كان فريدون نموذج الفصل المدلل. كان أكثر تلاميذ تلك المدرسة بروزاً: يأتي إلى المدرسة بالسيارة ويعود بالسيارة. وصباحاً، في وقت الاستراحة الأولى، كان خادمهم يجلب له قنينة شربات لها رأس بلاستيكي ضخم فيشرب منها ويعطي أصدقاءه أيضاً. لا يعاركه المعلم قط. كانت بشرته بيضاء للغاية ويداه نظيفتين مرتبتين على الدوام ولم ينوجد تحت أظفاره وسخ أسود قط. كانت عنده إجازة خاصة من المدير بأن لا يحلق شعر رأسه من الأساس، فكان ينتشر على رأسه دوماً مقدار من الشعر الأشقر بمثل نعومة الأبريسم، كانت هذه هي الأمور التي يمتلكها فريدون أكثر من أصغر، وكان كل واحد من هذه قد ولّد فيه رعباً ودناءة متجذرين.

كان أصغر يفكر مع نفسه:

إن كنتَ صادقاً قل شيئاً لفريدون هذا، هاهو يعوج لي فمه. رأوه جميعاً عوج فمه، لماذا؟ ماذا فعلت له؟ آه يا إلهي! ليتني كنت مكان فريدون هذا، الذي يذهب السيد المعلم إلى بيتهم كي يدرّسه ويركب سيارتهم ويأكل الرز الحلو(٤) السمين مع التمر ولب الجوز، مثل ذاك الذي عقدته أمي ذاك اليوم في منديلها وجلبته فأكلناه وكان فيه رقبة دجاج أيضاً. من ذلك الرز والأسفناج السمين الذي أكلناه تلك الليلة حين وزعه ذلك التاجر الذي ماتت زوجته حين أجلسنا الشرطة خمسة خمسة على أرضية الباحة على حافة الجنينة وصبوا الرز والمرق في

صوانٍ ضخمة، حين جلسنا أنا وأمي الحبيبة وقارئ قرآن ودرويش وأعميان، وكان قارئ القرآن يريدني أن أقوم ويقول للشرطي: نحن ستة وهذا الولد زائد! وعندئذ كان الأعميان يصرخان: لا تجلسونا جنب مفتّحي الأعين، أجلسونا جنب عجزة. وعندما أكلنا نهضت أمي مختلسة وذهبت للبيت فجلبت طاسها الكبير فعاركها الشرطة وضربوها وعلقت يدي بباب الزقاق إلى أن أنقصوا الطاس أخيراً إلى النصف فأكلناها في اليوم التالي غداءً. وكان فيها عظم مملوء نخاعاً يا لكبره خصَّته أمي فوق الخبز وأعطته لآسيا وزهرا فأكلتاه وأخرجتُ بقية النخاع بمسمار وأكلته.

ثم يجلس بعد السجدة الثانية ويقرأ التشهد، والتشهد يعني أن يجدد الإنسان إيمانه وتوحيده لله ورسوله، والتشهد هو أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

ثم جئنا إلى البيت فذهبنا إلى قلعة (بكيري) فلعبنا وكانت الليلة مقمرة والوقت صيفاً والموت لفرّاش المدرسة كم لعبنا عند الكوانين ورمينا الحلقات، ولعبنا بالكعاب

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

وذلك اليوم كم ناكد مشْ[٥] رسول علياً وحيد العين ليتنا نستطيع الآن أيضاً أن نذهب فنلعب بمفردنا

اللهم صل على محمد وآل محمد

نذهب فنمسك يد (علي المظلوم) ونمسك يد (تقي سك) مثل ذاك اليوم. كم الصيف جيد. كم ذهبنا مع مش رسول إلى (شاه عبد العظيم)[٦] خلف (ابن بابويه)[٧]

وبعد التشهد ينهض المرء ويبدأ بالركعة الثالثة

في ذلك البرج القديم في بستان سراج الملك أكلنا خبزاً وكباباً مع اللبن مع مش رسول. لماذا يقول الناس هات؟ لماذا كلما يراني تقي يوبخني؟ إذ ما يفعل لي مش رسول؟ يقبّلني ويدللني ثم عصراً إذ نركب سيارة الدخان[٨] كي نأتي إلى المدينة يعطيني خمسة هزارات[٩] أيضاً لو أن تقي قال لي هذه المرة من هذا الكلام الرديء الرديء سأقول لمش رسول فيهشمه. إن مش رسول أقوى منه إنه قاطع خمائر[١٠] صبي خباز سأقول لمش رسول هذه المرة عندما يأتي تقي كي يشتري خبز لبيتهم يعطّله ويحمّله من ذلك الغمز واللمز السيئ السيئ

وفي الركعة الثالثة بدلاً من الحمد والسورة يقولون ثلاث مرات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر

كي لا يتجرأ بعد فيقول أمام (سيد عباس) و(رجب علي) إن رسول يضع كوزه عند محل سقاية أصغر[١١] بحيث يضحك الأطفال مقهقهين وعندئذ يُخرج سيد عباس من جيبه ثمرة كاكي ويقول: إن أعطتيني قبلة فسأعطيك هذه الكاكية كاملة. أنا لا أريد. لو عرف الأطفال، لو عرف فريدون أن مش رسول يفعل معي من هذه الأفعال. ليتني لا أجيء للمدرسة بعد. غدا لا أجيء إلى المدرسة فأنا لا أعرف أن أصلي وعندئذ يضحك فريدون عليّ يعيبني أنا هناك في الأمام أخجل أقف أمام أولئك أصلي عندما أريد أن أضع رأسي على التربة[١٢] هنا الأرض عارية صباحاً عندما أخرج من البيت أجلب كتبي معي أذهب إلى ذلك الزقاق الطويل الذي لا منفذ إليه وراء باب ذلك البيت ألعب مع الأصحاب الكتابة أو الرسم وأغلِب ولكن إن كان (رضا) موجوداً فهو يغلب. يفهم كثيراً. عندئذ أقول لمش رسول أن يأتي إلى المدرسة فيقول للناظم كان أصغر مريضاً ولم يستطع أن يجيء إلى المدرسة أمس. فأمي لا تفهم أن رضا من أولئك الخبثاء.

ثم دفع أصبعه إلى أنفه وحكّ هنا وأخرج بأظفره كريّة مخاط متيبس كان ملتصقاً بجدار أنفه وجعل يده تحت المنضدة ومرد تلك الكرية جداً بين أصابعه، ولكنها سقطت فجأة من يده إلى الأرض وبقيت الحسرة عليها في قلبه.

في هذا الوقت أدار رأسه بلا اختيار، ببطء، نحو الزقاق وأخذ ينظر إلى الناس والعربات والحمير، التي كانت محملة، وإلى جثث اللحم المعلقة بالخطاطيف. كان يتمنى أنه هو أيضاً كان حراً ويذهب، مثل هؤلاء، أينما يرغب.

عند دكان القصاب كانت امرأة تجلس وأمامها بقجة بيضاء وقد لفّت نفسها في چادر صلاة وجلست مقرفصة. عندما وقعت نظرة أصغر عليها استقرت هناك. بدا له أن أمه بشكل هذه المرأة بالضبط. كان عندها هي أيضاً چادر صلاة مثل هذا. ولكن عندما نظر إليها من أعلى احترق فؤاده على أمه. لم يكن قد رأى أمه على هذا النحو من فوق قبلاً. من فوق بدت أمه أحقر وأصغر من الناس الذي يجتازونه ولا يهتمون لشأنه ينفر منهم لم يكن أحد يعير تلك المرأة التي كانت تشبه أمه اهتماماً.

لو عرف فريدون أن هذه المرأة الجالسة عند دكان القصاب أمي فماذا سيقول؟ السيد المعلم الذي يعرف أمي تكلم معها ذلك اليوم على باب المدرسة مرة أمي مرة هو.

أحس بغتة أن طعم فمه تبدل. كما لو أن شيئاً فائضاً نتأ إلى الخارج. مص أسنانه فسقطت من بينها قطعة لحم كبيرة. هرس اللحم بين أسنانه وتذوقه. كان له طعم كرشة متهرئة ودم مالح جديد. تذكر أنه أكل كرشة أول أمس. تذكر أن غداً مساءً أيضاً دور أكلهم الكرشة. إنهم يأكلون الكرشة ليلتين في الأسبوع.

يأكلون في بقية الليالي خبزاً وبنجراً مسلوقاً. عندما يرتفع صوت بائع الكرشة تنهض أمه وتأخذ الطاس فتذهب إلى باب الزقاق. كما يذهب أصغر وآسيا وزهرا وراءها أيضاً. يضع بائع الكرشة قِدره أرضاً ثم يرفع غطاء القِدر، الذي كان صينية نحَاس بيضاء وكان في الصينية فانوس فيخرج من داخل

القدر بخار كثير . يمزق بائع الكرشة بالسكين الضرع والمعدة والرئة ويصبها في الطاس ، وفي الآخر يصب فوقها ماءَ وسخ كثيفاً . وعندئذ يأخذونها إلى الغرفة تحت الكرسي[١٣] فيأكلونها مع الخبز والخلّ .

مرة أخرى وقعت نظرته على تلك المرأة المقرفصة التي كانت تلف نفسها في شادر الصلاة المخطط والتي كانت تشبه أمه . ثم راح يحدق إلى دكان بائع الفواكه الذي كان جنب القصاب . نظر إلى الكاكيات والمشملات[١٤] ، ولكنه أعاد رأسه إلى داخل الغرفة سريعاً من الخوف . كان المعلم يلقي الدرس .

ثم يركعون ويسجدون وينهضون فيؤدون الركعة الرابعة كالركعة الثالثة .

انهار فؤاده . تذكر أنه ينبغي أن يخرج غداً أمام الطلاب ويصلي صلاة كاملة من أولها إلى الآخر . لم يكن قد صلى قط . وأمه أيضاً لا تصلي . كان سمع أمه مرة تقول لامرأة صاحب البيت «إن رأيت أنني لا أصلي فذلك لأنني أنجس من الكلب ، من الصباح حتى المساء يدي في بول الناس وخرائهم ولكن عقيدتي أنظف من الجميع» . ثم فكر بالركوع والسجود . كان شكلان من حجم واحد ، متساويا الحجم ويشبهان قطعتي غيم وليس لهما شكل محدد ، يتراقصان أمامه . كان هذان الركوع والسجود . تصورهما في ذهنه واحداً الركوع والآخر السجود . ولكن الشكلين سرعان ما انمحيا من نظره .

ذلك الذي فيه صوت العين وهذا الذي يضع فيه الإنسان رأسه على التربة ذاك الذي هو السجود يضع الإنسان يديه على ركبتيه وينثني .

وعندئذ تذكر مش رسول . خجل أمام نفسه واحمر حتى الأذنين .

ذاك الذي هو سجود يضع الإنسان يديه على ركبتيه وينثني .

سقطت أمامه ذبابتان ملتصقتان ببعضهما على المنضدة . استدارتا على

بعضهما زمناً مثل مصارعين في زورخانه(١٥) ثم انفصلت إحداهما وطارت. وسوّت التي بقيت أرجلها مدة بجناحيها ثم مدت أيديها على قرنيها وكان ظلها يرقص على المنضدة طويلاً أشوه ويصنع كل ما تصنعه الذبابة. جلب أصغر يده ببطء فوق المنضدة ولكن بصره كان على المعلم ثم دفع يده بهدوء إلى أمام وأمسك خفيفاً تلك الذبابة. أبقى يده التي كانت مضمومة هناك على المنضدة ولكنه كان يضغط أصابعه ويريد أن يقتل الذبابة. كان يريد أن يعرف في أي موضع من قبضته اختفت تلك الذبابة. ضغط أصابعه بإحكام مع بعضها ثم رفع يده عن المنضدة ووضعها في حضنه. ومرة أخرى ضغط أصابعه على بعضها ثم أرخى أصابعه على مهل وفتحها شيئاً فشيئاً فإذا بالذبابة تطير فجأة من يده وتنطلق في الهواء. كانت أصابعه أصابها الوجع. فتحها وضمها عدة مرات، ومرة أخرى نظر إلى الزقاق، ولكن تلك المرأة التي كانت تلف نفسها في شادر الصلاة المخطط والتي كانت مقرفصة عند باب القصّاب كانت قد ذهبت. في بستان الجيران الكبير كانت امرأة تجمع اللباس الذي كانت هوّته على الحبل. من مداخن البناء كان يخرج دخان. ومضى رجل كانت له هيئة الطباخين وتتدلى مريلة أمامه من البناية نحو الحوض. كان في إحدى يديه سكين طويلة وفي يده الأخرى أمسك دجاجتين كان يعلقهما. عندما بلغ حافظة الحوض وضع السكين على حافة مغسل الأرجل(١٦) وأمسك رأسي الدجاجتين ودفعهما بالقوة إلى الماء. أخرجت الدجاجتان بخوف وسرعة رأسيهما من داخل الماء وهزتاه إلى هذا الجانب وذاك. وعندئذ جاء بهما إلى حافة الجنينة وسحب السكين أيضاً على الأرض ثم وضع سيقان الدجاجتين تحت رجله التي كانت في حذاء أسود ورفع السكين على الأرض وسحبه على عنق إحداهما ولكن، لأنه سحبها عدة مرات ولم تقطع فقد ترك السكين على الأرض ونتف بيده ريش عنق الدجاجة التي أراد أن يقطع رأسها ثم أخذ السكين وقص رأسها من الأذن إلى الأذن ورمى رأسها إلى هذا الطرف وجسدها إلى ذاك. وذبح الدجاجة الثانية مثل الأولى.

كان أصغر لا يزال غارقاً في تأمل خفق الدجاجتين المذبوحتين عندما أحس ثانية أن الفصل غمره الصمت. انهار فؤاده وشرع الضَرَبان السريع. أعاد رأسه بخفة إلى الفصل. ولكن المعلم لم يكن ينظر إليه وكان وجهه في الجانب الآخر. كان المعلم يمسك منديله بيده. كان منديله مدعوكاً وقذراً. فتحه من الوسط وتمخط مخطة جبارة وراح يحدق فيه ذاهلاً إلى مخطته. ثم عاود التدريس ولكن هذه المرة وهو يخنّ وهو ينظر ذاهلاً في المنديل إلى مخطته يبحث فيها عن شيء وقد احولّت عيناه. قال:

في هذه الركعة التي هي الأخيرة يجلس المرء بعد السجدة الثانية ويقرأ التشهد ثم يؤدي السلام وينتهي من الصلاة. والسلام هو السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحواشي

(١) تقول الكناية الفارسية «قرأ ياسين في أذن حمار» كناية عن بلادة من يوجه له الكلام .

(٢) تعني كلمة «سپور»: كناس .

(٣) يكون چادر الصلاة ، عادة ، زاهي الألوان مورداً .

(٤) رز ومرق من الثمار الحلوة كالبرقوق أو الكرز .

(٥) مخفف (مشتي أو مشدي) الذي بدوره مخفف (مشهدي) ، أي زائر مشهد . وهو لقب احترام .

(٦) ولي من نسل الحسن بن علي ، مدفنه في (ري) جنوب طهران .

(٧) فقيه شيعي ، مدفنه ما بين طهران وري .

(٨) اسم القطار أول دخوله إيران . بقي الاسم يستعمل على قطار طهران ـ ري حتى بعد «تقاعده» .

(٩) الهزار والقران اسمان لعملة تعادل قيمتها قيمة الريال الحالي ، أُلغيتا ولكن الاسمين يستعملان .

(١٠) العامل الذي يقطع العجين المخمَّر إلى قطع كل منها تساوي رغيفاً .

(١١) كناية واضحة المعنى والبذاءة .

(١٢) قرص من طين أحمر، يجفف فقط ولا يُفخر، يستعمل مستقَرَّ جبين عند الصلاة بوصفه طاهراً.

(١٣) وسيلة التدفئة الإيرانية التقليدية: مصدر حرارة يغطى ببطانية أو لحاف يتمدد أهل البيت وينامون داخله.

(١٤) Medlar

(١٥) الـ «نادي» الرياضي الإيراني التقليدي، وهو عبارة عن حلبة منخفضة مستديرة حولها دكك مدرجة صعوداً.

(١٦) حاشية حول الحوض من خارجه، أخفض قليلاً من مستوى أرضية المحيط، تُغسل فيها الأرجل تجنباً لإدخالها الحوض وتنجيسه.

سيمين دانِشْوَر

ولدت سيمين دانِشْوَر سنة ١٩٢١ في شيراز. تحمل شهادة الدكتوراه في الأدب الفارسي، وكانت تدرِّس علم الجمال لسنوات في جامعة طهران. وعلاوة على ذلك، كانت لها مشاركة واضحة في منشورات مثل «نقش ونكار»[١]، «علم وزندكي»[٢]، «كيهان ماه»[٣] و«آرش»[٤]. أُطلق عليها اسم سيدة كتابة الرواية الفارسية. كانت رواية «سووشون»[٥]، التي صدرت أول مرة سنة ١٩٦٩ وتكرر طبعها عدة مرات حتى اليوم، كانت أول رواية حديثة فارسية تكتبها امرأة. كانت زوجة كاتب القصة والمنظر المعروف جلال آل أحمد.

صدرت مجموعتها القصصية الأولى باسم «آتش خاموش»[٦] سنة ١٩٤٨، ولم تلفت الأنظار كثيراً. ولكن أكثر أعمالها، التي صدرت بعد ذلك، ذات أهمية. كانت مجموعاتها القصصية اللاحقة «شهري چون بهشت»[٧]، «به كي سلام كنم؟»[٨] و«أز پرنده مهاجر بپرس»[٩].

من روايتها الثلاثية وصل إلى يد القراء مجلدان باسم «جزيره سر كرداني»[١٠] و«ساربان سر كردان»[١١].

وإضافة إلى ذلك، ترجمت إلى الفارسية أعمالاً من كتّاب كبرنارد شو، آرثر شْنيتْسَر، تشيخوف، وليم سارويان، ناثانيل هاثورن وآلان بيتون.

* * *

إن سيمين دانشور، مصورة دنيا المرأة الإيرانية العينية والذهنية، تعرض في «كيد الخائنين» ـ التي اختيرت من مجموعة «من أحيي؟» (١٩٨٠)، وضعت أصبعها على مسألة أساسية في المجتمع الإيراني: أين هي جذور الثورة الإسلامية؟ وعن طريق أي علائم في السلوك الاجتماعي للناس وأخلاقهم يمكن فهم تصدر رجال الدين في مجرى الثورة الإسلامية.

إن العقيد (آرياني فر) عقيد في الجيش ولكن زوجته منصوره خانم تقيم الصلاة وتصوم رمضان، وحتى أنها تقرأ بين صلاتي الظهر والعصر الصحيفة السجادية[١٢] وعندما يتقاعد العقيد تقول له «فلنذهب إلى مكة المعظمة، العتبات العاليات»[١٣] وخلال كل تلك الخمس عشرة سنة التي لم يكف فيها العقيد ـ على أمل أن يصير عميداً ـ عن الدراسة وأداء الامتحانات وعدم النجاح، سقط الشيخ عبد الله إمام المسجد في السجن، ثم عندما أُطلق سراحه منعوه من المنبر والمسجد، وكان قد جمع له في المحلة أعداداً غفيرة من المريدين.

في ليلة الزفاف ذاتها، عندما يخلو مكان المقصورة من الناس، تسأل منصوره خانم زوجها: «من مرجع تقليدك؟[١٤] بمن تقتدي؟». طبيعي أن هذا ابتداء الحدث، ولكن العقيد، بدلاً من أن يجيب، يقول: «هاتي الآن قبلة. اعط عمك قبلة». يستمر اللعب على السطح، في الولائم التي يأكلون فيها اللب، يدخنون السجاير ويكون بساط الشرب والقمار قائماً أيضاً، ولكن في العمق توجد حركات أخرى، مثل قراءة كتاب «تاريخ التصوف في الإسلام»، استنساخ كتب الدكتور شريعتي[١٥]، أي الكتب التي عقوبتها سجن ستة أشهر، وإيصال احتياجات عوائل السجناء السياسيين؛ وهذا كله يجري وراء أذن العقيد وهو لا يريد أن يرى ذلك أو يهتم له. نعم، على هذا النحو تقع الثورة الإسلامية وتخرج أمة بكاملها من وهم صيرورتها حديثة.

الحواشي

(١) رسم وتصوير.

(٢) العلم والحياة.

(٣) دنيا الشهر.

(٤) آرش ـ وهو صانع ومطلق وهداف سهام مشهور استعمل مهارته في رسم حدود إيران مع دولة (توران) في التاريخ شبه الأسطوري الإيراني.

(٥) هي «سياوشان» باللهجة الشيرازية، وتعني الاحتفال بسياوش ـ ويكنى بها عن مأتم العزاء للقتيل قبل الانتقام له.

(٦) النار الهامدة.

(٧) مدينة كالجنة.

(٨) من أحبّي؟

(٩) اسأل الطائر المهاجر.

(١٠) جزيرة الضياع.

(١١) الحادي التائه.

(١٢) مجموعة أدعية تنسب للإمام علي بن الحسين ـ السجاد.

(١٣) حيث المراقد المقدسة .

(١٤) لابد للشيعي من مرجع تقليد ، مجتهد ، يرجع إليه في المسائل الدينية ، وإليه يؤدي الزكاة والخمس .

(١٥) علي ، مفكر إسلامي قتل قبل الثورة الإسلامية بشكل غامض ودُفن خارج إيران . عمل على تجديد الفكر الإسلامي في كتبه ومحاضراته .

كيد الخائنين

سيمين دانشور

إلى اليوم السابق كان الجو حاراً مشمساً، واليوم صباحاً، كأنما صبّوا السماء فجأة من معدن، من برونز. ينقبض قلب الإنسان في هذا الجو البارد والسماء البرونزية. في كل سنة كان كل مراسل عندهم يكون قد وضع، حتى مثل هذا الوقت، المدافئ في الغرف. يكون قد نقل الزهور إلى غرفة الزهور الزجاجية، يكون قد صف حول حوض الماء القيشاني وسط الباحة لوح خشب وكدس الأوراق المتساقطة على اللوح، فنظف الباحة وذهب. إن تقاعد العقيد هذه السنة لخبط كل الأمور.

جاء كيوان إلى الإيوان، كان طائره تحت إبطه. قال حضرة العقيد:

ـ أيها الطفل، مرة أخرة لم تذهب إلى المدرسة.

فقال كيوان:

ـ يا جدي، إن طيري مريض، كما أن سيارة المدرسة صوتت بوقها مرة واحدة فقط.

أخذ الطائر من كيوان. كان جسده ساخناً، ولكن عينيه كانتا مغمضتين وقد تدلى رأسه على صدره. قال كيوان:

ـ يا جدي، لنأخذه إلى الطبيب، وإلا فسأبكي.

وبدأ مرة أخرى:

ـ أنهض في منتصف الليل، ألبس ملابسي، آخذ حصّالتي، أفتح الباب الخارجي وأذهب ماشياً عند أمي. طيب، عندئذ أضيع فيحترق فؤادك ومهما تبحث لن تجدني.

كان يحب روحه وهذا الطفل الصغير. كان قد قال لابنته أن تجلس ـ الآن وقد تطلقت ـ في بيت أبيها، تربي ابنها. كانت ابنته قد حولت جهازها إلى نقد، أخذته مع مهرها والسبعة والثلاثين المسكوكة الذهب وذهبت إلى ألمانيا. كانت قد قالت: أدرس هناك تصفيف الشعر، وأوقع في شباكي زوجاً ألمانياً. إن لم أوقع، فإن منصورة خانم تموت في حب كيوان. كما أن عندهم مراسلاً. كان العقيد يقلّب مرة كل سنتين أضابير الجنود المكلفين. ينتخب خيرهم أماً وأباً. ثم يرسلهم إلى دائرة الصحة. كان يعتقد أن اليزديين يتكشفون عن المراسلين الأكثر عملاً، والشيرازيين عن الأحسن فهماً ولساناً والترك عن الأكثر تقديراً للواجب. وفاطمة البلهاء كلما أحرقتَ شعرها[1] تحضر وتسأل:

ـ أمرك؟

كان أطفال المحلة قد سموا فاطمة البلهاء ـ في الماضي عندما كانت شابة ـ بريجيت باردو. كانت منصورة خانم تقول:

ـ تصفّر شعرها بماء الأوكسجين، وهذا هو السبب في كونه أجعد.

كانت فاطمة تغسل الملابس جيداً وتكويها أفضل. والآن، والدنيا أول آذر[2]، لابد أن فاطمة جالسة تحت كرسيها[3] الحار، تحوك ليفة حمام كي تبيعها لهذا وذاك فتعتاش. سواء أكان ثمة مراسل أم لم يكن، حضرة العقيد أو من دون حضرة عقيد. وقد أضربت السيدة منصورة خانم أيضاً ولم تنهض من

الفراش. قالت: ما لم تُنصب المدافئ ويحمى البيت لن أخرج من الفراش. حتى عندما كانت شابة لم تكن تحفة، كانت إما تصلي وتصوم أو تقرأ الكتب السخيفة ولا تدع حضرة العقيد ينام. تورّق الكتاب فتجعل جناب العقيد يفز من النوم. وكان المصباح المنضدي مضاء إلى جانب سريرها. كان جناب العقيد ينهض صباحاً في الساعة السادسة، يتريّض، يركض دورتين أو ثلاثاً حول الحديقة، يتناول الفطور ويذهب، وعندما يحل الغروب يعود. كان أول شخص صدَّق تقاعد جناب العقيد. وصدقته جيداً أيضاً. كانت تنق دائماً بأنه بين الأيدي والأرجل، دائماً في البيت، ومثل روح تائه يذهب من هذه الغرفة إلى تلك، إما أن يقرأ الفأل بورق اللعب وإما يدخن السجاير. كانت تصر على أن يأخذ العقيد شغلاً آخر ويترك السجاير. كانت تقول: تعال نذهب في آخر العمر فنطوف بالدنيا. تعال نذهب إلى مكة المعظمة، إلى العتبات العاليات.

أخذ حضرة العقيد يد كيوان، كانت يد الطفل قد تجلدت برداً. خرجا من البيت بالطائر تحت إبط كيوان. فكر: أذهب عند الحاج علي صانع المدافئ، عند منشعب شارع أسدي. حتى ذلك الوقت يكون الطير قد مات، نلقيه على كومة القمامة على جانب الطريق وألهي، مع الحاج علي، الطفلَ بشكل ما. كان للحاج علي زوجتان وجوقة من الأطفال، كان يعرف كيف يخدع النساء والأطفال. ولكن: بالنسبة لي أنا العقيد المتقاعد، لم يعد أحد يقيم لي شأناً: لا زوجتي، ولا حفيدي، ولا حتى فاطمة البلهاء، ولا الجيران. لم يكن وصل دكان الحاج علي حتى وقع نظره قبالة المسجد على دار السقاية. فوق حنفية ماء دار السقاية كانت ثمة صفة لها طاق شبيه بطاق مخزن الماء(٤) وعلى أعلاه خيمة. على جدران الطاق، كانت عدة صور منصوبة هنا وهناك وقد مُرر شريط أخضر ملتفاً حول الصور، وعلى الصفة يتناثر شمع مشتعل حتى الوسط. قبالة المسجد بالضبط، كان يجلس رجل يرتدي عباءة وطاقية ليل بيضاء. كان أمامه منقل نار وهو يقرأ القرآن. قال جناب العقيد لكيوان:

ـ اذهب ضع طيرك على صفة دار السقاية، سيشفيه الله. لا يمكن التفكير في شيء خير من هذا.

شرع الطفل يركض، والعقيد من خلفه منتصب القامة رشيقاً. وقف كيوان على رؤوس أصابعه ووضع طائره على الصفة. قال:

ـ ليس عندنا شمع يا جدي.

رفع الرجل الذي كان يقرأ القرآن رأسه وقال:

ـ إن كان ميتاً فهو نجس، ارفعه.

نظر العقيد إلى الرجل. كان له وجه شاحب وعينان ضئيلتا اللون، وكانت شفتاه أكثر شحوباً من وجهه وعينيه. كانت عباءته وقباؤه عتيقين ولكن نظيفين. غلَّظ العقيد صوته، كأنه نسي أنه يلبس لباساً مدنياً. قال:

ـ أيها الرجل الأعوج، ما شأنك أنت؟

ثم أخرج من جيبه قطعة ريالين، أعطاها بيد كيوان وقال:

ـ يا بنيَّ العزيز، أعطها ـ في سبيل الله ـ لهذا الشحاذ الفضولي.

مد كيوان يده الصغيرة، ولكن الرجل لم يأخذ النقد. قال العقيد مغضباً:

ـ ارمها أمامه يا كيوان.

خرج الحاج علي من دكانه. وجاء بائع الفواكه المجاور لدار الساقية وصبيه فتجمعا حولهم. وتوقف عابران أيضاً. مسح الحاج علي، بوجه يعلوه السخام، بيديه المسودتين من السخام على بنطاله، وزرّ جاكتته على بطنه الكبير وقال:

ـ هذا غير متوقع منك يا حضرة العقيد. ثمة تجريش(*) واحدة وهذا السيد وحده.. سمعتك تقول عن السيد شحاذ.

رفع الرجل، الذي يضع على كتفه عباءة، رأسه عن القرآن وقال:

ـ أنا شحاذ. شحاذ في طريق علي والأئمة الأطهار.

ضحك العقيد، أوشك أن يقول: يكفي التطفل. ولكن هؤلاء كانوا ستة نفر، لا يقدر عليهم، مع أنه كان له مع الحاج علي سلام وكلام وكلما كانت منصورة خانم تطبخ حساء الـ«رشته»[٦] أو حلوى كانوا يرسلون له طاساً أو صحناً، بالطبع حتى السنة الماضية حين كان عندهم مراسل. رفع الحاج علي الطائر عن صفة دار السقاية. كان رأس الطائر مدلى. قال:

ـ أيها السـيد الغلام، لقد قصصت جناح هذا الطائر فلم يطر، ومات من البرد.

قال كيوان:

ـ أنا لم أقصه، جدي قصه.

فقال الحاج علي:

ـ الطائر يطير ويعود من نفسه إلى عشه.

وتناول الحاج علي يد كيوان وقال:

ـ أيها السيد الغلام، تعال نذهب إلى حديقة البلدية، فندفنه إلى جانب الشتلات. السيد آوخ، بستاني البلدية، صديق لي.

كان كيوان يريق دمعاً على اتساع وجهه.

ركب الهوسُ العقيد أن يخلع عباءة الرجل عن كتفه وطاقيته عن رأسه ويعرضه للركلات. من المؤسف أنه لم يكن يلبس جزمة.

جاء الحاج علي بعد الظهر، واضطر العقيد أن يساعد بنفسه، فنصب[٧]

خمس مدافئ ليس بالأمر الهين ـ وكانت الغرف، كالزمهرير، باردة. عندما حلّ المغرب انتهى العمل وأشعل الحاج علي كل المدافئ. كانت تشتعل مولدة نار عالياً. كان كيوان قد انسجم مع الحاج علي كثيراً، فكان يذهب وراءه من هذه الغرفة إلى تلك ويعطيه خرقة الصحون والكاسة المعدنية الملونة ويركض فيجلب له الكبريت من المطبخ.

جلبت منصورة خانم شاياً للحاج علي. قال الحاج علي:

ـ صارت صلاة ظهري وعصري قضاءً.

فقالت منصورة خانم:

ـ كان عليك أن تصلي صلاتك. في هذا البيت توجد قبلة وتوجد سجادة!

عندما ذهبت منصورة خانم، سأل العقيد الحاج:

ـ من كان ذلك الرُجيل التافه الذي نغَّص يومنا منذ الصباح؟ لو كنت أخرجت سيارتي لكنت دهسته بها، ها!

فقال الحاج علي:

ـ يا حضرة العقيد، لا تتكلم هكذا. إن للسيد مائة مريد ممن هم مثلك وأعلى منك.

فسأل العقيد:

ـ ذلك الملا الآيل للموت؟

ـ لقد أكلت خبزك وملحك مرات، وإلا فأقسم بالمرتضى[8] ما كنت لأضع قدمي في هذا البيت.

لم يمس الشاي قال:

ـ إن السيد إمام مسجد أسدي ، وهو يصعد المنبر أيضاً ، منعوه من الإمامة وصعود المنابر .

ـ من منعه؟

ـ أنت تعرف خيراً .

ـ ماذا فعل؟

ـ في ذلك اليوم عندما أخذوه ، أنا كنت هناك . كان يقول على المنبر: يا ملة المسلمين ، كل هذا الدم الذي أريق في طريق الحق ، لم يذهب هدراً ، إنه يغلي في قلبي وقلوبكم . طبيعي أن نص عبارته ليس في بالي . كان يقول: لا تقولوا لي لماذا أقول: يسقط ، يعيش . القرآن الكريم علّمني . إذن فإنني أقول سلام على إبراهيم ، الذي كان عمله البناء ، وأقول تب أبو لهب فقد كان منافقاً وغدّاراً . طبيعي أنه كان يقرأ آيات بالعربي ويفسرها وماذا يفعل الناس . . . يرسل اللعنات على أبي لهب وأمثاله في هذه الدنيا . كان يقول علناً: يسقط . طيب ، أنزلوا عمامته إلى عنقه و . .

قطع العقيد كلام الحاج وسأل:

ـ من أين يأتي بمكاسبه الآن؟

ـ الناس لم يتركوه .

ـ طيب ، الذي أفهمه أنه جلس مقابل الجامع يستجدي .

ـ لا ، يا سيدي العزيز ، إن بيته بيت أمل الناس ، يذهبون إلى باب بيته . لقد جلس هنا عناداً لهم ، يقول: متراسي هنا .

ـ أعنده امرأة وأطفال أيضاً؟

ـ عنده امرأة وثلاثة أطفال .

ـ الإنسـان الذي عنده امرأة وأطـفال لماذا يورط نفسه في مثل وجع الدماغ هذا؟

ـ الناس يراقبون زوجته وأطفاله أيضاً .

ـ لماذا يفعل الإنسـان شيئاً يضطر معه زوجتــه وأطفالــه أن يأكلوا خبز الكدية؟

ـ إن زوجته امرأة لبوءة ، في اليوم التالي لأسر السيد ذهبت إلى بيتهم ، رأيتها وضعت أمامها تلاً من الملابس القذرة ، كانت ملابس أهل المحلة والجيران ، عدت مسرعاً إلى البيت ، أرسلت كلتا الزوجتين إلى بيت السيد .

فسأل العقيد:

ـ هل الزوجتـان متحـدتان أو غير متحـدتين؟ أنا الذي عنـدي واحدة واويلاه .

فقال الحاج علي:

ـ إن عيالكم ـ وأنا أنظر إليها بعين الأخوة ـ كلها جواهر . كم تراعي أحوال الناس ، تهتم بعوائل السجناء . .

فأمرَّ العقيد على شاربه يداً:

ـ كان حسناً ما قلت . .

ـ الخلاصة: كانت النساء قد غسلن الملابس حتى المغرب ، ونظفن الغرف ، ومسحن الزجاج ، وهن يحدِّثن أن الناس جاؤوا بعد الظهر . جلب واحد أرزاً ، والآخر سمناً ، قرعاً ، قنداً ، شاياً ، حبوباً ، حاوية خبز ، حاوية لحم ، قالوا إن أحد المريدين جلب جوال باذنجان ، وأن سيدة موظفة جلبت زجاجة أقراص أعصاب . .

ـ ماذا فعل بكل ذلك الباذنجان؟

ـ إن زوجة السيد عادلة أيضاً. أخذت بمقدار مصرفهم، ووزعت الباقي بين العوائل المعدمة.

لم يكن كيوان قد قال شيئاً بعد. كانت المعلمة قد أصدرت أمراً بأن يكتب ثلاث صفحات «الآدمي آدمي»، ولم يكن كيوان قد كتبها حتى الليل. جلس الآن جنب المدفأة وكتب، ثم انشغل بتنظيف بندقيته. ولكي يُخرِج العقيد غصة الطائر من قلب الطفل فقد أخذه قبيل الظهر إلى رأس جسر تجريش. اشترى له قفازاً صوفياً ومظلة. ثم أخذه إلى معرض لبيع اللُعب واشترى لكيوان، بناء على إصراره، بندقية خرادق مشترطاً عليه ألا يصوب على أُذني قطته، وعلمه كيف يلمِّع البندقية وأين يضع الخرادق وكيف يصوّب. كانت قطة كيوان نائمة قريباً من المدفأة وقد أغلقت عينيها. وضع كيوان البندقية جانباً وسأل:

ـ يا حاج علي، هذا السيد أعنده أطفال في سني؟

فقال الحاج علي:

ـ إن ابنه الأكبر في سنك، أيها السيد الغلام.

سأل كيوان:

ـ في الصف الأول؟ إلى أية مدرسة يذهب؟

فقال الحاج علي:

ـ إلى المدرسة الإسلامية، أيها السيد الغلام، إن أطفالنا جميعاً يذهبون إلى المدرسة الإسلامية.

فقال كيوان:

ـ اسمي كيوان، أنت لا تنفك تقول: أيها السيد الغلام.

جاءت منصورة خانم إلى غرفة الجلوس وقالت:

ـ أوا، يا سيد حاج علي، لقد جمد شايك . .

فقال الحاج علي:

ـ يا سيدة، وحق الحجر الأسود الذي قبّلته، بحق الجيرة، لن آكل خبزكم وملحكم بعد اليوم ما لم يأتِ حضرة العقيد فيعتذر للسيد.

أقامت منصورة خانم القطة عن جنب المدفأة وجلست هي في محلها وقالت:

ـ أولاً ليس في الشاي ملح.

وتأملت قليلاً ثم قالت:

ـ أي عمل سوء فعله مرة أخرى؟ منذ أن تقاعد يقفز على الجميع كديك المقاتلة.

قال العقيد بفظاظة:

ـ اذهبي أنت فحلّي جدول كلماتك المتقاطعة، حمّري باذنجانك، لا تتدخلي في المعقولات.

قالت منصورة خانم:

ـ لم يجلب الجريدة بعد، قتلنا بطريقته هذه في جلب الجريدة، يجلبها يوماً ولا يجلبها يوماً.

نهض الحاج علي وارتدى جاكتته وزرّ أزرار الجاكتة. ونهض العقيد أيضاً، وضع يده في جيبه وأخرج رزمة أوراق مالية.

سأل الحاج علي:

ـ يا حضرة العقيد متى تأتي فنذهب معاً؟

فقال العقيد:

ـ أفتريد أن يقطعوا راتبنا التقاعدي البالغ بضعة فلوس؟

* * *

مضت ثلاثة أيام حتى ظفر العقيد بالسيد آوخ، بستاني البلدية، في محل ألبان سليماني. كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً. أوضح العقيد بتظاهر وأبهة أن: تتعرف المكان الآن كي تبدأ العمل غداً منذ الساعة السادسة. كان مرورهم من شارع أسدي حتى وصلوا باب المسجد. كان الرجل الذي يضع على كتفيه عباءة جالساً أيضاً في مكانه ما قبل ثلاثة أيام. حيا السيد آوخ وانحنى وقبل يد الرجل. لم يستطع العقيد أن يمنع نفسه فحيا ولكن الرجل لم يرد عليه بل نظر إليه وقال شيئاً بالعربية سمع العقيد منه كلمة خائنين فقط وفهمها. خرج الحاج علي مسرعاً من دكانه. قال:

ـ أيها السيد، جاء حضرة العقيد للاعتذار، أفلم تقل أنت نفسك على المنبر إن التوبة موجودة في الدين؟

كان العقيد يأكل نفسه، كان يهوى أن يمسكهم، ثلاثتهم، فيضربهم. ولكن أين هي قوة الشباب؟ صاح برأس الحاج علي:

ـ أيها الرجل المضبوط، متى ذكرتُ خبر الاعتذار؟

فقال الحاج علي، مثل شخص يستهزئ بطفل:

ـ قبِّل يد السيد، يا جناب العقيد.

فقال العقيد:

ـ إنني لا أقبّل حتى يد أبي أو جدي، فما بالك بهذا الملا المقمّل؟

وأمسك كي لا يقول المزيد. فقد كانوا ثلاثة نفر وهو شخص واحد، لو أنهم اجتمعوا عليه. . كان الرجل ذو العباءة هزيلاً، ولكن الحاج علي والسيد آوخ يبدوان قويين. عندما لا تكون القوات متساوية ينبغي التراجع أو التوسل بحيلة حربية. لحسن الحظ استدار الحاج علي ومضى إلى دكانه، وعاد السيد آوخ أيضاً من الطريق الذي جاء منه. مرة أخرى أفلت الرجل ذو العباءة آية عربية من فمه.

ذهب إلى البيت، جلس مثل برج من سم أفعى في غرفة الجلوس. إيه ما شاء الله. . ملا آيل للموت لا يرد على سلام المرء ثم يشتم المرء بالعربي ولا يفهم المرء أيضاً ماذا قال؟ وماذا سمع هو؟ لو لم يكن متقاعداً، لكان يعرف ما البلاء الذي يوقعه على رأسه. خائنين؟ أنا خائن؟ أنا الذي خدمت الدولة ثلاثين سنة؟ طبيعي أنني - على سبيل المثال - لم أطر ولا مرة، مع أنني كنت ضابطاً في القوة الجوية. ولكن، أفليس العمل الإداري عملاً؟ منذ الصباح الباكر حتى المغرب يضطر المرء إلى التأقلم مع السيئ والحسن، وإضافة إلى ذلك يراوح لخمس عشرة سنة في درجة العقيد ويبقى ينتظر ما إذا كان سينال هذه السنة ترفيعاً فيصير عميداً أم السنة القادمة. ها هو كل سنة يدرس: التكتيك العسكري، رسم الخطط، الاستراتيجية العالمية. . وبعد التقدم في السن يدرس الإنكليزية، ويقدم كل سنة امتحاناً وأخيراً أيضاً لا يمنحون الإنسان الدرجة ويحيلونه على التقاعد، في حين أن ما دون الإنسان السابقين يصيرون جميعاً عمداء وألوية، ويضطر الإنسان أن يرفع لهم يده. كل هذه الغصة في قلب الإنسان، وفوق هذا يقولون للإنسان: خائنين. سأريه، كيف بأن أرسل عليه بضعة جنود بملابس مدنية بأيديهم الهراوى فيضربونه بقدر أقصى ما يتحمل؟ ولكنني متقاعد. أستطيع أن أتلفن رئيس العرفاء عيوض زاده وأقول له أن يرتب هذا الأمر. أصلاً، لماذا جاء هذا الرجل فجلس هنا، ساداً المعبر؟ قال: لا أخلي متراسي. أي متراس؟ المتراس يخص زمن الحرب، ويصنعه الجنود، من أجل الاستتار.

خلع حذاءيه ورماهما نحو باب الغرفة وصاح:

ـ هَيْ هات نعليّ.

رفع الورق عن الراديو وأخذ فألاً كيفما اتفق، لكنه لم يهدأ. راح يسبّح، وكان ذلك أيضاً بلا فائدة. كم أكل لوزاً محمّراً، علكة، وسكاكر. ذهب إلى الخزانة، أخرج علبة سجائر ونستون ذات أربعة خطوط. عندما كان يفتح العلبة، كانت يداه ترتجفان. ثم لم يكن عنده كبريت. صاح:

ـ أفلا يوجد كبريت في هذا البيت؟

لم تجبه منصورة خانم. لابد أنها كانت تصلي صلاة ظهرها، وبعدها الصحيفة السجادية ثم صلاة العصر. ذهب بالجوراب إلى المطبخ وفتش عن الكبريت وجلبه. أتلف ثلاثة عيدان كبريت حتى تمكن أن يؤرث سيجارته.

دخلت منصورة خانم، سألت:

ـ ما أمرك؟

وقع بصرها على حلقات دخان السيجارة. قالت:

ـ أواه، ليحثوا تراب العالم على رأسي، ها أنت تدخن ثانية. أفلم تكن أنت من أقسمت قائلاً: أكفن كيوان لو وضعت السيجارة في فمي؟

قال العقيد:

ـ لا تدوسي على فؤادي يا امرأة. لقد سلمت على رجيل ملا مقابل مسجد أسدي فلم يرد سلامي. في ذلك اليوم، عندما مات طائر كيوان، هزأني أنا وكيوان. اليوم شتمني بالعربي. لماذا يشتم بلغة لا أفهمها؟

وصرخ:

ـ رجيل تافه آيل للموت مقمل.

قالت منصورة خانم:

ـ عسى ألا يكون السيد الشيخ عبد الله إمام صلاة المسجد، كان في السجن زمناً، وقد منعوه الآن من المنبر والمسجد..

ـ هو هو نفسه. أفتعرفينه؟ لأصنعن سيداً يخرج من ضلعه مئة سيد.

وضعت منصورة خانم يداً على ركبتها وجلست جنب العقيد، وقالت:

ـ طيب، طيب. لا تتظاهر بالشطارة يا عزيزي ـ أعرفه؟ كنت أصلي وراءه. عندما كان في السجن كنت أمر بزوجته وأطفاله..

ـ هنيئاً لي، يا عجوز، أنت أيضاً...

ـ لقد قلت لك إنني أساعد عوائل السجناء..

ـ قلت، ولكن لا مثل هؤلاء الناس القلّب.

ـ أنت الإنسان القلّب، ولكن اعلم أنني لم أهب فلساً من مالك لأحد، إن مالك أغلبه مال ظلم، يا عزيزي.

فصاح حضرة العقيد:

ـ الآن إذ تقاعدت، أنت أيضاً طال لسانك؟ أضربك فأصيبك بعاهة، ها!

قالت منصورة خانم:

ـ تفرغ غيظك على رأسي، ولكنني الآن لا أتناقش. فأنا لست عدوتك. مشّينا أمورنا ثلاثين سنة بالشر والخير. إن لم يرد السيد سلامك، فلا تحمل هماً. سلّم مرة ثانية، ثالثة، عاشرة. إن أمثالك هم الذين أوقعوا على رأسه تلك البلاوي.

قال العقيد:

- يا امرأة، هذا الرجل مخاصم للحكومة، وأنا آكل خبز الحكومة. أفأروح أقبل يده؟ أسلم عليه مرة أخرى؟ مائة سنة. إلا إن كان يحلم بذلك..

قالت منصورة خانم:

- تفعل، إنك لست سيئاً في قلبك.. اعلم أن السيد يوزع كل مال الخمس والزكاة وحصة الإمام بين العوائل المعدمة، فيما تعيش زوجته وأطفاله على سجادة خشنة.

- لماذا صغّر نفسه؟ ها؟ لماذا جلس في لسع البرد هذا مقابل المسجد؟ وهل الأماكن قحط؟ فلينكبّ يقعد في بيته.

قالت منصورة خانم:

- لابد أن عنده تحمّل ذلك. فؤاده مطمئن إلى أن الحق معه. هو مؤمن.

فجأة هدأ العقيد. نظر إلى زوجته واحترق فؤاده على زوجته. ابيضّ شعر زوجته. تخطط حول عينيها وشفتيها كثيراً بحيث لم يعد ممكناً عد الخطوط. حتى على خديها ظهرت خطوط. النقرة التي كانت ذات يوم تنحفر على خدها الأيسر عند الضحك يوجد الآن خط عميق. سمنت. تورمت ركبتاها. انتفخت أصابع يدها. لقد عاشت هذه المرأة ثلاثين سنة معه. كانت قد جاءت له بثلاثة أولاد وبنت كل منهم الآن مشرد في مدينة أو ديار. يكتبون للأم رسائل، فتضع هي نظارتها وتجلس لتقرأ الرسائل.. عدة مرات، كانوا يرسلون سلامهم للأب.. لقد وضعت هذه المرأة رأسها مع رأسه ثلاثين عاماً على وسادة واحدة، دللته، ومرّضته بمحبة، بملاطفة، بحرص، كانت تراقب أكله وشربه.. نعم، كانت قالت له إنها تساعد عوائل السجناء، ولكنها لم تقل أي نوع من السجناء وكان ذلك تقصير العقيد نفسه لكثرة ما كان عندما يعود من العمل وقت الغروب

متعباً وينهض صباحاً في الساعة السادسة. من أجل ماذا؟ لمن؟ كي لا يرد أمثال رجل الدين ذاك على سلامه، كي تقول زوجتــه إن أمثالك هم من أوقعوا تلك البلاوي على رأس الســيد. إي والله، مع أنه كان قد تعــوّد على لســان امرأته المر..

كان العقيد يتناول عشاءه ويجلس أمام التلفزيون ويغلبه النوم هناك. كانت زوجته تضع بهدوء يدها على كتفه وتقول: قم يا روحي يا عزيزي، اذهب نم في فراشك، يصيبك البرد هنا. تسند زوجها من تحت إبطه، وعندما ينام تسحب اللحاف فوقه وتقول: إن كنت تريد أفرك ساقك.

كانت المرأة تستيقظ دائماً في الأصباح قبله من النوم، تصلي ولا تدع العقيد يخرج من البيت من دون أن يتناول فطوره. بيدها تعصر له الفاكهة. عندما تنظر إلى العقيد تتضاحك عيناها. طبيعي أنه كان بينهما جدال وأن المرأة عندها خزين جيد من الكلمات القاسية، ولكن المرأة كانت دائماً هي من تبادر وتتصالح وتقول: كم مرة يعطون الإنسان عمراً؟ كما أن العقيد لم يكن أيضاً بالزوج السيئ. أفلم تقل المرأة قبل لحظات فقط: إنك لست بالرجل السيئ قلباً؟ لم يكن ليدع زوجته وأطفاله يحملون هماً. مصيفهم مضمون: عند ساحل البحر في وقته.. عند أول الشهر يأخذ زوجته إلى حوانيت الجيش ويشتري بدفتر الأغذية ذخيرة ثلاثة أشهر. يقوم بجلب المشتريات إلى السيارة بنفسه...

عندما كان شاباً، كان أصدقاؤه قد أطلقوا عليه اسم قاتل الفتيات، عندما كان يرى نفسه في المرآة كان يبرم شاربه، ولكثرة ما كان لباس القوة الجوية يناسبه وكانت زوجته تحرق له السذاب بمناسبة وبغير مناسبة كان يجعل عينيه مخمورتين ويسمرهما على زوجته، كانت الزوجة تقول: أنف ضخم، نعم: كان أنفه طويلاً قليلاً، ولكن ذلك الوجه الأسبل ذا الزاوية، تينك العينين الواسعتين السوداوين، الشاربين الرفيعين، رشيق خفيف..

عندما كان يركب سيارة الجيب وقبيل أن تنطلق به كانت سودابه خانم،

امرأة الجيران، تخرج من البيت بدلال وزينة تامة، ترجو أن يوصلها بطريقه إلى المصرف أو إلى باب مستوصف تأمين العمال. كانت تجعل شفتيها كالبرعم، تزيح شعرها عن جبينها وتقول: هنا. أما فاطمة فحدث ولا حرج. أينما ذهب العقيد، كانت تتبع أمامه، تحيي، كما لو كانت تصور نفسها من رأسها إلى قدميها بعدسة عينيها، وبسرعة رمشة العين صار ثلاثتهم عجائز: هو نفسه وامرأته وفاطمة. الآن لندع سودابه خانم وفاطمة جانباً، فحتى پروانه، البنت المرتبة الظريفة للسيد مسروري كانت قد قالت علناً لمنصورة خانم، يهوى قلبي أن يحصل على زوج مثل حضرة العقيد بالضبط. فبعد كل شيء: بقي خمس عشرة سنة في درجة عقيد.

ولكن زوجته منصورة خانم كانت تلبس الشادر وحتى لا تتزوق، وفي هذه الأواخر لم تكن حتى تحف تحت حاجبيها. كانت تغسل وجهها نظيفاً. فقط. وكانت تعتبر صبغ الأظفار، كما هو واضح، حراماً. لا ترافق العقيد إلى أية دعوة. في البداية ذهبت مع زوجها مرة أو مرتين إلى ولائم، ولكن ما أن مُدَّ بساط ورق اللعب حتى فتحت كتاب «تاريخ التصوف في الإسلام» للدكتور قاسم غني وبدأت تقرأ. كان الضيوف يقشرون اللب، يدخنون السجاير ويهزأون من منصورة خانم. وكان المشروب يهرق مجاناً. وفي مرة أخرى عندما كانت منصورة خانم جلبت ذات ليلة حياكتها. . استهزأ الضيوف بها فانزعجت منصورة خانم كثيراً، نهضت وقالت: أنا التي يجب أن أسخر منكم لا أفعل، حتى لا تسجّل آثامكم عليّ، وأشكر الله على أنكم لا تُمددون معي في قبر واحد. كان عليّ أن أقول، وقد قلت. وانطلقت. . أركبها العقيد في وسط الطريق لكنهما لم يتكلما بكلمة واحدة.

كان قصد العقيد أن يدخن في الأقل ثلاث سجاير أو أربعاً متتالية، إلا أنه صرف النظر فجأة وأطفأ السيجارة، التي كانت في يده وبقي نصفها الأكبر، في المنفضة.

قالت منصورة خانم: «عنك يقولون آدمي مضبوط. لقد رأيت كم صارت حالك جيدة عندما تركت التدخين؟ لو أنك تتوب في أواخر العمر فلا تذوق المشروب ولا تلعب القمار، فإنك ستعيش مائة سنة».

فقال العقيد: «وهل يسمون هذه حياة؟».

تناول يد زوجته. كانت عروق يد زوجته قد برزت ونقط سود وبنية على ظاهر كف زوجته انتشرت، وكانت هاتان اليدان ذات يوم مثل عود زهرة مسك الروم.

قالت منصورة خانم: «صلِّ، اقرأ القرآن، لا تدري أي عالم فيه، يجدد روح الإنسان».

لم يقل العقيد شيئاً. قالت منصورة خانم: مرجع تقليدي...

ضحك العقيد، وتذكر ليلة عرسهما الأولى. سلم أبو منصورة يدها بيده وقرأ حشداً من الأدعية والقرآن ثم نصحهما ومرة أخرى دعا لهما وفي الآخر جلب مظروفاً كبيراً ووضعه على وسادتهما. كان سند بيت كامل في رأس (آب سردار) وهبه لابنته. أقاما في ذلك البيت طويلاً. كان بيتاً ميموناً، وقد تمكن العقيد أن يبني بيته الحالي في زقاق (پروين)، وهي واحدة من أزقة شارع (أسدي) الفرعية وأجّرا بيت منصورة خانم إلى حاجٍ ما من البازار. كان العقيد مديناً ببيته الحالي لكون امرأته سيدة حقاً ولاقتصادها، وإلا فقد كان هو إنساناً مقامراً وكان أسفل جيبه مثقوباً دائماً.

عندما ذهب الجميع، دخلت حجرة البيت، أخذ العقيد قاتل البنات تلك الأيام يد عروسه وقبلها، كانت يداً لينة رقيقة مثل زهرة. قال: طيب احكي لي لأر يا سيدة السيدات. فخفضت منصورة خانم رأسها إلى أسفل وسألت: من مرجع تقليدك؟ بمن تقتدي؟ كان صوتها رقيقاً ولكن مرتجفاً. فضحك العقيد، وقال: إيه بابا، بارك الله فيك، هات الآن بوسة لنر. اعط عمك بوسة.

ضمت منصورة خانم شفتيها، وسمرت عينيها المتألمتين عليه، كانت عيناها تبدوان محمومتين.

أفاق العقيد من الذكريات فنهض، تناول علبة السجاير، وضعها في الخزانة وأقفل بابها. قالت منصورة خانم:

ـ أتريد أن أعطيك الرسالة(٩) فتقرأها؟ عندي أكثر كتب الدكتور شريعتي، ولقد استنسخت بعضها بنفسي. آية الله طالقاني. . .

ـ لماذا؟

ـ لماذا ماذا؟

ـ لماذا استنسختيها بنفسك؟

ـ لأن كتب عبد الله هذا ممنوعة. إن امتلاك كل واحد منها عليه ستة أشهر سجن. تنهدت منصورة خانم وواصلت: هو أيضاً في السجن. الطالقاني في السجن أيضاً. أتمنى كثيراً لو كانت عندي إجازة لكنت أذهب إلى السجن لرؤيتهم.

ـ تذهبين إلى السجن ترينهم كي يصير ماذا؟

ـ أذهب فأقول سلاماً يا سادتي. .

فكر العقيد وقال: تعرفين أنني أنزعج من النجاسة والطهارة، من التحليل والتحريم، من لا تفعل وافعل وأمثال هذه الأمور.

ـ هذه تفاصيل. الأصل هو العدالة.

فقال العقيد:

ـ ليكن، سأصلي، شريطة أن تدعيني آخذ أربع نساء وأتصيغ تسعاً وتسعين واحدة.

ـ قلت إن الأصل هو العدالة، بمجرد أن تأتي بضرة عليّ، يكون ذلك الخطوة الأولى لتحطيم فؤادي وإيقاع الظلم بي.

* * *

أخلت الغيوم المجال صباحاً ومنحت شمساً باهتة فرصة أن تشع. كانت بضعة طيور مهاجرة متبقية توقّع السماء وتعبر. قالت منصورة خانم:

ـ لم نصر بعد مسنين إلى ذلك الحد الذي لا نعود معه قادرين على العمل. ننقل نحن أنفسنا الزهور إلى بيت الزهور الزجاجي.

لم يكن ثمة مفر، كان السيد آوخ قد تكبّر وقال لفاطمة: لا آتي، أهو زور؟ وإضافة إلى ذلك فقد كانت فاطمة أيضاً تقول: يؤلمني مؤخر كتفي، ولكنني أجيء كي لا تقولا إنني ناكرة جميل.

كانت أجفان فاطمة قد انتفخت، وعينها اليمنى تخفق دائماً من دون أن تريد. لم يعد ثمة أثر للتصوير بعدسة العين والبسمات التي تركض إلى الشفتين من دون أن تنفتح الشفتان ابتساماً. كانت نظرة فاطمة تقول: انتهى كل شيء، انقضى. كان نـــصف شعرها قد صار أبيض وبقي النصف الآخر أصفر كدراً وقد تجعّـــد الشـــعر كله. كما لو أن رأســـها كان انتفخ، من قدر ما يبدو رأسها كبيراً.

أخرج العقيد أولاً بصيلات أزهار الأضاليا والزنبق من تحت تراب الحديقة ودفنها تحت رمل زاوية غرفة الزهور الزجاجية، كي يزرعها في أوائل آذار إن بقوا أحياء. كانوا يرفعون أصص إبرة الراعي من حاشية الجنائن ويصفّونها في الهواء المكشوف وسط الحديقة. كان كيوان يعطي الأصص الأصغر بيد منصورة خانم فتقطع هي الورق المصفر والمصاب بالبرد وتملأ الأصص تراباً جديداً وتعطيها فاطمة بيد العقيد كي يضعها على درجات غرفة الزهور. كان تغيير أماكن أحواض

رعي الحمام والليلك يحتاج إلى قوة شباب لم يكن أي منهم يمتلكها. سحبوها سحباً إلى باب غرفة الزهور وكان العقيد يقول: يا علي، ويرفعها واحدة واحدة فجأة بضربة واحدة ويصفها على أرضية غرفة الزهور في صف منسق. كان عندهم بضع نيلوفرات مائية وضعوها في غرفة الاستقبال وغرفة المعيشة والممشى وكانت فاطمة تدهن قطنة في زيت الزيتون وتمسحها على أوراقها الكبيرة كي تصير براقة. لم يكن في غرفة الزهور مكان للصبار والسرخس. وضعوها على تراب الأصص الأكبر التزيينية وفي زوايا تشبه غرفة الزهور تنفتح أبوابها على غرفة الاستقبال. كانت الخضرة والتراب قد صفت باستواء وبالترتيب في كل مكان هو مكان، بحيث يمكن رفع اليد إلى أعلى واستعراضها.

لم تستطع منصورة خانم من وجع اليدين، والعقيد من وجع الظهر، أن يناما ليلاً. في نصف الليل نهضت منصورة خانم، فأعطت قرص أسبرين - وكانت ابنتها قد أرسلته من ألمانيا - للعقيد وتناولت هي أيضاً واحداً. ثم دفّأت لصيقة يابانية علامة الفتاة فألصقتها على ظهر العقيد، وقال العقيد: ليت الفتاة نفسها كانت هنا لا تصويرها على لفافة لصيقة. جاءت فاطمة صباحاً، كانت رقبتها قد تيبست ولا تتحرك قط، لا إلى يمين ولا إلى يسار. كانت منصورة خانم قد لفّت معصمها بشريط مطاط. مسحت رقبة فاطمة بمرهم الـ(فيكس) ودلكتها وقالت: أديري عنقك الآن. قالت فاطمة: لا يصير يا سيدتي العزيزة. وقال العقيد: هذا العنق لن يصير عنقاً من جديد، بيعيه لبائع الكاسات والصحون. وكانت تريد الآن حنفية كي يسقي أحدهم أصص الأمس في غرفة الزهور الأصلية وفي شبه غرفة الزهور المطلة على غرفة الاستقبال. قال العقيد: أنا أسقيها وسقاها ولم يحدث شيء. قالت منصورة خانم:

- عساني لا أصيبك بالعين، ما شاء الله هيكل بدنك سالم، كل ما هنالك أن أنفك الضخم اقترب من حنكك، صرت شبيهاً بالجدة ببغاء.

كانت منصورة خانم قد وضعت مواد حساء الرشتة ليلة الجمعة على

النار. في الساعة الحادية عشرة من صباح الجمعة صار الحساء جاهزاً، ويا له من حساء! ملأت طاساً كبيراً بالحساء وزينته بالنعناع المقليْ والثوم المقلي والبصل المقلي واللحم المفروم والزعفران. قالت للعقيد: خذنا بسيارتك إلى باب بيت السيد. ركب كيوان أيضاً. كانت السيارة كبيرة والأزقة وفروعها ضيقة وملأى طيناً ووحلاً وذات مرة انحشرت واقية السيارة بعمود نور الكهرباء جنب جدار الزقاق، ولكن العقيد لم ينقّ. ذهب كيوان ومنصورة خانم، والحساء في اليد، إلى الداخل وجلس العقيد وراء المقود. كان الزقاق مملوءاً طيناً وأرض متروكة مملوءة طيناً ووحلاً تمتد أمامه. كان قطيع من الأطفال الصغار والكبار قد رفعوا شبكة ممزقة وأخذوا يلعبون الكرة الطائرة. كان بيت السيد قديم البناء وثمة صفتان أحاطتا بباب البيت وفوق الباب قطعة قيشاني خضراء كتب عليها شيء بالعربية. أخرج العقيد نظارته من جيبه وترجل من السيارة، وضع النظارة وقرأ الآية على القيشاني: «نصر من الله وفتح قريب». كان الجو بارداً. ذهب فجلس في السيارة. كانا قد تأخرا فقلق من أن تكون زوجة السيد أهانت زوجته وهي الآن تلتمس وتتوسل وتصغّر نفسها. بوّق، فلم يحصل شيء. شغّل راديو السيارة. كان صوت رجل يرتفع بالغناء قد استنفد صبره. فكر: كم هو وقح إذ يغني بصوت مثل هذا.

ظهرا. لم يكن الطاس بيديهما، وتنهد العقيد الصعداء. جلس كيوان جنبه. قال:

ـ يا جدي. أرسلني أنا أيضاً إلى المدرسة الإسلامية. لعبت مع محسن ابن السيد. يقول إنهم يقولون لنا دائماً يجب أن يكون والداكم راضين عنكم. والدان يعني إيش؟

قال العقيد بنفاد صبر:

ـ يعني الأب والأم، أنت ذهبت أمك إلى ألمانيا تدرس تصفيف الشعر وأبوك من جانبه أخذ امرأة. . لا والدين عندك.

قالت منصورة خانم:

ـ لا تكلم الطفل هكذا.

واستمرت وهي تتجه إلى كيوان:

ـ يا كيوان، الآن نحن والداك.

قال كيوان:

ـ طيب ضعاني في المدرسة الإسلامية كي ترضيا عني.

* * *

ثلج. ثلج. ثلج. غطى الثلج كل مكان وبيّض الله وجه كل موجود. كان للأشجار، للسقوف الجمالونية، لهوائيات التلفزيون، لحبال الغسيل، لوجوه الأحواض، للجنائن، للبلاط السمنتي لأرضية الباحة، جميعاً، غطاء من الثلج هو رقيق حيناً وفي أحيان أخرى سميك ولا يتحرك. كما لو كانت كل الموجودات الجالسة والواقفة والنائمة لا تتنفس، وهي تنتظر. صار دنيا بيت العقيد قطة هائلة كمنت كي تصطاد فأراً.

كان كيوان قد أصيب ببرد. كانت منصورة خانم قد صبت في ظرف ماء على المدفأة ورد بابونج. كان بخار البابونج في الغرفة الدافئة ينشر أمل الهدوء. جلس العقيد عند رأس كيوان وتناول بيده يد الغلام. كانت يد الطفل ساخنة. قال العقيد: «ولدي العزيز كيوان، ستصير على مايرام، عندما يدفأ الجو سأشتري لك زوج طيور: فحل وأنثى. ولن أقص جناحيهما».

قال كيوان: «يا جدي، كنت قلت لك لا تقص جناح الطير لأنه يتألم».

دخلت منصورة خانم وقالت: «يا عزيزي حبيبي، قم شغّل سيارتك،

اذهب إلى رأس جسر تجريش، اشتر للطفل لفتاً وخضار الحساء وليموناً حلواً».

- أين أتوقف يا امرأة؟

- طيب، البس جزمتك، رح ماشياً.

قال كيوان:

- يا جدي، أنا لا أحب حساء اللفت.

لم يحصل العقيد على ليمون حلو، لكنه اشترى لفتاً وخضار حساء.

كانت السيارة تنزلق فوق الثلج وتتزحلق وتمضي متعرجة ومستقيمة.

كان العقيد يفكر: إن إطاراتها ضد الثلج، فما علتها بعد؟!

استدار إلى شارع أسدي فالتفّت السيارة نصف دورة. قبل أن يصل دار السقاية رأى عباءة السيد ملقاة فوق الثلج، منقل ناره مقلوباً، استحال الجمر فحماً، وأعلى من ذلك رأى طاقية ليل السيد وفوق ذلك حرباً ودعوى. فيما هو يمضي، وقف في مكانه. كان تكدس الثلوج قد جعل أي نوع من التوقف على جانبي الزقاق ممنوعاً. ترجل من السيارة. كان حذاءاه يغوصان في الثلج. كان رجلان قد أخذا السيد من طرفيه ويأخذانه سحباً. كان الحاج علي والسيد آوخ يجاهدان كي يستخلصا السيد من أيدي الرجلين. كان الرجلان يلبسان ملابس اعتيادية لكنهما يبدوان قويين سريعين، ولم يكن العقيد طفلاً حتى لا يفهم أنهما يربطان أسلحة تحت ملابسهما. كان الرجلان يضربان السيد مرة، والحاج علي والسيد آوخ مرة. وقد وصل بضعة رجال وطفلان من الأزقة الفرعية أيضاً. اقترب العقيد منتصب القامة نشيطاً وصاح: انتظرا، توقفا، أنا العقيد آرياني فر. توقف الجميع ولكن الرجلين لم يتركا السيد. تقدم العقيد

وواجه الرجلين: ما هذا البساط الذي أقمتماه؟ ما شأنكما بالسيد؟ وفجأة أفلت من فمه: ألستما مسلمين؟

قال الرجل الذي يمسك بيد السيد اليمنى بإحكام: أنذرته مئة مرة ألا يجلس قبالة المسجد، لا يدخل الكلام أذنه.

فانتهره العقيد: أفالجلوس قبالة المسجد جريمة؟

فقال الرجل إياه: مخالف للنظام العام، السيد الدكتور[١٠] قال.

فقال العقيد: قولا للسيد الدكتور عن لساني، إن العقيد آرياني فر أبلغ تحياته وقال: إن الزقاق معبر عام. كل من يريد يمكنه أن يجلس في الزقاق.

وفجأة ندم وركبه الخوف، وقال لنفسه: أيها الآدمي المضبوط، إلى أين تُساق؟ ثم ابتلع ريقه وقال: قولا، قال حضرة العقيد إنني سأتلفن شخصياً... كانت عيون الحاج علي والسيد آوخ تنطقان شكراً ورقة، وعينا السيد حيرى.

كان ينبغي أن يجازف. ليكن ما يكون. كم سنة بقيت من عمره؟ من عمره وعمر امرأته. وامرأته التي تريد من الله. أفلم تقل مراراً إن المرء يجب أن يكون حسينياً لا يزيدياً؟ لنفرض أنهم قطعوا مرتّب التقاعد. قال بأبوة:

ـ قولا عني، لا تسفعوا الناس إلى هذا الحد فدخان ذلك سيدخل عيونكم.

كان قد حلّق بعيداً، ولكن العجيب أنه لم يكن يستطيع السيطرة على نفسه.

أمسك يد السيد وقال: تفضل، يا سيد، فتعال اركب.

أطلق الرجلان السيد. بقي السيد متردداً، فكان العقيد الآن يجر السيد. وقال بصوت خفيض:

ـ ستصاب بذات الجنب .

ركب السيد. جلب الحاج علي عباءة السيد وألقاها على كتفه ووضع طاقية الليل على رأسه. شغّل العقيد السيارة وأدار مدفأة السيارة. كان الرجلان المسلحان يتكلمان فيما بينهما، اقترب أحدهما من السيارة وسأل: قلت ما اسمك؟

ـ العقيد آرياني فر.

ضغط العقيد على الوقود فانخلعت السيارة عن الثلج. قال للسيد:

ـ نذهب إلى بيتنا، تشرب شاياً ساخناً. السيدة من مريديك.

كان مسروراً منشرحاً. ضحك وقال: اعذرني لأنني أكلت سلامي.

قال السيد: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحواشي

(١) كالعفريت! حاضرة للخدمة.

(٢) ٢٢ تشرين الثاني. أي، عموماً، أواخر الخريف.

(٣) وسيلة التدفئة التقليدية في إيران: مصدر حرارة مغطى، يجلسون ويتمددون وينامون تحت غطائه.

(٤) سرداب تحت البيت أو جزء من البيت، تساق إليه مياه الثلج والمطر.

(٥) منطقة في شمالي طهران، حيث كانت مساكن الأعيان.

(٦) حساء تضاف له الـ«رشته»، وهي معكرونة محلية - وفي الأغلب منزلية - الصنع.

(٧) يستلزم النصب نصب المداخن أيضاً.

(٨) هو الإمام علي بن أبي طالب.

(٩) المقصود هي الرسالة الـ«علمية» التي ينشرها مرجع التقليد كي يستفيد منها مقلدوه وفيها فتاواه بخصوص العبادات والمعاملات.

(١٠) لقب كان يُطلق على كبار المسؤولين في جهاز «الأمن»، لاسيما الجلاوزة!

جلال آل أحمد

ولد جلال آل أحمد سنة ١٩٢٣ لعائلة دينية في طهران. كانت حياته قصيرة ولكنها صاخبة. حتى في سن العشرين درس في النجف العلوم الدينية كي يصير - ولابد - مثل أبيه، شيخاً وفي العودة إلى طهران بعد مدة ينتمي إلى حزب توده، الذي كان حزباً مؤيداً للاتحاد السوفييتي، ولكنه ينفصل بعد بضع سنوات مع عدد آخر عن الحزب ويتحول إلى عدو للفكر اليساري ولحزب توده والاتحاد السوفييتي. وفيما بعد، يتبرأ بكتابته كتابه المعروف «غرب زدكي»[1] من الليبرالية الغربية أيضاً ويعتبر طريق نجاة الشرق في العودة إلى الروحانية الشرقية، وبالنسبة للبلاد الإسلامية الرجوع إلى صدر الإسلام. ويعلن، فيما يتعلق بالمجتمع الإيراني - أننا ينبغي أن نعقد كل آمالنا على مدينة «قم»[2] الدينية. طبيعي أنه إذ توفي سنة ١٩٦٩ لم يساعده الحظ على أن يرى بعينيه تحقق أمانيه الكبرى. بعد الثورة الإسلامية أطلقت الجهات الرسمية في الجمهورية الإسلامية اسمه على طريق خارجي.

كان أول كتبه مجموعة قصصية باسم «ديد وبازديد»[3] أصدرها سنة ١٩٤٥. بعد سنتين أصدر مجموعة قصص «أز رنجي كه مي بريم»[4]، هي محصول المرحلة التي كان فيها الكاتب ينمّي في ذهنه أفكار إنقاذ الطبقة العاملة من ربقة الإمبريالية، ثم صدرت له مجموعتا «سه تار»[5] و«زن زيادي»[6].

تشمل رواياته «سر كذشت كندوها»[7]؛ وهي رواية تعالج بأسلوب الأمثال

أوضاع إيران الاجتماعية في سنوات تأميم النفط، و«مدير مدرسة»[8] التي هي أشهر أعماله، تروي أوضاع الهزيمة بعد انقلاب سنة ١٩٥٣ على مدير مدرسة، و«نون والقلم»؛ التي يتجه فيها الكاتب مرة أخرى إلى ضرب الأمثال من أجل بيان الأوضاع الاجتماعية، و«نفرين زمين»[9]؛ التي تعالج حياة المعلمين في قرية وخلال الإصلاح الزراعي. خيرة أعماله - من حيث القيمة الادبية - هي القصص القصيرة التي كتبها في سنوات عمره الأخيرة وجرى جمعها في مجموعة «پنج داستان»[10].

وكتب آل أحمد مقالة طويلة كالقصة أيضاً بأسلوب «حديث النفس»، باسم «سنكى بركوري»[11] صدرت بعد وفاته. صدور هذا الكتاب ممنوع في الجمهورية الإسلامية ولا يُذكر اسمه قط، في الإعلانات الرسمية - الحكومية، أمام اسمه. توفي سنة ١٩٦٩ بجلطة دماغية. يعزو بعض أنصاره وفاته إلى نظام الشاه، وكانت هذه سُنّة ابتكرها آل أحمد نفسه، فقد كان يسجل وفاة كل شخص معارض على حساب الشاه.

* * *

إن قصته «ابن الآخرين» التي اختيرت من مجموعة «ثلاثي الأوتار» هي الرواية القاسية لأم تترك ابنها - ابن الثلاث السنوات - عديم الأب في الشارع وتعود إلى البيت. تبين هذه القصة على نحو جيد أن الروحانيات والأخلاق هي مجرد كلام لا أكثر في المجتمع الذي تنعدم فيه العدالة والقانون. طبيعي أن آل أحمد غيّر رأيه فيما بعد وذهب - بحثاً عن الروحانيات - إلى مكة، وحتى أنه كتب كتاب رحلة باسم «خسي در ميقات»[12].

الحواشي

(١) الإصابة بمرض الغرب .

(٢) مدينة على مبعدة ١٣٠ كيلومتراً تقريباً جنوبي طهران .

(٣) الزيارة .

(٤)عن العذاب الذي نتحمله .

(٥) ثلاثي الأوتار ـ وهو اسم آلة موسيقية .

(٦) امرأة زائدة أو فائضة .

(٧) تاريخ (أو ماضي) القفائر .

(٨) مدير المدرسة .

(٩) لعنة الأرض .

(١٠) خمس قصص قصيرة .

(١١) صخرة على قبر .

(١٢) قشة في الميقات .

ابن الآخرين

جلال آل أحمد

طيب ، ما كان يمكنني أن أفعل؟ لم يكن زوجي مستعداً أن يحتفظ بي مع الطفل . فالطفل لم يكن طفله . كان طفل زوجي السابق الذي طلّقني ولم يكن مستعداً أيضاً أن يأخذ الطفل . لو كانت واحدة غيري فما كانت ستفعل؟ طيب ، أنا أيضاً يجب أن أعيش . لو أن زوجي هذا طلقني أيضاً ما كانت أفعل؟ كنت سأضطر للتخلص من الطفل على نحو ما . إن امرأة مغمضة العينين مسدودة الأذن مثلي لا يخطر ببالها شيء غير هذا . لم أكن أعرف مكاناً ، ولم أكن أعرف طريقاً أو مخرجاً . ليس أنني لم أكن أعرف مكاناً: كنت أعرف أنه يمكن وضع الطفل في دار حضانة أو في مخروبة أخرى . ولكن من أين لي أن يقبلوا طفلي؟ من أين كان يمكنني أن أتأكد أنهم لن يعطلوني ولن يريقوا ماء وجهي ولن يلصقوا ألف اسم بي وبطفلي؟ من أين؟ لم أكن أريد أن ينتهي الأمر على هذا النحو . وذلك اليوم نفسه أيضاً ، عندما أنهيت كل أعمالي عصراً وعدت إلى البيت وقصصت ما فعلت على أمي والجارات ، لا أدري أيهن قالت: «طيب ، يا امرأة ، كان يمكنك أن تأخذي ابنك فتودعيه في دار حضانة ، أو تأخذيه إلى دار الأيتام . . » ولا أدري أية أمكنة أخرى ذكرت . ولكن في ذلك الوقت إياه قالت لها أمي: «أتظنين أنهم كانوا يفسحون لها الطريق؟ هه!» . مع أنني أنا نفسي كنت أفكر أن أفعل ذلك ، ولكن عندما قالته جارتنا تلك ، مرة أخرى انهار فؤادي

وقلت لنفسي: «طيب يا امرأة، أفذهبت ولم يفسحوا لك الطريق؟». ثم قلت لأمي: «ليتني كنت فعلت ذلك». ولكن لم تكن لدي خبرة. لم أكن متأكدة أنهم سيفسحون لي مجالاً. ثم أنه كان قد فات الوقت. كأن عالماً من الهم انسكب فوق قلبي من كلام تلك المرأة. تذكرت كل كلام الناس المعذِّب، لم أعد أستطيع الاحتمال. بكيت أمام الجميع. لكن كم كان سيئاً! سمعت بنفسي إحداهن تقول: «وتبكي أيضاً! لا تستحي..». مرة أخرى خفّت أمي إلى نجدتي. خفّفت عني كثيراً. طيب، كانت تقول الحق. أنا في أول شبابي، فلماذا أحمل همّاً بهذا الحجم على طفل؟ وعندما لا يقبلني زوجي مع طفلي؟ عندي الآن وقت كثير كي أجلس ولا أفعل غير أن ألد ثلاثة أو أربعة. صحيح أنه كان طفلي الأول وما كان لي أن أفعل ذلك، لكن حسناً، ذاك أمر جرى وانتهى. الآن ليس الوقت وقت تفكير. لم أكن أنطوي على إيذاء، بحيث أقوم أذهب فأفعل ذلك العمل. كان زوجي هو الذي أصر. وكان على حق أيضاً، ما كان يريد أن يرى خَلَف ثوْرٍ آخر على سُفرته. أنا أيضاً عندما أحكّم فكري أعطيه الحق. أكنت أنا نفسي مستعدة لأن أحب أطفال زوجي كأطفالي ولا أعتبرهم عبئاً على حياتي؟ لا أعتبرهم زيادة على سفرة زوجي؟ طيب، هو أيضاً كذلك. هو أيضاً كان له الحق في ألا يستطيع أن يرى طفلي - لا طفلي، وإنما حسب قوله طفل ثور آخر - على سفرته. في ذينك اليومين اللذين كنت أذهب فيهما إلى بيته لم يكن بيننا من حديث غير حديث الطفل. في الليلة الأخيرة تحدثنا كثيراً. يعني ليس أننا تحدثنا كثيراً. تكلم هو مرة أخرى عن الطفل واستمعت أنا. وأخيراً قلت: «طيب، يعني ماذا أصنع؟». لم يقل زوجي شيئاً. فكّر قليلاً ثم قال: «لا أدري ما تصنعين، اصنعي ما تعرفين. أنا لا أريد أن أرى على سفرتي خَلَف ثور آخر». وهو لم يضع أمامي طريقة أو منفذاً. تلك الليلة لم يقترب مني. يعني أنه زعل عليّ. كانت الليلة الثالثة لحياتنا معاً. ولكنه زعل عليّ. كنت أعرف أنه يريد أن يثير غضبي حتى أحلّ قضية الطفل في أسرع وقت. وصباحاً أيضاً، عندما كان يخرج من باب البيت قال: «عندما أجيء ظهراً إلى البيت يجب

ألا أرى الطفل بعد، ها!» فعرفت منذئذ ما يتعين عليّ أن أفعل. ومهما فكرت الآن لا أستطيع أن أفهم كيف رضي قلبي! ولكن ما عاد الأمر بيدي. ألقيت چادري على رأسي وأخذت يد ابني وخرجت من البيت بعد زوجي. كان ابني في حوالي الثالثة من عمره. كان هو نفسه يحسن المشي. كان السيئ في الأمر أنني أنفقت عليه من عمري ثلاث سنوات. كان هذا سيئاً جداً. كانت كل متاعبه قد انتهت. كل صحوات الليل من أجله انتهت. وكان ذلك أول وقت راحته. ولكنني مضطرة أن أصنع ما يتعين عليّ. سرت معه إلى موقف السيارات، وكنت قد ألبسته حذاءه أيضاً. وألبسته ملابسه الجيدة. جاكتة وبنطلوناً أزرقين صغيرين على الموضة، كان زوجي السابق اشتراهما له. عندما كنت ألبسه لباسه خطرت لي هذه الفكرة أيضاً: «يا امرأة، لماذا تُلبسينه ملابسه الجديدة؟»، ولكن فؤادي لم يرض. ما كنت أريد بها؟ العمى لزوجي: إن حبلت مرة أخرى فليذهب يشتر له لباساً. ألبسته ملابسه. مشطت شعره. كان قد صار جميلاً جداً. أمسكت يده وبيدي الأخرى حافظت على چادري حول وسطي ومشيت بطيئاً. لم يعد ضرورياً أن أواصل شتمه كي يتحرك أسرع. كانت تلك آخر مرة أقوده فيها من يده وآخذه إلى الطريق. في مكانين أو ثلاثة أرادني أن أشتري له مصاصة. قلت: «لنركب السيارة أولاً وبعدئذ أشتري لك مصاصة أيضاً». أذكر أنه في ذلك اليوم أيضاً كان يوالي سؤالي، كما في الأيام الأخرى. كان حصان. كان حصان قد غاصت رجله في حفرة بجدول ماء وقد تجمع الناس حوله. أصر كثيراً أن أرفعه كي يرى ما الأمر. رفعته. فرأى الحصان الذي كانت قائمته الأمامية انخدشت وسال منها الدم. عندما وضعته أرضاً قال: «ماما ـ صالت إيده آخ[1]»، فقلت: «نعم يا حبيبي، لم يسمع كلام أمه فصار آخ». كنت أسير ببطء إلى موقف السيارات. كان أول النهار بعد، والسيارات مزدحمة. ولربما بقيت نصف ساعة في الموقف حتى حصلت على سيارة. كان طفلي يسبب الإزعاج. وكان يصيبني التعب. ولكثرة ما كان يسأل أفقدني صبري. قال مرتين أو ثلاثاً: «إذن ما صال[2] يا أمي؟ السيّالة[3] ما

جاءت. نلوح نشتلي[4] مصاصة» ، ومرة أخرى قلت له إن السيارة ستأتي الآن. وقلت إنني سأشتري له المصاصة أيضاً عندما نركب السيارة. أخيراً ركبنا الرقم سبعة وإلى أن نزلنا في ميدان الشاه كان طفلي يوالي الكلام ويوالي السؤال، أذكر مرة أنه سأل: «ماما، أوْن[5] نذهب؟». ولا أدري لماذا قلت له فوراً: «نذهب عند بابا». نظر طفلي قليلاً قليلاً قليلاً إلى وجهي. ثم سأل: «يا أمي، أوَّ[6] بابا؟». كان قد نفد صبري. قلت: «كم تتكلم يا روحي؟ إذا تكلمت ما أشتري لك مصاصة، ها!» كم يحرقني فؤادي الآن! لماذا كسرت قلب طفلي في تلك اللحظات الأخيرة؟ عندما خرجنا من البيت كنت عاهدت نفسي أن لا أصير عصبية حتى انتهاء الأمر. أن لا أضرب طفلي. ألا أشتمه. أن أعامله جيداً. ولكن كم يحرقني الآن فؤادي! لماذا أسكتُّه على هذا النحو؟ لزم طُفيلي بعدئذ الصمت. حتى مع صبي السائق ـ الذي كان يلعِّب له وجهه ويكلمه، لكنني لم أكن أهتم لشأنه ولا كان طفلي، بل كان دائماً يدير وجهه نحوي. وأخيراً اشترك معه في الضحك والكلام. في ميدان الشاه طلبت الوقوف فتوقفت السيارة، وعندما كنت أنزل كان طفلي لايزال يضحك. كان الميدان مزدحماً والحافلات كثيرة. وكنت لاأزال أخاف أن أعمل عملي. مشيت زمناً، ربما كان نصف ساعة حتى قلّت الحافلات. جئت إلى جانب الميدان وأخرجت عشرة شاهيات[7] وأعطيتها لطفلي. تعجب طفلي وصار ينظر إلي. لم يكن قد تعلم بعد أخذ النقود. لم أكن أدري كيف أجعله يفهم. كان في الجانب الآخر من الميدان بائع بزر ينادي، فأشرت له نحوه بأصبعي وقلت: «خذ. اذهب اشتر مصاصة. فلأر أتعرف أن تذهب فتشتري بنفسك؟!». نظر طفلي إلى النقود ثم قال لي: «أماه، تعالي أنت أيضاً نلوح[8]»، فقلت: «لا، أنا واقفة هنا أراقبك. اذهب لأر أتعرف أن تشتري بنفسك». مرة أخرى نظر طفلي إلى النقود. كما لو كان متردداً. ولم يكن يعرف كيف يمكن شراء الأشياء، لم أكن قد علمته شيئاً كهذا بعد. نظر إليّ مرتاباً. يا لها من نظرة! كما لو انقبض فؤادي في تلك الدقيقة إياها وساءت حالي، ساءت حالي كثيراً. أوشكت أن أنصرف عن الأمر. وفيما

بعد، عندما ذهب طفلي وهربت، وحتى الآن، حتى عصر ذلك اليوم عندما بكيت أمام الجيران من ضغط الغصة، لم ينقبض فؤادي ولم تصر حالي على هذا السوء. أوشك صبري على النفاد. يا للنظرة! بقي طفلي حائراً وكما لو كان لايزال يريد أن يسألني شيئاً. لا أدري كيف تماسكت. مرة أخرى أشرت له نحو بائع البزر وقلت: «اذهب يا روحي. أعطه هذه النقود وقل له أعطني بزراً، فقط، رح بارك الله فيك». نظر طفيلي إلى بائع البزر ثم، كما عندما كان يريد أن يتذرع بحجة ما ويبكي، قال: «يا أمي، أنا لا أليد بزل[٩]. أليد زبيب». كنت أتعذب. لو أن طفلي أخّر الأمر قليلاً أيضاً، لو أنه بكى قليلاً، لانصرفت عن الأمر حتماً. ولكن طفلي لم يبك. صرتُ عصبية. نفد صبري. صرخت به: «عنده زبيب أيضاً. اذهب اشتر ما تريد. هيا اذهب. . » ورفعته من فوق الجدول جنب الرصيف فوضعته على أسفلت وسط الشارع. وضعت يدي على ظهره، ودفعته قليلاً إلى أمام وقلت: «هيا اذهب، سنتأخر». كان الشارع خالياً. من وسط الشارع إلى أطرافه لم تكن تشاهد حافلة أو عربة تدهس ابني. عندما كان ابني قد ذهب خطوتين أو ثلاثاً عاد وقال: «يا أمي. عنده زبيب أيضاً؟» فقلت: «نعم يا حبيبي. قل له أعطني زبيب بعشرة شاهيات». فذهب. كان طفلي قد وصل نصف الشارع عندما زمرت سيارة فارتجفت ذعراً. وبدون أن أدري ما كنت أفعل، رميت نفسي إلى وسط الشارع واحتضنت طفلي وركضت إلى الرصيف واختفيت بين الناس. كان العرق قد جرى من رأسي ووجهي. كنت ألهث. قال طفلي: «ما صال[١٠] يا أمي؟». فقلت: «لا شيء يا روحي. يعبرون الشارع سريعاً. أنت كنت تمضي بطيئاً فأوشكت أن تقع تحت الـ(هوتول)[١١]. عندما كنت أقول هذا أوشكت أن أبكي، وقال طفلي وهو لايزال تحت إبطي: «حسناً يا ماما، ضعيني على الألض[١٢] وسألوح[١٣] هذه الملة[١٤] سليع[١٥]. ربما لو أن طفيلي لم يكن قال هذا لكنت نسيت فيم أتيت. ولكن كلامه هذا نبهني. لم أكن قد جففت دموعي بعد عندما تذكرت العمل الذي جئت كي أفعله. تذكرت زوجي الذي سيغضب عليّ. قبّلت طفيلي. كانت آخر قبلة أنالها من

خده. قبلته ووضعته أرضاً مرة أخرى ومرة أخرى قلت في أذنه: «اذهب سريعاً يا حبيبي، فالسيارات قادمة». مرة أخرى كان الشارع خالياً، وهذه المرة ذهب ابني أسرع. كان يمد خطى صغيرة بسرعة. وقد خفت مرتين أو ثلاثاً أن يتعثر بساقه فيسقط أرضاً. عندما وصل جانب الشارع الثاني التفت وألقى عليّ نظرة. كنت قد جمعت ذيلي چادري تحت إبطي وعلى وشك أن أنطلق. ما أن استدار طفلي ونظر نحوي، حتى تيبست في مكاني. صحيح أنني لم أكن أريده أن يعرف أنني ذاهبة. ولكنني لم أتيبس من أجل هذا. كنت قد صرت مثل لص أمسكوه متلبساً. تيبست يداي تحت إبطي. مثل تلك المرة حين كنت عند جيب زوجي - زوجي السابق ذاك - أفتش وأبحث فوصل زوجي. على ذلك النحو إياه تيبست. مرة أخرى تضمخت عرقاً. طأطأت رأسي وعندما رفعته بألف مشقة كان طفلي قد انطلق مرة أخرى ولم يكن بقي شيء حتى يبلغ بائع البزر. كانت مهمتي قد تمت. كان طفلي قد بلغ جانب الطريق الآخر. ومنذ ذلك الوقت صار وكأنني لم يسبق أن كان لي طفل.

في آخر مرة نظرت إلى ابني كان بالضبط كما لو كنت أنظر إلى ابن الآخرين. بالضبط، كما لو أنني أنظر إلى ابن ناس، حديث السير، عذب. بالضبط كما يمكن أن تلتذ الواحدة من رؤية ابن الآخرين التذذت برؤيته. وسريعاً اندسست بين الحشد على الرصيف. ولكنني ارتعبت فجأة. أوشكت قدماي أن تتيبسا وأوشكت أنا أن أتسمر في مكاني. استولى عليّ الرعب؛ أن يكون أحد ما يراقبني! من هذه الفكرة قفّ شعر بدني وأسرعت. بعد زقاقين إلى أدنى، فكرت في أن أندس في الأزقة وأهرب. أوصلت نفسي بعد عناء شديد إلى مدخل زقاق وإذا بسيارة أجرة تتوقف ورائي فجأة في الشارع. كما لو سيقبضون عليّ الآن. حتى ارتجفت عظامي. خيّل إليّ أن شرطي مفترق الطريق، الذي كان يراقبني، قد قفز إلى سيارة الأجرة وها قد نزل ورائي وهاهو يمسك بمعصمي. لا أدري كيف استدرت ونظرت ورائي فانهرْت. كان ركاب السيارة قد دفعوا أجرتهم وهم على وشك أن ينصرفوا. تنفست نَفَس ارتياح، وخطرت لي فكرة

أخرى. بدون أن أفهم، أو ترى عيني مكاناً ما، قفزت إلى السيارة وأغلقت الباب بعنف. دردم السائق وانطلق. وبقي چادري بين باب السيارة. عندما ابتعدت السيارة وأحسست اطمئناناً، فتحت الباب بهدوء. سحبت چادري منه وأغلقت الباب مجدداً. ارتخيت على ظهر الكرسي وتنفست بارتياح. وفي الآخر لم أستطع مساء أن أحصل على أجرة السيارة من زوجي!

الحواشي

(١) تأذت يده ، تؤلمه يده .

(٢) صار .

(٣) السيارة .

(٤) نشتري .

(٥) أين .

(٦) أيّ .

(٧) الشاهي وحدة نقد كانت ملغاة حتى في زمان القصة ، ولكن اسمها بقي يطلق على مسكوكة الخمسة دنانير ، فهي تساوي خمسة بالمئة من قيمة الريال الحالي .

(٨) نروح .

(٩) بزر .

(١٠) ماذا صار .

(١١) التحريف الطفولي لكلمة (أتول) ، التي كان الكبار يطلقونها على السيارة .

(١٢) الأرض .

(١٣) سأروح .

(١٤) المرة .

(١٥) سريعاً .

أحمد محمود

ولد أحمد محمود سنة ١٩٣١ في أهواز، وتوفي في طهران سنة ٢٠٠٢. صدر أول أعماله، وهو مجموعة قصصية باسم «مول»[١]، سنة ١٩٥٩. وأصدر في طول حياته ست روايات وثماني مجموعات قصصية. حققت «همسايه ها»[٢]، روايته الأولى التي صدرت سنة ١٩٧٤، له شهرة واعتباراً وافرين. بقيت هذه الرواية - التي أتيح لها أن تنشر مرة، على أعتاب الثورة الإيرانية - تواجه منع النشر. تعتبر روايته «مدار صفر درجة»[٣] ثلاثية الأجزاء وروايته «درخت أنجير معابد»[٤] ذات الجزأين أيضاً من أعماله الأخيرة. كانت روايته «زمين سوخته»[٥] التي أصدرها سنة ١٩٨٢، أول رواية تعالج، قبل انتهاء حرب الثماني سنوات بين إيران والعراق (١٩٨٠ - ١٩٨٨)، التأثيرات المخربة لهذه الحرب على الحياة المادية والروحية لسكان جنوبي إيران.

إن الرقعة الجغرافية الرئيسة لأعماله هي منطقة جنوبي إيران الغنية بالنفط؛ إن جنوبي إيران يعني في تاريخنا المعاصر جنوب النفط والشرجي[٦] والحر، المنطقة التي تشهد للمرة الأولى حضور الأجانب اللافت للنظر فيها، وأحمد محمود هو الراوي حاد النظر لهذه الوضعية الجديدة غير المستقرة ذاتها.

* * *

نشرت قصة «أين تذهبين يا ننه أمرو؟» أول مرة سنة ١٩٩٠ في مجموعة «ديدار»[٧]. أمر الله عامل شركة حفريات يحتمل أن يكون له ارتباط بإحدى

المجموعات المسلحة ، اغتال رئيس الشركة الأمريكي ، ويمر ذات ليلة بعد غياب ستة أشهر ببيته . تهجم الشرطة ، التي لابد أنها كانت تتعقبه وتبحث عنه ، فجأة على البيت ، تصيب رجل أمر الله عند هروبه ، وتأخذه معها . تشرع العجوز الساذجة طيبة القلب ـ الجاهلة بكل الوقائع ـ بالعمل بحثاً عن رأس خيط بشأن ابنها . تمر بكل مكان يخطر على بالها ، وتستعين بكل من هو في متناولها . يدلها البعض ، يمنحها بعض أملاً ويستغلها آخرون . ولا يعامل أحد خوفها وحزنها جدياً جداً . في منتصف ذات ليلة ، يوصل رفيق كفاح أمر الله خبر إعدامه سراً للعجوز فترى العجوز ـ الوحيدة التي لا ملجأ لها في ذلك الفجر المبلول الرمادي ، الغارقة في أوهامها ـ أمر الله الذي يشبه ذلك الـ«خان» البختياري ، معلقاً على الخشبة ، يتمايل في الهواء . إن وحدة العجوز رمز واضح وبسيط لوحدة أمة تحت سلطة الاستبداد وعصف انعدام العدالة .

إن موضوع اغتيال الأجانب ، الذي يرد في بعض قصص أحمد محمود الأخرى هو في الوقت نفسيه مبيِّن جذور روحية العداء للأجانب والعنف بين الشعوب مما يخلق موجباته تدخل الأجانب في حياة بلدانها .

الحواشي

(١) العاشق ، الفاسق ، المُضاجع .

(٢) الجيران ، ستصدر بترجمتي عن المجلس الأعلى للثقافة في مصر .

(٣) مدار الدرجة صفر .

(٤) شجرة تين المعابد .

(٥) الأرض المحروقة .

(٦) الجو الحار الرطب البحري ، حيث يصعب التنفس .

(٧) اللقاء .

إلى أين تذهبين يا ننه[1] أمرو[2]؟

أحمد محمود

ـ ماذا أصاب رأسك تلك الليلة يا ننه أمرو؟

تتصور ننه أمر الله أنها ، ربما ، مرة أخرى ، في الماضي البعيد ، أصابها هذا الرعب والهزة ذاتهما .

ـ بكيت أيضاً يا ننه أمرو؟

تتصور أنه في هذا الماضي البعيد إياه ، أصيبت رجل أمر الله ، وقت الفرار ، بطلقة فسقط عن السلّم الخشبي .

ليلة شتوية ندية ، برودة رطبة ، الثلث الأول بعد منتصف الليل ، خوفها وارتجافها ـ حيرة الجيران ـ «يا قمر بني هاشم!»[3]

ـ لا تُبدي كل هذا الاضطراب يا ننه أمرو ، فالله كبير

يقيدون أمر الله بجامعة اليدين . ساقه اليسرى تضلع ، ومن فوق الركبة يفور الدم .

ـ «يا صاحب من لا صاحب له» . تبقى العجوز وحدها .

* * *

يمر بطيئاً ليل ننه أمر الله «ماذا أفعل الآن؟» .

ـ نامي يا ننه أمرو ـ خذي إغفاءة في الأقل

تقلب رماد المنقل. لايزال حاراً «أنزفت يا بني؟ ليصبهم الله بطلقة الغيب» .

ـ مضطربة ، يا ننه أمرو؟

بزاوية الـ«چارقد»[٤] تزيل رطوبة عينها. الـ«قوري» بارد. «في هذه البرودة ، في هذا الليل ، امنحه قدرة التحمل يا ربي» . زجاج النافذة الضيق معتم. «أمحلّك دافئ يا ماما؟ هل يعنى بك أحد؟ هل يداوونك؟» . تضج ركبة ننه أمر الله ألماً «صدقة عن رأس كل عبيدك الطيبين يا ربي ـ ارحم هذا الطفل» . نفدت علبة الـ«إشنو»[٥] . «يأخذون أسيراً إلى الشام! قرباناً لقلبكِ المليء بالألم يا زينب ـ قرباناً لصبرك وطاقتك يا بي بي[٦]!» . تدفع البطانية عن كتفها «إنك لم تسرق يا بني! أنت لست ممن يفعلون هذه الأمور ، لقد درست اثني عشر صفاً ـ هووف ف!» . تنظر إلى النافذة ، يميل لونها إلى الرمادي «شكراً لله . يبدو الهواء صافياً!» .

ـ ماذا تنتظرين يا ننه أمرو؟ أذان الفجر؟

تأتي خرخرة مكبرة صوت المسجد. تحدّ أذنها ـ أذان كَلْ[٧] عبدول المعروف «أعوذ بك ، يا ملاذ من لا ملاذ لهم» تنهض .

ـ تضلعين يا ننه أمرو؟ وجع الركبة؟ عاد؟ لمَ لم تدهنيها؟!

نفد زيت «البنت الهندية» «قلت سيشتري أمر الله ـ الآن وقد عاد. من هذه الصيدلية القريبة. في شارع الثلاثين ذراعاً[٨]» . سقسقة في الغرفة ، ألواح الأبواب المتهـرئة المشبعة بالمطر ، حمحـمة حصـان عبد الله ، ثم شرشرة صنبور الماء .

بالماء الثلج يا ننه أمرو؟ سيصيبك برد!

ضياء السَحَر، أثر الدم قرب حفر الماء في الباحة، متعجل، يمضي مستقيماً ومعوجاً.

- إلى مَ تنظرين يا ننه أمرو؟

شفتا ننه أمرو - من البرد. ترتجفان.

- عسى ألا يكون بحفرة الماء الحمراء تحت السلم؟

تمسح رأسها.

- أو ببيت الدجاج؟

يلتصق حذاءا ننه أمرو الفوقانيان(٩) بوحل أرضية الباحة.

- فهمتُ يا ننه أمر الله. إنك تنظرين إلى السلّم - درجات السلم المكسورة!

تُنزِل كُمَّيها، لا يرتعش لها هدب.

- تذكرت شيئاً يا ننه أمر الله؟

تزرر زرَّيْ رأس الكم [- «صرت عجوزاً ماما! نسيت كل شيء!» - «لابد أنك تذكرت ذلك اليوم عندما انكبّ زوجك بنطاقه على أمر الله!» - «نعم ماما! أظنه كان هذا السلم نفسه الذي صعده أمر الله من خوفه - «وربما تظنين أيضاً أن هاتين هما نفس الدرجتين اللتين انكسرتا تحت أقدام أمر الله!» - «لا ننه! كان أعلى، كان قرب الحافة. أي دم نزف من رأس ابني! مثل أنبوبة الإبريق!» - «انكسر رأسه؟» - «انكسر؟ انفتح فيه فم! مثل فم السمكة!»] تنطلق نحو الغرفة.

* * *

ـ ليتك شربت كأس شاي يا ننه أمرو

تفتح باب قن الدجاج «أمام من أريق ماء وجهي الآن؟» ترمي الحب تحت حاجزة الشمس «أين أجدك يا بني؟ ـ في هذه المدينة السائبة!» يخرج عبد الله من الاصطبل، يوكئ المسحاة بالباب، يفرك أثر الدم بجزمته. تدير ننه أمر الله رأسها «كنت أباك، وأمك ـ من عندي الآن؟ أمام من أريق ماء وجهي؟» النقرة الحمراء تحت السلّم أمام عيني ننه أمر الله «هووف ف! أين أذهب يا بني؟ ـ أين؟».

ـ للشرطة يا ننه أمرو، دائرة الأمن.

العربة اليدوية تحت حاجزة الشمس ـ يشد حسن الكناس نطاق وسطه.

ـ للعدلية يا ننه أمرو، للعدلية

ـ لقد رأيت يا ننه أمرو، كان المأمور عيدي. في قسم الشرطة ـ كان يلبس ملابس مدنية. أحقاً كان المأمور عيدي، يا مش رضا(١٠)؟ رأيت بنفسك؟ بعينيك؟ ـ («ما أدراني أنا؟ كان مثله ـ طويل، نحيل.») ذيل عباءة ننه أمر الله ملوث بالطين. الحذاءان الفوقانيان باردان «بيض الدجاج!» ـ تعود، حتى الظهر تعود ـ تقف تحت طاق المدخل «هل تَربَسْتُ باب الغرفة؟». كانت تربَسَتْه. تخرج من البيت. انغرز العمود الوسطي لعربة عبد الله بالطين.

ـ أين بهذا التبكير يا ننه أمرو؟

تقي بائع المحلبي. يضع عُدّة القدر على الأرض، لقد وصل لتوه. قسم الشرطة بعد الحمام «بعده بزقاقين ـ ها؟ قبل المدرسة؟» الإسفلت مريح. الحذاءان الفوقانيان لا يلتصقان. تضلع ننه أمر الله، ترتجف [ـ «من البرد، يا ننه أمر الله؟» ـ «قلبي يحس برداً يا ننه! هذا القلب المليء بلاءً»] أنف ننه أمر الله أحمر «يعني أنهم يسددون الحساب؟». تقف. لايزال مصباح باب قسم الشرطة ـ على

الرصيف المقابل ـ مضاء. تتصور أن أسطوانةَ بندقية ناتئةٌ من داخل الكشك. تملأ رائحة تبغ محروق أنفها. تلتفت. يمضي أحدهمْ مسرعاً، هو محدودب، والسيكارة في فمه. تدور عينا ننه أمر الله. كل الحوانيت مغلقة.

ـ تريدين سيجارة يا ننه أمرو؟

تتقدم. تقف قرب الجدول[11]. تمر سيارتان متتابعتان. «كما لو أنهم ينقلون رأساً[12]». تعبر عرض الشارع. رائحة الخبز! ـ صف الخباز خالٍ. تتنهد بصوت عال [ـ «لو أنك تناولتِ لقمتين صباحاً، يا ننه أمر الله». ـ «لتضرب سكينٌ قلبي يا ننه! أفينزل من حلقومي شيء؟»] تقف.

الآن ـ كأنها ـ ترى قامة الحارس في الكشك «يلبس معطفاً؟» يهز الهواء عباءة ننه أمر الله. جاكتة زوجها دافئة. قلبت طرفي كميها [ـ «ماذا أفعل إذن يا ولدي؟ طويلة.» ـ «من زوجك لم يبق غير هذه يا ننه أمر الله؟» ـ «لا. ثمة واحدة أخرى أيضاً. مثل هذه قهوائية، ولكنها مخططة، ومعها منديل رأس.»]. [ليرحمه الله، كان عنيداً!

ـ ليمطر النور من قبره، كان عصبياً، عصبياً يا ننه!].

يتحرك الحارس في الكشك «يعني هل سيحس بكلامي؟». مايزال الطريق إلى الكشك طويلاً. الصوت لا يصل. تأتي فولكس المأمور عيدي. ينزل المأمور عيدي، مظلة مغلقة في يده «يعني كان هو؟ المأمور عيدي!». يلصق حارس الكشك، بلطف، كعبيه. يلوح المأمور عيدي بيده [ـ «تحركي يا ننه أمر الله» ـ «ركبتاي يا ننه. ميتة الصاحب هذه!»] يدخل المأمور عيدي ـ «يعني أنه لن يفهم كلام قلبك يا ننه أمرو. انطقي عالياً.» ـ «عن أمر الله أقول. هنا؟ ابني!» ـ «قلت عالياً، ننه أمر الله.» ـ «أبحث عن أمرو يا مأمور ـ أخذوه ليلة أمس.» ـ «لا ينفع هكذا يا ننه أمر الله!»].

ـ ألوذ بك يا مأمور!

ينظر الحارس. كأنه انتبه تواً لننه أمر الله.

ـ امش من هنا يا أماه!

ـ رضا الكبابي يا مأمور. قال إنه هنا

يخرج الحارس من الكشك.

ـ مَن هنا أيتها العجوز؟

ـ ابني، أمرو ـ المأمور عيدي يعرفه

ـ هل سرق؟

تضطرب ننه أمر الله [ـ «لا! أمر الله شغّيل ـ مدّ أنابيب!» ـ «قولي هذا يا ننه أمر الله»].

ـ أو معركة بالسكاكين؟

يرتجف صوت ننه أمر الله.

ـ أمرو يشتغل، مدّ أنابيب!

يأتي المأمور عيدي إلى عند الباب. يعلق في رقبته طوق المناوبة.

ـ ها ننه أمرو، ماذا هناك؟

ننه أمر الله لا تطيق صبراً، كما لو أنها أضاعت نفسها.

ـ أمرو، أيها المأمور عيدي!

ـ منذ وقت طويل غائب!

ـ ذهب يشتغل في «أميديه»، أيها المأمور عيدي. يعمل هناك. منذ وقت طويل.

ـ حسن، ماذا إذن؟

ـ ضربوه ليلة أمس أيها المأمور عيدي. طلقات، في البيت!

المأمور عيدي ساكت. ينظر إلى أم أمر الله. ثم يهزّ رأسه ثم ـ كأنه متعب ـ يقول بهدوء.

ـ ليس هنا يا ننه أمرو!

ـ لكن رضا الكبابي قال هنا ـ في قسم الشرطة

يبتسم المأمور عيدي. صفّا أسنانه ذهبٌ كلاهما.

ـ بلا معنى قال يا ننه أمرو

ـ لا شيء إذن؟!

بدأت الحركة. تتوالى أصوات ارتفاع أبواب الصفيح. محل البقالة أدنى من قسم الشرطة ـ جنب المدرسة. تشتري ننه أمرو سجاير. يدوخها الدخان فترة. ثم تحس البرد. على مبعدة، أوقدوا ناراً في صفيحة. أطلّت الشمس. تكتسب قبة الحمام العالية لوناً. تمضي ننه أمر الله

«إلهي من أسأل؟»

* * *

ـ ننه أمرو ما فعلت؟

لا شيء! ماتزال مشردة. لم تجد بعد أثراً من آثار أمر الله «حسب كلام آقا تقي ذهبت عند الحاج فتح الله. ذهبت إلى بيته ـ» وينبهر نفسها.

ـ وهل فعل شيئاً يا ننه أمرو؟

لا!: «يعني لم أره. قال سلمان إنه ذهب إلى (لالي)، ذهب إلى (رومز) ـ ما أدراني. سلمان يتكلم بوجهين، يكذب».

ـ سلمان؟ يا ننه أمرو

ـ ها سلمان، سلمان الأسود هذا نفسه

ـ أي كذب عند سلمان يا ننه أمرو؟

إنها تعرف سلمان، منذ سنوات: «تلك الأيام عندما كنت أغسل الملابس في منزل الحاج فتح الله فهمت ـ بعد المرحوم.» تعني زوجها ـ كان كهربائياً: «أيبَسَتْه. ليتني أنا صعقتني الكهرباء.» ثم، وجد أحدهم لها عملاً في شركة الغزل ـ تنظيف القطن: «عندما بدأ اليوم الثاني عشر انقطعت عن الرواح.» يقول أمر الله: «أصبت بضيق الصدر ـ ذهب إلى مدّ الأنابيب. سيعمل سنتين ثم يتزوج.» تضلع:

«إلهي لتصب طلقة حشاشة قلوبهم ـ إلى من آخذ قلبي المحروق هذا؟» تقف كي تجد نفسها.

ـ أين تذهبين الآن يا ننه أمرو؟

ـ عند صفدر. ابن زينب الداية ـ هو جندي؟

ـ لكي يفعل ماذا؟

ـ قلت يا ننه، إنه مراسل في بيت العقيد!

باب بيت العقيد مغلق. تتطلع ننه أمر الله إلى الباب. رمادي اللون، فيه أف أف(١٣) [ـ «دقّي الباب يا ننه أمر الله ـ الجرس.» ـ «انتظر حتى يخرج لحاله.» ـ «تخافين يا ننه أمر الله؟» ـ «ليس خوفاً! على كل حال هم بشر ـ أحتاط.»] تتراجع. تجلس على الرصيف المقابل ـ في الشمس. السماء صافية. الشارع خال. تؤرث سيجارتها. تسعل. نظرها على الباب وبالسطح وبهوائي التلفزيون «يعني يسمع العقيد لكلام صفدر؟» تضع يديها على ركبتيها، تضغط [«تؤلمك

ساقك يا ننه أمر الله؟» ـ «أحسن بحمد الله ـ اشتريت زيتاً فدهنتها . »] يعبر رجلٌ الطريق ، يضع يده في جيبه . تجاوز ننه أمر الله ، يعود . بين أصابعه مسكوكة .

ـ لست شحاذة يا بني!

تتراجع يد الرجل . كأن نظرته حيرى .

ـ أخذوا ابني ، أطلقوا عليه النار!

لا يقول الرجل شيئاً . يذهب . يتقدم ظله . لا يزال باب بيت العقيد موصداً [ـ «تعبت يا ننه أمرو؟» ـ «هذا الباب ، أهو مغلق دائماً؟» ـ «ليس دائماً ، يا ننه أمر الله!» ـ «أنا جالسة هنا منذ ساعتين . » ـ «في وقته يا ننه أمر الله . »] . تفرك ركبتها . جائعة ، لم تأكل شيئاً صباحاً . تجمع بيض الدجاج [ـ «ها ننه أمرو؟ تجمعين؟» ـ «ربما تنفعني في السجن!» ـ «السجن؟ لماذا يا ننه أمر الله؟» ـ «حسن الكناس قال ذلك . يقول إنهم أخذوه إلى السجن ـ يقول ربما . » ـ «كان لازماً أن تروحي لتريْ! ذهبتِ؟» ـ «لا! ليس بعد ، أرى أولاً ما يفعل صفدر ثم!»] تتطلع إلى جدار منزل العقيد . حجر أبيض ـ غير منتظم . وخطوط ملاط غير منتظمة ـ بالسمنت الأسود . الوقت ظهر . تأتي بنتا العقيد ـ معاً . نشيطتان ـ تلبسان بزة الـ(أرمك)[١٤] ، شعرهما عريشة قصيرة شقراء ، وتحملان حقيبتين . تقرعان جرس باب البيت . تنهض ننه أمر الله . ركبة ننه أمر الله يابسة .

ـ ليأتكما الخير من شبابكما ننه ـ عندي شغل مع صفدر ـ ابن زينب الداية . ينفتح الباب . تدخل بنتا العقيد [ـ «ذهبتا يا ننه أمر الله!» ـ «يعني لم تسمعا؟» ـ «لا ، لم تسمعا يا ننه أمرو . » ـ «أهما صماوان أخرس الله لساني؟» ـ «لا ، يا ننه أمر الله . كانتا في دنياهما . أفلم تسمعي ضحكتهما؟»] تعود ، تجلس مرة أخرى ، تؤرث سيجارة مرة أخرى حتى يأتي العقيد . يصاب فؤادها بالضعف ، يأتي العقيد . يدور السائق حول مقدم السيارة ، يفتح صفدر باب المنزل ، ترتبك ننه أمر الله . لم تنظر هكذا إلى عقداء طيلة عمرها ، لم ترَ بأي ثبات وإحكام

يمشون. ينفتح فم ننه أمر الله، يبقى مفتوحاً. صفدر عند الباب [ـ «ناديه يا ننه أمر الله.» ـ «لا يصير العقيد عصبيا؟»] تنهض من مكانها [ـ «أنت نادي على صفدر يا ننه أمر الله، ما شأنك بالعقيد؟» ـ «لا أتجرأ يا بني! أخاف أن يغتاظ!» ـ «أيْ يْ يا ننه أمر الله، ذهب العقيد، وانسدّ الباب أيضاً.» ـ «رأيت صفدر ـ رآني. أجلس حتى يأتي ـ سيأتي.»] تجلس. السيجارة في يدها [ـ «دخنت العلبة كلها يا ننه أمر الله» ـ «ماذا أفعل يا ننه، ليس بيدي.»] يغطي الظل الرصيف. تلف ننه أمر الله العباءة حول بدنها [ـ «أتحسين برداً يا ننه أمر الله؟» ـ «أيْ يا بني! ليس من البرد.»] الوقت عصر، تزداد الدنيا برداً. يهتز باب منزل العقيد. يوالي قلب ننه أمر الله ضربانه. ينفتح الباب. هو صفدر. بيده سلسلة صفراء لـ(شين لو)(١٥) منكر. كلب رمادي اللون أذناه كبيرتان وخطمه مستطيل. ينمسح الكلام في فم ننه أمر الله. يمشي صفدر، مع الكلب، على الرصيف [ـ «لم ينتبه يا ننه أمر الله، ناديه.» ـ «هذا الكلب، يا بني!» ـ «تخافين؟» ـ «لا يترك حاسة للمرء!» ـ «ذهب صفدر يا ننه أمر الله ـ ذهب!»] ترمي عقب السيجارة. ابتعد صفدر مع الكلب.

* * *

ـ السلام يا ننه أمر الله

ـ السلام يا بني، أطال الله عمرك

ـ ألم تجديه؟

ـ لا يا ابني، لا!

شدت ننه أمر الله عصابة رأس سوداء. عيناها تدمعان ـ من البرد.

ـ يعني حسب قولك... أين أذهب بعد يا آقا تقي؟

ـ إدارة الأمن!

ـ إدارة الأمن؟ قال عبد الله العربجي أيضاً ـ أين؟

ـ في مديرية الشرطة يا ننه أمرو

ـ قال المأمور عيدي إنه ليس هناك

كانت ننه أمر الله تلبس تحت الجاكتة فانيلة. عيناها حمراوان ـ لقد أصيبت بالبرد.

ـ ماذا إذن أخيراً يا ننه أمرو؟

ـ ماذا أقول يا كل عبدول. إلا إن ساعد الله نفسه

عينا كل عبدول نصف مغمضتين دوماً. ينظر إلى الأرض. لم يبق وقت طويل حتى أذان المغرب [ـ «قولي يا ننه أمر الله، أطلقي كلامك.» ـ «لا أدري لماذا أستحي من كل عبدول!» ـ لا حياء في الأمر! إنه مؤذن المسجد.» ـ «أدري يا بني.» ـ «قولي إذن. كل عبدول من المعارف. خيّر مع الناس! قولي يا ننه أمر الله.»]

ـ أخي يا كل عبدول. أيصير أن نسأل الناس؟

ـ الناس، يا ننه أمرو؟

ـ هؤلاء الذين يأتون إلى المسجد ـ يعني أيوجد من عنده خبر؟

ـ أسأل يا ننه أمرو، أسأل ـ توكلي على الله!

ـ يا ننه أمرو مرّي بالسجن أيضاً!

ـ أنا بهذا الفكر يا دايه زينب

ـ ابن أم عباس في السجن أيضاً. أعني (يدو)، ابنها الثاني

ـ لا جعل الله يا دايه زينب. هذا نشلَ جيباً!

ـ ما الفرق يا ننه أمرو!

السجن في آخر الطريق الإسفلتي، شارع السجن عريض، باب السجن كبير، أزرق. أم أمرو واقفة على الرصيف المقابل. نظرها على الحارس عند الباب. فوق السطح، يسير حارس، يحمل بندقية. ننه أمر الله ترى كل شيء. الوقت صباح. غطت الشمس الشتوية لتوها حاشية ضيقة من طول الشارع. تمر السيارات. تتوقف حافلة المدينة المخلّعة بعيداً عن السجن، تعبر عربة عبد الله، تميل إلى الشارع المقابل. حملها براميل نفط أسود «لابد لمعمل الطحين.» يأتي صوت المعمل المكتوم، بعيد. الكارون يقع على اليمين، لا يُرى. الحشد الأخضر للأشنات يغطي الساحل. من بطن باب السجن الكبير ينفتح باب صغير. يخرج رجل. يلبس لباساً مدنياً. تجلس ننه أمر الله [ـ «لماذا قعدت يا ننه أمر الله؟» ـ «ركبتاي يا بني!» ـ «أتتذرعين يا ننه أمر الله؟» ـ «أية ذريعة عندي أتذرع بها يا بني ـ أدخن سيجارتي، ثم.»] تضع كيس البيض على الأرض. تؤرث سيجارتها، نظرها على حارس سطح السجن «أفلا يتعب.. يروح ويجيء بهذا القدر؟ استقر في مكان واحد!» يغيم الجو. تأتي ريح باردة لينة من الكارون. فيها وخزة [ـ «يا ننه أمر الله، ماذا ستسألين الحارس الآن؟» ـ «ليس في السؤال مصيبة يا بني ـ كل ما هناك أقول إن طفلي في السجن، أقول له إنهم أطلقوا عليه النار، أقول أريد أن أراه. ربما كانت له حاجة ـ لعلاج ساقه ـ أسأل عن هذه الأمور. قلبي مطمئن إلى أنني سأراه ـ اليوم، اليوم بالذات. فؤادي منوّر!»] تمص من السيجارة نفساً، ثم تطفئها، ثم تخرج قطعة خبز من جيب الجاكتة [ـ «ألم تأكلي شيئاً صباحاً يا ننه أمرو؟» ـ «لا، لم آكل. يعني لم يكن لي قلب وفكر كي أعد الشاي!»] تضع حاشية الخبز اللينة في فمها. [«في الأقل كنت تجلبين معك سيْرَيْن[١٦] أو ثلاثة أسيار جبن يا ننه أمر الله.» ـ «أي ي عافاك الله! ماذا أكلت أنا طول عمري كي أفكر ببطني؟» ـ «يجب أن يأكل الإنسان حتى يقوى يا ننه أمر الله.» ـ «قوّتي أمر الله، يا بني. منذ أن أخذوه لم

تعد عندي قدرة!»] تبتلع اللقمة، تضع قطعة الخبز في جيبها. تنهض [- «نهضت يا ننه أمر الله؟» - «نعم يا بني. لو لازمت الجلوس لحلّ الظهر.»] تتقدم. نظرها على بندقية الحارس. يميل راكب دراجة ويعبر سريعاً أمام ننه أمر الله.

- اذهبي للرصيف أيتها العجوز!

تخفُّ ننه أمر الله رجليها. الركبة تخز [- «لم لا تستعملين عصا يا ننه أمر الله؟» - «أنا صرت قعيدة الأرض يا بني. أفأريد العصا لتلك الدنيا؟»] تقف على حافة الجدول. لا أحد عند باب السجن. ألصق الحارس جبينه بالباب وراح يكلم شخصاً ما من الثقب فوق البويب.

- أيها المأمور!

يدير الحارس رأسه. يظهر من وراء الثقب أنفه وشارب أسود وفم.

- امشي يا أماه

- ابني، أمر الله، أريد ملاقاته!

- الثلاثاء. الملاقاة يوم الثلاثاء!

ينفتح فؤاد ننه أمر الله «قلت إن فؤادي منوّر.» مرة أخرى يتجه الحارس إلى الثقب [- «فرحت يا ننه أمر الله؟» - «ألم تسمع؟ قال الثلاثاء.» - «الثلاثاء ماذا، ننه أمر الله؟» - «ملاقاة! أفلم تسمع؟ شكراً لله!»] تؤرث سيجارة. ينتهي كلام الحارس.

- امضي الآن يا أماه!

- على عيني، على عيني أيها المأمور!

تنطلق. تتلبث.

ـ الثلاثاء أكيد؟!

لا يقول الحارس شيئاً. تنقل ننه أمر الله كيس البيض من يد إلى أخرى. [ـ «عسى ألا تكوني تفكّرين بـ. . » ـ «يعني تقول ـ يعني أعطيه هذا البيض؟ ألا يصير عصبياً؟» ـ «لماذا يا ننه أمر الله؟ بأي حساب؟» ـ ابني يا ولدي. ابني! ما قيمة البيض؟»] يتقدم الحارس، ببندقيته، خطوتين.

ـ أماه هذا ممنوع! قلت روحي!

تروح، تقف على الرصيف المقابل [ـ «لا تستطيعين نزع فؤادك، يا ننه أمر الله؟»

ـ «ابني وراء الباب، في السجن. كيف أنزع فؤادي؟»

ـ «لا أدري يا ننه أمر الله!»

ـ الله نفسه يعلم أفضل، ولكن فؤادي منير ـ كالمرآة!»] ينفتح بويب السجن.

يخرج حارس أسود القبعة، في يده كيس صغير، يودع مناوب الباب، ويأتي نحو الرصيف المقابل. تقطع ننه أمر الله الطريق عليه.

ـ هذا الكيس أيها المأمور!

يتوقف الحارس، ينظر

ـ ما فيه؟

ـ بيض دجاج، أيها المأمور

ينطلق الحارس

ـ لا أريد!

تنجر ننه أمر الله في معية الحارس ـ تضلع

ـ ليس بيعاً ، أيها المأمور ـ للمجاملة!

يقف الحارس .

ـ ابني في السجن أيها المأمور ـ أمر الله

يأخذ الحارس الكيس ، يروزه ، يضعه في كيسه ثم يقول

ـ الثلاثاء يا أماه . يوم الملاقاة!

ـ أكيد؟

ـ أنا موجود ، أكيد!

يتحرك الحارس كي ينطلق . تتمسك ننه أمرا لله برباط كيسه .

ـ هل اندملت رجله؟ يا مأمور

يبتسم الحارس:

ـ التأمت يا أماه . حاله جيدة!

ـ إن هؤلاء اللامسلمين ضربوه طلقة!

تزول البسمة الخفيفة عن شفة الحارس

ـ طلقة!؟

تتراقص عينا ننه أمر الله . يرى الحارس بريق الدمع .

ـ أين؟

ـ في البيت يا مأمور . منتصف الليل

تجفف ننه أمر الله غضروف أنفها المبلل برأس الكم. الحارس كأنه يفكر. تمضي يده إلى الكيس [ـ «هل ندمت يا مأمور؟» ـ «هذه العجوز.. مسكينة!» ـ «إذن، أعده إليها.» ـ «الآن انتظر لأر.» ـ «يجب اقتطاع اللحم من فخذ البقرة ـ أنت الذي كان يقول هذا دائماً!» ـ «أووه، أنت أيضاً بكلامك هذا! تمهل دقيقة لأر.»] يسحب يده عن الكيس.

ـ من الذي أطلقوا عليه يا أماه؟

ـ ما أدراني، أيها المأمور؟ نصف الليل، انهمروا على البيت مثل الأجل فضربوه

مرة أخرى تروح يد الحارس إلى الكيس [ـ «احترق فؤادك أيها المأمور؟» ـ «الأمر يستحق حرقة الفؤاد! ـ لا أدري ـ ربما أعيده لها!»] تتمخط ننه أمر الله.

ـ ما اسمك؟

ـ جاريتك هاجر ـ أم أمر الله!

ـ أين كان ابنك بحيث جاء تلك الليلة لرؤيتك؟

ـ في أميديه أيها المأمور. يشتغل في مد الأنابيب

يضع الحارس رباط الكيس على كتفه [ـ «كأنك قررت يا مأمور!» ـ «ما من فرق! إن لم آكله أنا فسينتزعه غيري من كفها.»] ينقل ثقل بدنه من رجل لأخرى. كأنه يفكر مرة أخرى. يضع بين شفتيه سيجارة. ننه أمر الله تنتظر. تنظف عينها برأس الكم.

ـ اسمعي يا ننه أمر الله. ابنك غير موجود هنا

ترتجف ركبة ننه أمر الله

ـ غير موجود؟!

ـ لا ، يا ننه أمر الله . لا تبحثي عنه

تغور عينا ننه أمر الله .

ـ أحلَّ به البلاء؟ لقد قلتَ الثلاثاء ـ وذلك المأمور أيضاً قال!

ـ تحمّلي يا ننه أمر الله!

ـ عندي تحمُّل أيوب أيها المأمور ، ولكن أمر الله! ـ إنه شاب!

ـ سيظهر من نفسه . اصبري!

ـ «قبْض الخارج في البيت ريح ، يا ننه أمر الله!» صِيْدْ عبد شاه ، يرفع بيده أربعة أشكال مهمات ـ «لم تصل نقطة النار إلى المركز!» ثم يرفع أربعة أشكال من النقل ـ «لم تصل المركز ، لجأت للريح!» وينظر إلى شهادة الميلاد وإلى سهم الغيب وميزان الرمل ـ «ولكن المطلوب السادس مفقود يا ننه أمر الله! ـ» ويضع القلم أرضاً .

ـ سلام يا صيد عبد شاه!

ـ سلام يا ننه أمرو ، كيف حالك؟

غرفة صيد عبد شاه حارة .

ـ ماشية من صدقة رؤوس أطفالك يا صيد عبد شاه

الـ«علاء الدين»(١٧) تشتعل زرقاء(١٨) .

ـ بسم الله(١٩) ـ إلى فوق ، تعالي إلى فوق(٢٠)!

كاسة البخور فوق العلاء الدين .

ـ لا قلل الله شأنك!

أشرطة الورق، مكومة على بعضها فوق منضدة صيد عبد شاه الخفيضة. الكتابات ملونة ـ زعفراني، نيلي، أخضر، أحمر بلون الكبد.

ـ خيراً إنشاء الله يا ننه أمرو!

ـ طفلي يا صيد عبد شاه، أمرو

ـ أدري يا ننه أمرو. ضربوه طلقة، الكواكب تقول!

يبقى فم أم أمر الله فاغراً [ـ «تعجبتِ يا ننه أمر الله؟»، ـ «إي والله، تعجبت!» ـ «أنت نفسكِ ملأتِ الدنيا كلها وقد سمع صيد عبد شاه أيضاً» ـ «ليباركك الله يا ابني. إن صيد عبد شاه لا يغادر منزله!»].

ـ سأطلقه من المحبس يا ننه أمر الله. بحول الله وقوته!

ـ ليعوضك الله يا صيد عبد شاه. فأنا التافهة لا أملك شيئاً!

ـ من أجل الله يا ننه أمر الله. إنه ابني!

ـ لا حسر الله ظلك عن رؤوس أطفالك!

ينقّط صيد عبد شاه صفحة الورق، يمسح النقاط نقطتين نقطتين، يجعلها زوجية وفردية، يُوَزْوِز، يحك جدار أنفه الطويل بإظفره. ننه أمر الله مسحورة، متهيجة فرحاً. تتصور صيد عبد شاه يكلم أحداً، يكلم جماعة يسألهم عن حال أمر الله. «اسأل عن ساقه أيضاً يا صيد عبد شاه. وعن مكانه ـ دافئ؟ ألا يتألم؟» استقر بال ننه أمر الله. عند صيد عبد شاه خبر عن أمر الله. لابد أن عنده خبراً [ـ «هكذا تظنين يا ننه أمر الله؟» ـ «نعم يا ابني. عندما ضاع دبوس خلخال صفية، عيال رضا الكبابي، كان هذا الصيد عبد شاه هو من لقيه» ـ «أرأيت بنفسك، يا ننه أمر الله؟» ـ «لتكن عاقبتك على خير يا ابني! لو أن صيد عبد شاه هذا لم يخفّ

لنجدة مش منير ، لكان آقا تقي قد جاء إلى البيت بعشر ضرّات إلى الآن!»] يرفع صيد عبد شاه رأسه. عيناه كبيرتان ، كما لو أنه تكحّل [ـ «بهاتين العينين يرى كل مكان ـ كل شيء!» ـ «أفَعينا صيد عبد شاه تختلفان عن عيون الآخرين يا ننه أمرو؟» ـ «نعم يا بني! انظر ـ إنها أكبر من عيون البشر!»] ترتجف شفتا عبد شاه الكبيرتان. يوزوز. وكما لو أنه مع نفسه: «التراب في بيت الماء!» تُحدّ ننه أمر الله أذنيها. تسمع: «حبس ومرض. تشويش وقلق! ترتبك ننه أمرو. بحول الله وقوته ، رفع الضيق ـ اتساع!».

فم ننه أمر الله نصف فاغر. لا يرمش جفن ، رائحة بخور ، كما لو أنها فتحت صدرها. لا تهسّ. يشرع عبد شاه بالكتابة ـ على شريط أصفر سميك ، مثل المقوى ، بصباغ حبريّ. تتم الكتابة. يجف ما كتب ، يطوي المقوى.

ـ ضعيه في قماش أسود يا ننه أمرو. ثم ادفنيه تحت فراش أمر الله!

ـ أمرو غير موجود يا صيد شاه!

ـ أدري يا ننه أمرو. محل فراشه ، في أي مكان ينام ـ كان ينام!

يطوي الدعاء الثاني

ـ في قماش أخضر يا ننه أمرو ، لا تتوهمي!

تدوخ ننه أمر الله.

ـ ضعي كلاً منهما على حدة يا ننه أمرو. هذا لزنده ـ الزند الأيمن ، لا الأيسر!

ـ لا أستطيع الوصول إلى أمرو. دُرت الدنيا!

يرفع صيد عبد شاه مبسم السجاير. ويقول بهدوء

ـ ستجدينه! في أحد هذه الأيام الفردية!

ـ فردية!؟

ـ إي ننه أمرو ـ الأحد ، الثلاثاء أو الخميس

تسحب ننه أمر الله نفساً [ـ «ارتحت يا ننه أمر الله؟» ـ «حتى نرى ما يشاء الله!» ـ «قلت إن صيد عبد شاه عنده خبر عن كل مكان ، ها؟» ـ «ذلك المأمور أيضاً قال ـ الثلاثاء ، مفرد. يوم الملاقاة.» ـ «لكن ، بعدئذ قال كلاماً آخر يا ننه أمر الله.» ـ «نعم قال ، أذكر ـ الاتكال على الله!»].

تتقدم يد ننه أمر الله إلى أمام

ـ ليس بذي شأن يا صيد عبد شاه!

تزلق قبضتها المضمومة تحت الحشية.

ـ إنشاء الله عندما يظهر هو نفسه يخلص من الخجل معك!

يؤرث صيد عبد شاه سيجارته.

* * *

لو أن ساق ننه أمر الله لا تعرج. فكأنها لا تمشي ـ تنزلق ، تسحب الحذائين الفوقانيين على الأرض ، برقة وبقوة تامة. تمر فولكس عيدي الصفراء من جانبها. الشمس أطلّت لتوها. الجو بارد. تتوقف الفولكس. تتوقف حتى تصل ننه أمر الله. المأمور عيدي وراء المقـود ، السـيجارة بين الشفتين ، كأنه يفكر [ـ «ها ، أيها المأمور رئيس العرفاء ، أتنتظر ننه أمر الله؟» ـ «أنتظرها ولا أنتظرها!» ـ «لابد أن عندك خبراً جديداً ، ها؟» ـ «خبر؟ لا! ولكن ما العيب في أن أحيي آمال العجوز؟» ـ «لا عيب فيه ، ولكن ماذا جرى حتى صرت تفكر في ننه أمر الله؟» ـ «لا تتدخل في شغل الناس ، أرجوك!»] تصل ننه أمر الله. يرمي المأمور عيدي عقب السيجارة.

ـ كيف حالك يا ننه أمرو؟

ـ لا يا أخي ، لا! لا يتجاوب أحد مع ألمي!

ـ لا تيأسي يا ننه أمرو

ـ لست يائسة . اليائس هو الشيطان! قلبي منير . ليعط الله صيد عبد شاه عمراً وعزاً!

ـ إذن فقد كتبت دعاء أيضاً؟

ـ نعم يا أخي

ـ قلبي أنا أيضاً منير يا ننه أمرو . لقد عرفت بعض الأشياء!

ـ أفرحت قلبي يا مأمور عيدي . لا أنقصَ الله من أخوّتك!

ـ أتدخنين سيجارة يا ننه أمرو؟

ـ عندي يا أخي . أنا عندي

ـ هيا الآن ودخّني من هذه . ذات فيلتر ، أفضل لصدرك!

ـ إي ي يا مأمور عيدي ، وماذا أريد أن أفعل بصدري؟

تأخذ سيجارة المأمور عيدي . تؤرثها .

ـ يا ننه أمرو أتقدرين اليوم أن تساعدي السيدة شيرين؟

ـ أشتغل خادمة للسيدة يا مأمور عيدي!

ـ عندنا الليلة ضيوف . يداها تؤلمانها يا ننه أمرو

ـ بروحي وقلبي!

ـ اليوم فقط يا ننه أمرو ، إلى أن أرى ما أفعل لأمر الله إن شاء الله!

ـ ليحفظ الله أولادك، يا مأمور عيدي

ـ تعالي اركبي!

تركب ننه أمر الله.

بيت المأمور عيدي كبير. تنقّ زوجته: «قلت أريد مساعدة لا هذه العجوز التي ينبغي أن يدبر أحدهم حالها!» يبتسم المأمور عيدي: «عجوز؟ أنت لا تفهمين يا امرأة!» تنظف ننه أمر الله الخضروات، تنظف الرز، تغسل القدر، تمسح فرن الغاز «منذ متى لم ينظفوه؟».

ـ بالماء والصابون يا ننه أمر الله!

ـ على عيني يا خانوم

تضع الصحون في مغسل الصحون.

ـ نظيفاً يا ننه أمر الله. نظيفاً جداً!

تعلمت في بيت الحاج فتح الله ـ الكؤوس، ملاعق الفضة والشوكات.

ـ يا ننه أمر الله إذا صار عندك وقت اغسلي خرق الطفل أيضاً!

يصير عندها وقت. ملأى قوة، تعمل كالنملة ـ هادئة وباستمرار.

ـ يا ننه أمر الله كلي شيئاً

لا تشتهي [ـ «يعني ألم تجوعي بعد كل هذا الشغل؟» ـ «جعت!»].

ـ بعد الظهر يجب أن تنظفي غرفة الموبيليا!

تنظفها ـ إزالة الغبار عن الموبيليا، مائدة العشاء، الكراسي.

ـ اكنسيها أيضاً!

تكنس .

يملأ عطـر الرز الفائر الفوّاح المنزل كله ، تملأ رائحة الـ«قورمه سبزي» الطيبة البيت .

ـ الفراخ يا ننه أمر الله . هاتها من الثلاجة

ـ على عيني يا خانوم

ـ هاتي الأسياخ أيضاً . وأشعلي المنقل

يشرب الضيوف العرق أولاً ، ثم يأكلون العشاء ، ثم يدخنون الأفيون ، ومرة أخرى يشربون العرق . يضحكون ، يقهقهون ، نفد صبر ننه أمر الله [ـ «أتعبت يا ننه أمر الله؟» ـ «لو لم يكن من أجل أمر الله ـ» ـ «انتبهي يا ننه أمر الله ، لا ترمي كل هذه الصحون» ـ «نجسة يا بني ، نجسة!» ـ «أفأنت مجبرة؟» ـ «نعم يا بني ، مجبرة! المأمور عيدي يساعدني!» ـ «أنت متأكدة يا ننه أمر الله؟» ـ «العصر أيضاً قال ـ مرتين!»] .

ـ ننه أمرو!

الصوت لا يتطابق مع عنق المأمور عيدي النحيل ـ «لتحل النار بروحك ، لماذا تصرخ هكذا؟» [ـ «سكران يا ننه أمر الله . » ـ «لا سامحه الله!»] .

ـ ننه أمر الله!

ـ جئت يا مأمور عيدي

ـ أتدخنين الأفيون يا ننه أمر الله؟

ـ لا ، قرباناً لرأسك ، يا بني!

ـ هيا ودخني لفافتين!

ـ نحن الفقراء المساكين ، لا تليق بنا مثل هذه الأعمال يا مأمور عيدي!

ـ إذن اشرحي قضية ابنك للسادة!

ـ لا تحتاج إلى رواية يا مأمور عيدي . فأنت تعرف

ـ أريد أن يعرف هؤلاء ، سيساعدونك!

تحيرت ننه أمر الله [ـ «إنهم ينوون المزاح ، يا ننه أمر الله . » ـ «معي أنا العجوز؟ لا أظن!» ـ «لمَ لا يا ننه أمر الله ، منتعشون ، يبحثون عن وسيلة إضحاك . »]

ـ قولي يا ننه أمر الله . لا تستحي . هذا السيد رئيس إدارة الأمن!

تقول ـ أمر الله بعد ستة أشهر ، جاء ذات ليلة ليراها . بعد منتصف الليل . كان لا يكاد وصل ، وكانت ننه أمر الله نعسانة ماتزال ، حين انهمروا على البيت . فتح باب البيت ـ ربما ـ رضا الكبابي . ما أن سمع أمر الله الصوت حتى هرب . أصيب ساقه على السلّم بطلقة فسقط . ثم وضعوا الجامعة في يد أمر الله وأخذوه [ـ «لا تذكري السلاح يا ننه أمر الله!» ـ «السلاح؟ لم يكن عنده سلاح!» ـ «كان عنده يا ننه أمرو . رآه الجميع ، ولكن أنت لا تقولي . » ـ «الكل يكذب! في أعناقهم!» ـ «ماذا في أعناقهم يا ننه أمرو؟» ـ «الكل يقول إنه كان عنده طلاّق!» «مسدس ، يا ننه أمر الله ، لا طلاّق!»

ـ «كرر ذلك أنت!» ـ «أنا لم أر!»]

ـ وغيره يا ننه أمر الله ، وبعد ماذا؟

ـ لا شيء بعد!

ـ لم تذكري السلاح!

ـ لم يكن عند أمر الله سلاح . ابني ميكانيكي ، شغّيل!

يضحك الضيوف. يقول «رئيس إدارة الأمن» ألا تقلق. يقول «رئيس مركز الشرطة» لماذا لا تتزوج ننه أمر الله.

ـ حيف يا ننه أمر الله. يجب أن تستغلي شبابك!

تنطبق تجاعيد وجه ننه أمر الله. تتأوه بهدوء. [«انكسر فؤادك يا ننه أمر الله؟»] تخرج من الغرفة. الوقت متأخر. يخرج الضيوف. يخلو البيت.

ـ تعالي يا ننه أمر الله. خذي هذه النقود اصرفيها على نفسك!

ـ أنا لم أعمل من أجل المال يا مأمور عيدي!

ـ حسن جداً يا ننه أمر الله، سأصنع شيئاً من أجل ولدك!

لا تأخذ. تنطلق كي تذهب إلى البيت.

ـ إذن هيا خذي بعض الطعام!

لا تأخذ [ـ «لماذا يا ننه أمر الله؟» ـ «أنا لست شحاذة يا بني!» ـ «اشتغلت لهم، أجر شغلك!» ـ «حياتهم وأشياؤهم نجسة! ومالهم حرام!»]

غرفة ننه أمر الله باردة.

* * *

تستيقظ ننه أمر الله من النوم متأخرة. أوشكت صلاتها أن تصير قضاء [ـ «كنت متعبة يا ننه أمر الله؟» ـ «نعم يا بني. نمت متأخرة.» ـ «بعد وقت كلّ ليلة؟» ـ «إلى أن وصلت البيت، وأكلت لقمة خبز وهيأت كأس شاي كان الثلث الأول بعد منتصف الليل قد انقضى!» ـ «أين ذاهبة الآن بهذه العجلة يا ننه أمر الله؟ اجلسي على مهل فأفطري.» ـ «ينبغي أن أذهب لأغسل الصحون.» ـ «الصحون! أية صحون؟» ـ «دعوة المأمور عيدي، أنسيت؟» ـ «لا. ولكن

الاتفاق كان أن تساعدي يوم الدعوة فقط . » ـ «ليعطك الله الخير يا بني . لن ينقصني ذلك شيئاً . يجب أن أذهب حتى يخجل المأمور عيدي مني!»] . ـ

المأمـور عيدي ليـس في البيـت . عندما يأتي ظهـراً يسحب شيرين جانباً وينقّ .

ـ لماذا أبقيت العجوز؟

ـ هي جاءت!

ـ ولتجئ!

ـ سبق أن قلت لك ، يداي توجعانني . لا أقدر . كل هذه القدور ، الصحون . . .

ـ إنها تتوقع أن أطلق ابنها!

ـ إذن ساعدها!

ـ ماذا أساعدها؟ كأنك لم تدركي!

ـ هو لم يقتل!

ـ قتل! قتل أميركياً!

تنظر امرأة المأمور عيدي مبهوتة . بدا صوتها ، حتى لها ، غريباً .

ـ أميركياً؟ قتل؟!

ـ نعم أميركي! رئيس شركة الحفر!

تتحير شيرين [ـ «تشتغل جيداً ، لا؟» ـ «جيد! ونظيفة جداً أيضاً . » ـ «تريدين من قلبك ألا تتوقع شيئاً؟» ـ «ليت الأمر يكون هكذا!» ـ «أن تبقى تشتغل وتأخذ مالاً؟» ـ «ليتها تقبل . » ـ «قولي لزوجك . »]

نعطيها أجرها، شهرياً

يحتدّ المأمور عيدي

ـ اصرفيها اللحظة كي تذهب!

يخرج من الغرفة

ـ ننه أمر الله!

يدا ننه أمر الله منقوعتان حتى المرفقين

ـ ممنون جداً يا ننه أمر الله، تجشمت زحمة كبيرة. كلي غداءك واذهبي

ـ يعني ألا أجيء بعد فأخدم؟

ـ لا، يا ننه أمر الله. أمس وحده كان كافياً. تعبتِ

ـ ولدي إذن، أمر الله؟

ـ إن حصل شيء سأمرّ بك

ـ أنت يا مأمور عيدي؟

ـ أعرف مكانك يا ننه أمر الله. بيت رضا الكبابي

تجلس ننه أمر الله. تسند ظهرها إلى الجدار. تجعل يديها على الأرض عموداً لبدنها.

[ـ «ها يا ننه أمر الله، لماذا انحللت؟» ـ «بقي تعب هذين اليومين في بدني!» ـ «قال إن حصل شيء فهو سيخبرك.» ـ «يكذب يا بني!»].

تنظر إلى المأمور عيدي ولا تقول شيئاً ـ تنظر بسماجة. كما لو أن المأمور عيدي أحبط. يلقي نظرة إلى اليسار ونظرة إلى اليمين ويدخل الغرفة مسرعاً [ـ

«خجلت أيها المأمور رئيس العرفاء؟» ـ «ممن؟» ـ «ننه أمر الله!» ـ «إيه!»] يعود .

ـ انهضي يا ننه أمر الله! انهضي وخذي هذه العشرين تومان[21] أيضاً فاصرفيها

لا تتحرك ننه أمر الله ، ولا تنبس بحرف أيضاً ، تكتفي بالنظر [ـ «ألا تخافين يا ننه أمرو؟» ـ «لم لا ، أخاف!» ـ «إذن فانهضي وروحي!» ـ «لا أروح! كذب عليّ ، أريده أن يفهم أنني فهمت!» ـ «رئيس العرفاء عيدي شمر[22]! سيرميك خارجاً!» ـ «أنا أيضاً جارية جدتي زينب! أفضحه!» ـ لا تزيدي إلحاحاً يا ننه أمر الله!»] .

يتقدم رئيس العرفاء عيدي ويأخذ طرف رداء ننه أمر الله .

ـ انهضي يا ننه أمرو ، انهضي واذهبي إلى بيتك!

خفيفة ، يرفعها من مكانها

ـ شيرين ، هات تلك العباءة

تأتي امرأة المأمور عيدي ، بلا رضا ، بعباءة ننه أمر الله .

ـ خذي ، وخذي هذه النقود أيضاً!

تأخذ ننه عيدي العباءة وتتجه نحو باب البيت [ـ «لمَ لم تأخذي النقود على الأقل يا ننه أمر الله!» ـ «لتنكبّ على رأسه!»] الورقة بين أصابع رئيس العرفاء عيدي . ينظر إلى العجوز حتى تخرج من باب البيت . يضع الورقة النقدية في جيب البنطلون [ـ «يا بلاش ، ها؟» ـ «لم يسبق أن رأيت امرأة بهذه السماجة!»] .

* * *

تتوقف الفولكس الصفراء [ـ «ها؟» ـ «نعم هي نفسها أيها المأمور رئيس

العرفاء، ننه أمر الله!» - «ماذا تفعل هنا في الصباح الباكر؟» - «أفلا ترى؟ إنها تدخن!»] يقفل المأمور عيدي باب السيارة. يذهب نحو قسم الشرطة. رأس ننه أمر الله يدور مع مسير المأمور عيدي - تعبى. يصْفق الحارس المناوب قدميه، يلوّح المأمور عيدي بيده ويدخل. ينطفئ المصباح فوق باب القسم.

ننه أمر الله جالسة مقابل باب بيت المأمور عيدي. عرض الشارع قليل، الذهاب والإياب قليل. رأتها شيرين مرتين، الأول من وراء النافذة والثانية من على سطح المنزل [- «لماذا ضاق خلقك يا شيرين خانم؟» - «قلبي يدلني على حادث سوء!» - «لا تتشاءمي يا شيرين خانم، العجوز لا تستطيع شيئاً.»].

اتكأت ننـه أمر الله بالجدار. الجو مشـمس. تدخن سيجارة. لم يبق وقت للظهر.

يأتي المأمور رئيس العرفاء. في البدء - يبدو أنه - لا يرى ننه أمر الله. ثم، عندما ينزل وعندما يرفع قبعته، وقت إغلاق باب السيارة وقفله، يرى العجوز [- «مرة أخرى ننه أمر الله؟» - «لا شأن لها بك أيها المأمور رئيس العرفاء.» - «لماذا إذن التصقت كالقرادة؟» - «لم تلتصق بأحد أيها المأمور رئيس العرفاء. تحس برداً، فجلـست في الشمس.» - «لا إله إلا الله!»] يدخل المأمور عيدي، مقطباً، المنزل.

- أرأيت يا شيرين؟

- منذ وقت طويل هي جالسة هنا، منذ الصبح، قبل الظهر

- كانت بباب القسم صباحاً

يتغدى المأمور رئيس العرفاء ثم يؤرث سيجارته.

- انظري ألاتزال موجودة؟

تنظر شيرين من النافذة.

ـ موجودة!

ـ ماذا تفعل؟

ـ نشرت منديلها، تأكل خبزاً

* * *

ينثّ مطر. أضواء الشارع العريض مُنارة.

ـ ننه أمر الله، إلى أين بهذا التبكير؟

ـ وراء سوء حظي يا بني

ـ هل جاء خبر عن أمر الله؟

ـ اليائس شيطان، يا ولدي!

صارت عباءة ننه أمر الله ندية، والحذاءان الخارجيان مبتلّين [ـ «ننه أمر الله، لا تتعبي حالك. امضي أبطأ» ـ «الآن يصل المأمور عيدي، يجب أن أصل!»].

ـ سلام يا ننه أمرو!

ـ سلام يا بني، ليعطك الله عمراً وعزّاً!

ـ ألم يفعل كل عبدول شيئاً يا ننه أمرو؟ أعني المؤذن

ـ لا، ليس بعد، يا ولدي

جدول الشارع مبتلّ. لا تجلس، تقف وتدخن سيجارة ملتجئة إلى طرف العباءة [ـ «رجاء، يا ننه أمر الله.» ـ «رأيته، سيارته صفراء.» ـ «ما فائدة هذه

الأعمال يا ننه أمر الله؟» ـ «أنا أيضاً لا أدري. كأنني أرضى!» ـ «ترضين؟ مم يا ننه أمر الله؟» ـ «كم تسأل وتحقق يا بنيّ؟ أريد أن أجعله يخجل!»]. تتوقف الفولكس الصفراء، تتوقف ماسحتا المطر عن العمل، ينفتح الباب.

ـ أنت هنا مرة أخرى؟

لا تقول ننه أمر الله شيئاً.

ـ اذهبي امضي إلى شأنك!

لا تهتز ننه أمر الله.

ـ أفصرتِ صمّاء يا ننه أمر الله!

لا تقول شيئاً.

ـ أو ربما بكماء أيضاً!

لا تحرك شفة، فقط تنظر.

يدخل المأمور رئيس العرفاء القسم بسرعة. لا تتاح الفرصة للحارس المناوب كي يصفق كعبيه. تؤرث ننه أمر الله سيجارتها. تنفتح النافذة اللولبية لقسم الشرطة، وجه المأمور رئيس العرفاء مقلّم كالسلالم. لا ترى ننه أمر الله، تسحب نفساً. تنغلق النافذة اللولبية.

* * *

تسعل ننه أمر الله [ـ «أصابك برد يا ننه أمر الله؟» ـ «نعم يا بني. حلقي وصدري يوجعان.» ـ «لا تخرجي من البيت يا ننه أمر الله، أوقدي المنقل، تناولي الأربعة بذور[٢٣]، في هذا البرد هيئي شاياً.» ـ «لا أقدر يا بني. في البيت أحسّني جالسة على مقلاة محماة!» ـ «باب منزل المأمور رئيس العرفاء أيضاً لا يعطي مراداً، يعطي؟»] ننه أمر الله، وهي تدخن، سعالها يابس. ترى قرب

ستارة نافذة منزل رئيس العرفاء عيدي عينين ظاهرتين [ـ «نفسه؟ المأمور عيدي؟» ـ «لا، شيرين خانم، يا ننه أمر الله.»].

* * *

ـ تعقب يا عيدي، إنها تجلس هناك منذ أربعة أيام

الوقت عصر. الجو غائم.

ـ فقط تدخن وتسعل!

يلبس المأمور رئيس العرفاء بنطلوناً.

ـ افعل شيئاً يا عيدي. اعطها مالاً، دعها تأتي إلى البيت فتشتغل ـ اشفق يا عيدي!

ينفجر المأمور عيدي.

ـ كفّي يا امرأة!

يلقي المعطف على كتفه ويخرج من الغرفة. تتجه السماء، بهدوء، إلى الشروع بالمطر.

ترى ننه أمر الله أن باب رئيس العرفاء عيدي انفتح، ترى أن رئيس العرفاء عيدي خرج. تسحب العباءة إلى جبهتها. يطرق المطر الناعم خديها. يقف المأمور عيدي، طويلاً نحيلاً، فوق رأس ننه أمر الله.

ـ ماذا تريدين يا ننه أمرو، صرت مزاحمة لحياتنا؟

تنهض ننه أمر الله من مكانها. لا تتكلم، تسعل.

ـ انطقي يا ننه أمر الله!

لا تفتح شفة عن شفة. تنظر.

ـ كفّي العناد يا ننه أمرو!

تتكلم .

ـ ابني!

ـ ابنك ماذا؟

ـ قلت إنك ستساعدني أنا العجوز!

ـ الآن أيضاً أقول ـ مكانه جيد ، هو مرتاح!

ـ عندك خبر عنه إذن . كنت أعرف!

ـ إنك تذهبين بصبري ، يا ننه أمر الله!

ـ أطوف بك ، بحق الله ، يا مأمور عيدي ، أصير فدى لأطفالك!

ـ لا إله إلا الله!

ـ رئيس إدارة الأمن ، يا مأمور عيدي!

ـ يا ننه أمر الله ، لا تفعلي شيئاً يجعل كفري ينطلق

ـ على عيني . على عيني يا مأمور عيدي ، على عيني هذه!

ـ اذهبي الآن . اذهبي ولا تظهري هنا . أنا نفسي سأخبرك

ـ أطمئن يا مأمور عيدي؟

ـ اطمئني!

تنظر ننه أمر الله في عين المأمور عيدي [ـ «اطمأن بالُك يا ننه أمر الله؟» ـ «ماذا أقول بالله ، لا أدري . » ـ «تظنين المأمور عيدي يستطيع شيئاً؟» ـ «لو أراد ،

نعم. يستطيع. تلك الليلة كان الجميع ضيوفه ـ رئيس إدارة الأمن، رئيس قسم الشرطة، الكل، الكل!»] .

ـ اذهبي إذن يا ننه أمروا!

يضاء المصباح وراء ستارة نافذة بيت المأمور رئيس العرفاء. الستارة، حمراء دموية. يأخذ المأمور عيدي ذراع العجوز ويوجهها. كلام المأمور عيدي ليّن .

ـ اذهبي يا أمي العزيزة. إذا حصل خبر، إنشاء الله، سأخبرك!

في نظرة ننه أمر الله المتعبة شك. تنطلق. يبتسم المأمور عيدي [ـ «لماذا تبث الأمل في نفس العجوز أيها المأمور عيدي؟» ـ «أنا؟» ـ «نعم! أنت.» ـ «أي أمل أعطيتها؟» ـ «نسيت كلامك؟» ـ «عجباً، ماذا قلت؟» ـ «نسيت أنك قلت لننه أمر الله: لا تيأسي يا ننه أمر الله. قلت: عرفت أشياء» ـ «إيه، يا بابا، قلت ذلك كي أفرح قلب العجوز!» ـ «من أجل فرح قلب العجوز أو لمساعدة شيرين؟» ـ «أعطيتها أجرتها!» ـ «ولكنها لم تأخذ.» ـ «هي حمارة!» ـ «أي ي، يا مأمور رئيس عرفاء، ننه أمر الله ليست حمارة. ننه أمر الله تصنع من كلامك لنفسها...» ـ «أدري، أدري. تبني أملاً!» ـ «حسناً، لماذا إذن قلت مرة أخرى: مكان أمر الله مريح، جيد؟» ـ «لكي أجعلها تنصرف، فلقد التصقت كالعلكة!» ـ «فقط؟» ـ «ماذا أفعل إذن؟» ـ «أفلا تحسب حساب قلب هذه العجوز المكسور؟ أيها المأمور عيدي.» ـ «ستنسى، يا بابا، اتركني!» ـ «إنها لا تنسى!» ـ «تصبّه وراء الصحن الكبير!»[٢٤] انتعش المطر. يتريث المأمور رئيس العرفاء بباب البيت، ينظر إلى ننه أمر الله. ابتعدت. خيوط المطر ـ القطرات متصلة ـ ستارة مرتعشة. ننه أمر الله كأنها لا تمشي. مرتجفة. ترتجف في مكانها.

* * *

تهيئ ننه أمر الله المنقل وتشعله. تصب على حب السفرجل، في الكأس،

ماء مغلياً. تقلي بيضتين نصف قلي. تصلي صلاتها، تنكفئ على المنقل وتؤرث سيجارتها. ساكتة جداً [- «بمَ تفكرين يا ننه أمر الله؟» - «بوحدتي يا بني!»] الكل نيام. ليس في الباحة من صوت [- «قومي لتنامي يا ننه أمر الله.» - «مازال مبكراً يا بني.» - «مبكر؟ منتصف الليل!» - «لا يأتيني النوم، يا بني. لست مستقرة!» - «أفهم وجعك يا ننه أمرو.» - «لا! لا أحد يفهم. لقد اسودّت عيني على هذا الباب، ولا أحد يأتي فيسأل عن حالي!» - «أفأنت تنتظرين أحداً؟» - «لقد قلت يا بني، أنا لا أحد عندي. بلا أحد. كلّ همّي من هذا - من وحدتي!»] يهتز باب غرفة ننه أمر الله. يستقيم طول رقبة ننه أمر الله المحني بهدوء. يتحرك الباب، بهدوء.

- أماه!

سمعت صوتاً؟ - تنهض من مكانها «هذا الوقت من الليل!» تتقدم.

- افتحي الباب يا أماه!

الصوت معروف؟ - «نعم، تبدو معروفاً!» تفتح مزلاج باب الغرفة. هو جاسم، ابن السيد جمشيد الدلاّك.

- سلام يا ننه أمرو!

يدخل مسرعاً ويغلق باب الغرفة

- سلام يا بني، في هذا الوقت من الليل!

- نعم يا أماه كنت مضطراً. وينبغي أن أذهب بسرعة أيضاً!

- إنشاء الله خبر جيد!

- تعالي يا أماه. تعالي اجلسي

تجلس ننه أمر الله. كأن روحها تتجدد. تريد أن تصب شاياً، كأنها

أضاعت حساب يديها ورجليها [ـ «ها يا ننه أمر الله، كأنك مسرورة؟» ـ «إنه يفغّ رائحة أمرو يا بني ـ رائحة الورد!» ـ «اخدميه كالضيوف.» ـ «إنني خجلة يا بني، لا شيء عندي!»] تصب شاياً. يقلب جاسم رماد المنقل.

ـ من أين دخلت البيت يا بني؟ فقد كان باب البيت مغلقاً!

ـ من الحائط يا أماه!

تتوقف يد أم أمر الله عن الحركة [ـ «تعجبت يا ننه أمرو؟» ـ «لماذا بهذا الشكل؟ كان يمكنه أن يدق الباب.» ـ «ربما لم يكن في الأمر صلاح!» ـ «لا أشم رائحة طيبة من عمله هذا!»] يأخذ جاسم رشفة من شفة القدح.

ـ يا أماه، أنت امرأة رأت الدنيا ـ شغّيلة!

لا تقول ننه أمر الله شيئاً.

ـ وأجرك عند الناس كثير! إنهم يعرفون قدرك!

تكتفي ننه أمر الله بالنظر [ـ «قولي شيئاً يا ننه أمرو.» ـ «ماذا أقول يا بني؟ الناس لا يدرون أصلاً إن كنت حية أم ميتة!» ـ «قولي هذا يا ننه أمر الله.»] لا تقوله. تستمع.

ـ إننا جميعاً نفخر بك!

ينقبض فؤادها. عندما صعقت الكهرباءُ رَجُلَها، كان هذا أول كلمات سمعتها في البدء. [ـ «حقاً يا ننه أمر الله؟ هذه الكلمات عينها؟» ـ «لا، شيء مثلها!»] تتنهد.

ـ كان أمر الله شريفاً، كان فؤاده يحترق لهموم الناس!

تنهار. «كان؟ يعني لم يعد كذلك؟» يرتجف صوتها.

ـ انطق كلامك يا جاسم. أي بلاء وقع على رأس ابني؟

يسكت جاسم. يريق ثمالة قدح الشاي التي بردت في حلقه. تمتد يده لترفع علبة سجاير ننه أمر الله. يندم. يسحب يده [ـ «لا قدرة لك على القول يا جاسم؟» ـ «لم لا، عندي. أراعي حال ننه أمر الله!» ـ «ينبغي أن تقول على كل حال.» ـ «أقول. يجب أن تعرف»].

ـ لماذا لا تنطق يا جاسم

يتردد جاسم

ـ لا تعذبني يا جاسم، قل!

يقول

ـ أنت، يا أماه. أعرفك بالغة الصبر! قلبك. . .

ـ أأصاب ابني مكروه؟

تحل الرعشة بصوت جاسم

ـ أنا أيضاً ابنك يا ننه أمرو!

ترى ننه أمرو بريق الدمع في عين جاسم. تصير صخرة ـ صلبة، عديمة النَفَس وعديمة الحركة. ثم، تنفك عقدة أنفاسها.

ـ أين قبره؟

لا يقول جاسم شيئاً. يريد أن يهرب، لا طاقة له على احتمال نظرة ننه أمرو الملأى سخونة «ليتني لم أجئ أنا!» يحمي عمود ظهره «ليت مرتضى جاء، أو أحمد.» يستقر العرق البارد على جبينه [ـ «قل يا جاسم. قل إنهم أعدموه» ـ «لا طاقة عندها، العجوز.» ـ «ولكن يجب أن تعرف.» ـ «لقد فهمت! هذا يكفي.»] يمسح بظهر يده رطوبة العين.

ـ قلت أين قبره؟

تمضي يد جاسم إلى السيجارة. سكوت. يؤرث السيجارة من بقايا فحم المنقل، يسحب نفَسين، يعطي السيجارة لننه أمرو، لا تأخذها، تواصل النظر إلى جاسم دون انقطاع. جاسم شارد الذهن، يضع السيجارة جنب المنقل وينهض فجأة من مكانه. صوته مكسور، انشرخ.

ـ سأجد قبره يا ننه أمرو. وأرسل فيأخذونك إلى تربته!

لا تجد ننه أمرو فرصة تقول فيها شيئاً. يمرق جاسم متعجلاً من باب الغرفة إلى الخارج.

ـ في أمان الله يا أماه!

ماذا تفعل ننه أمر الله الآن؟ ـ تنهض من مكانها «من أين جاء هذا اللسع؟ لماذا تجمدت هكذا؟» تتربس الباب «أطفأوا مصباح بيتي!» تجلس عند المنقل «إذن أيها المأمور عيدي. . لقد قلت إن مكانه جيد! مريح! ـ أين جاكتتي تلك ميتة الصاحب؟ لابد أنها تحت التراب! لم تر من حياتك خيراً يا بني! لم تر! ـ ها! نعم أعرف! اطمئني يا ننه أمرو! لا تيأسي! مريح! ـ إذن ما مرضي حتى أحس هذا القدر من الحرارة؟ بسم الله يا ننه أمرو، فوق، تعالي فوق، الماء في التراب، الريح في النار ـ إذن فأنت أيضاً؟! أنت أيضاً يا صيد عبد شاه؟ أوه انسلقت! حيف على شبابك يا بني، شبابك! ـ تزوجي يا ننه أمرو! تف على وجهك يا عيدي! بعثت فيّ الأمل لكي آتي فأقوم بخدمة شيرينك؟ بيت عامر يا صيد عبد شاه، بيت عامر! ـ لماذا إذن لا تُخرج هذه الجاكتة ميتة الصاحب عن بدني! اخرجي أيتها المقطوعة، انسلقتُ! أوف. . فه! ارتحت! ارتحت! تحت التراب ولابد! الماء في التراب! ـ بهذا البنطلون الأسود إياه يا بني! مرتاح الآن؟ أوي استعر قلبي! كم الدنيا حارة! النار في الماء يا ننه أمرو! اليائس هو الشيطان! المأمور عيدي! ـ نظيفاً، يا ننه أمر الله، نظيفاً! بالماء والصابون! ـ على عيني يا شيرين خانم! ـ انقعي الرز

أيضاً يا ننه أمر الله! ـ على عيني يا شيرين خانم، على عيني. عندي صبر أيوب! ـ أنت شديدة التحمل يا ننه أمرو، أنا أفتخر بك! ماذا أفعل بالافتخار، يا جاسم! أين أمر الله؟ أمكانُه جيد؟ يا بني، ذلك البنطلون الأسود كان غارقاً في الدم! هل اندملت ساقك الآن يا بني؟ توقف دمها؟ ـ لماذا إذن ترتجف يدي؟ ما مرضه قلبي الذي أصابه سهم بحيث لا يستقر؟ تثلجت! استقر! لم ترتجف إلى هذا الحد أيها القلب الذي أصابك سهم؟ ـ أين الجاكتة إذن؟ أين منديل رأسي إذن؟ تثلجت! ـ الفراخ يا ننه أمر الله، في الثلاجة! ـ على عيني يا شيرين خانم! هاااا الآن حسن! صار حسناً يا بنيّ، ارتحت! ـ شدي هذه القطعة الخضراء على زنده يا ننه أمر الله! ـ على عيني يا صيد عبد شاه! ـ وادفني هذه تحت مكانه. مكانك الآن جيد يا بني؟ أنت لم تكن تؤذي أحداً! لقد كنت تفهم الخير والشر! أثمة الآن من يناولك قدح شاي! في هذه البرودة، في هذا البرد البارد! لماذا لا تفارق الرجفة ميتة الصاحب يدي؟ أوي ما وجعي! هذا الكمّ لماذا هكذا؟ لماذا لا تدخله يدي؟ إي يا بني، جاكتة أبيك! أبوك يرحمه الله! ألم يرحموا شبابك يا بني؟ أليس عندهم شبان؟ أليس عند المأمور عيدي طفل؟ عنده! عنده إثنان! تف على لحيتك التي ليست عندك يا مأمور عيدي! ـ عندي الليلة ضيوف يا ننه أمر الله! رئيس إدارة الأمن! تعالي دخّني الأفيون، قولي عن الطلاّق أيضاً! شيرين خانم يدها تؤلمها يا ننه أمرو! أمر الله مكانه مريح. لقد عرفت بعض الأشياء! أجئ بنفسي فأخبرك!! لتقع النار في روحك يا مأمور عيدي! قتلتم ابني، ها؟ ـ شنقوك يا بني؟ أمثل خان[٢٥] البختيارية[٢٦] ذاك تأرجحت على المشنقة؟ هاااا، خان البختيارية يا ابني؟ كنت بخير! اذكر جيداً! في زمان ذلك المقبور! أعني أباه، كبير الكبراء! أنت أيضاً تأرجحت على المشنقة يا بني؟ في ساحة السجن؟ أووف ف! ماذا أقول يا بني؟ لمن أقول؟ أين أقول؟ الريح تحت التراب! التراب تحت الريح! في ساحة السجن! يوم الثلاثاء أيها المأمور! ليس للبيع. أيها المأمور، تقدمة! أطمئنُ أيها المأمور؟ الثلاثاء القادم؟ سأأتي يا أماه! آتي. إنني، أنا، راضية عنك! لقد راعيت حرمتي، يا بني! ليرض الله عنك! أردت أن تتزوج! أجلبُ عروساً! أووي لماذا تتضاحك ابنتا العقيد بهذا القدر؟ هذه المرة فكي يرتجف! كف عن الارتجاف أيها

المقطوع! دعني أحادث أمر الله! ليغمر النور قبرك يا بني! ماذا فعلت حتى وقعوا عليك كالكلاب المسعورة؟ - أتعاركت بالسكاكين؟ لا تيأسي يا ننه أمرو! تعالي دخّني سيجارة يا ننه أمرو، ذات فيلتر، جيدة لصدرك! ليصب صدريَ سهمٌ، إلهي آمين! وليصب سهمٌ رأسَ قلبك أنت أيضاً أيها المأمور عيدي بحق الخمسة أهل العبا[٢٧]! - اطمئني! الأحد أو الثلاثاء أو الخميس. أُخرجه من الحبس! وادفني هذه أيضاً تحت مكانه! لقد كنت حلاّل المشاكل يا صيد عبد شاه! لماذا إذن أنت أيضاً يا صيد عبد شاه! همّك أيضاً لا يقال! همّي! هاااا، أنا صارت ركبتي أحسن يا بني، فلا تحمل همّي! أوي احترق قلبي! - لم تر شيئاً من الحياة يا بني! لماذا لا تنفك هذه الأزرار؟ كم هو ساخن هذا المنقل ميّت الصاحب! خنقني منديل الرأس! أووف ف! ارتحت من هذه الجاكتة! لو تمكنتُ الارتياح من هذا الصدر سيكون الأمر جيداً! كم هو يحرق عسى صاحبه يموت! استقرا أريد أن أحادث أمر الله! هووف ف! الله نفسه سينتقم! أفلم ينتقم المختار[٢٨]؟ صاحب من لا صاحب له! طفح قلبي! طفح يا بنيّ! ملجأ من لا ملجأ لهم! سينتقم! عندي الله - الله هـ هـ! - يا قليل الحياء أجئتُ أستجدي؟ لعمل الخدمة عند شيرين خانم؟ - هيا خذي هذه النقود! لتأكل النقود رأسك! ابني يا مأمور عيدي، ابني! أمر الله! هووف ف -».

ضربت رائحة احتراق ورائحة دخان أنف ننه أمر الله. فتحت عينها ورأت طرف منديل الرأس انحسر عن رقبتها وسقط على تراب فحم المنقل نصف المنطفئ «أوي احترقت!» تزحزحت بثقل «أتمطر؟» كانت رائحة مطر، وعلى السقف كان صوت المطر الخفيف. رأت أن شق باب الغرفة يميل إلى الرمادي «وقت الصلاة.» يد على الأرض، ضربت يدها على ركبتها ونهضت. تقدمت مرتجفة. فتحت ظلفتي الباب. تيبست.

من علق هذا البنطلون الأبيض على رأس الدرجة المكسورة من السلم الخشبي كي تتصور ننه أمر الله، في هذا السَحَر المبلول الرمادي أن أمر الله، معلق أمامها على المشنقة.

الحواشي

(١) أم.

(٢) مختصر: أمر الله. فيكون اسمها: أم أمر الله.

(٣) العباس، أخ الإمام الحسين من غير أمه. حامل رايته وساقي جيشه في كربلاء.

(٤) نوع من مناديل الرأس التسوية.

(٥) سيجارة، ربما كانت أول إنتاج المعامل، شعبية رخيصة.

(٦) أسير الشام: إشارة إلى الأسرى من عائلة الإمام الحسين. زينب: أخت الحسين الكبرى. بي بي: الجدة، وهو لقب يطلقه الإيرانيون على السيدة زينب، التي صارت رمزاً للشجاعة، وللصبر والتحمل أيضاً.

(٧) مختصر: كربلائي، بمعنى زائر.

(٨) تسمى بعض الشوارع بعرضها.

(٩) حذاء، يكون عادة من المطاط، يلبس فوق الحذاء الاعتيادي لوقايته من الماء والوحل.

(١٠) مخفف «مشْدي» أو «مشْتي»، الذي هو بدوره مخفف «مشهدي»: أي زائر مشهد، مركز محافظة خراسان، حيث مرقد الإمام الثامن عند الشيعة الإمامية، علي بن موسى.

(١١) في حاشية الشارع ، لصق الرصيف .

(١٢) للكناية عن المسير بكبكبة واحتفالية أو بمباهاة .

(١٣) تلفون ـ فاتح باب .

(١٤) قماش أزرق داكن يستعمل لبدلات عمل النساء أو أزيائهن الموحدة .

(١٥) نوع من الكلاب ، هجن سلفه مع الذئاب .

(١٦) مثنى ، وما بعده جمع: سيْر ، وهو وحدة وزن تعادل خمسة عشر مثقالاً ، أي أقل من سبعين غراماً بقليل .

(١٧) مدفأة نفطية مشهورة العلامة .

(١٨) دليل نقاء نارها وكونها تدفئ .

(١٩) تفضلي .

(٢٠) صدر المجلس .

(٢١) وحدة نقد ملغاة ولكن اسمها لايزال يطلق على العشرة ريالات الحالية .

(٢٢) قاتل الإمام الحسين ، وصار رمزاً للشر والقسوة .

(٢٣) بذور أربعة نباتات ، تستعمل علاجاً للبرد وأوجاعه .

(٢٤) كلمة سخرية لا يمكن ترجمتها حرفياً لأنها تعتمد التلاعب اللفظي والسجع .

(٢٥) رئيس ، زعيم (العشيرة) .

(٢٦) عشيرة كبرى في إيران ، تعتبر نفسها قومية خاصة ، وتمتد أصولها إلى العيلاميين ، وكانت لها في بعض الأدوار مطامح سياسية . تمردت على أيام

رضا شاه، وذلك ما تشير إليه أم أمر الله، وتمردت في أوائل الخمسينيات على زمان محمد رضا شاه أيضاً.

(٢٧) أهل الكساء، النبي وابنته فاطمة وزوجها علي وابناهما الحسن والحسين.

(٢٨) ابن عبيد الثقفي، الذي قاد جماعة ـ وربما كان تحالف مع «التوّابين» أو أن جماعته هم التوابون ـ ثائراً بهم ضد الحكم الأموي انتقاماً (!) للإمام الحسين.

رضا براهني

ولد رضا براهني في تبريز سنة ١٩٣٤ . وقد أصدر حتى الآن سبع روايات وخمسة عشر دفتر شعر وأكثر من عشرة كتب في مجالي النقد والنظرية الأدبية . لقد فتحت أعماله النقدية الأدبية باباً جديداً في نقد الأدب الإيراني المعاصر .

عزل ـ هو الذي كان يدرس في جامعة طهران ـ من عمله بعد الثورة ، مع بدء التطهيرات ، وله الآن عدة سنوات في كندا ، وقد تولى ـ بالمناسبة ـ في السنة أو السنتين المنصرمتين رئاسة جمعية القلم الكندية . إن آخر رواياته «آزاده خانوم ونويسنده اش»[1] تقترح أسلوباً جديداً في كتابة الرواية الفارسية ، وقد اعتبرها بعض النقاد عملاً ما بعد حداثي .

للتاريخ السياسي ـ الاجتماعي الإيراني المعاصر أهمية خاصة في أعماله . تعالج رواية «آواز كشتكان»[2] التي صدرت سنة ١٩٨٣ ، حوادث الجامعة: الأساتذة والطلاب . ورواية «بعداز عروسي چه كذشت»[3] ، قصة معلم تعتقله شرطة الشاه السياسية وترميه في السجن . وفي رواية «چاه به چاه»[4] يعالج براهني ، في قلب الكفاح المسلح في إيران ، التحليل النفسي لأفراد سقطوا في أيدي السافاك[5] .

في «رازهاي سرزمين من»[6] يعالج الكاتب الأحداث التي تقع بعد انقلاب الأمريكان سنة ١٩٥٣ . نُشرت «قابلة بلادي» ، وهي فصل من هذه الرواية ،

في مجموعة أدبية بشكل مستقل سنة ١٩٧٩. في هذه القصة، يذهب رجلان غريبان لا يشاهد وجهاهما، من مكان بعيد، بفرس وفانوس، في منتصف الليل، إلى قابلة لتوليد امرأة على وشك الوضع، ويجلبانها معهم معصوبة العينين. كل شيء مملوء بالأوهام، غامض، وحتى مرعب. عندما تصل القابلة المقصد، ترى أن الحامل التي على وشك الوضع رجل؛ رجل بالغ التوقير ومحترم له حاجبان متشابكان كثان ولحية طويلة. تولد القابلة طفلاً ويعيدانها معصوبة العينين ثانية إلى بيتها. إن براهني في هذه القصة، كما هو شأنه دائماً، يقف على بعد معقول من الواقع. إن الحادث الذي ينقله يفتقد الواقعية العادية واليومية. ومع ذلك فإن ما يرويه قابل للتصديق. وربما كان ذلك بسبب اللهجة الصميمية التي اتخذها في رواية الحادثة. ربما كانت مسألة فكرنا بها مراراً ومع ذلك فلو ذكرها امرؤ على لسانه يكون رد فعلنا الأكثر آنية هو: لا، لا يمكن أن تقع هذه الحادثة.

ولكن كيف نصدق قصة براهني، نتولى دوراً في الحدث وحتى نيسر له أن يمر بنا بوصفه تجربة مرعبة حيناً ولذيذة حيناً آخر؟ عندما يبدأ براهني القصة، يمكننا أن نتأكد من شيء واحد، أنه يريد أن يحدثنا عن شيء مختلف. إنه بتشويه الحد بين الواقع والرؤيا يجعلنا فجأة نواجه هزة ذهنية: من أين تبدأ رؤانا؟ أفي النوم فقط توجد رؤى؟ لو أن إمكان رؤية الرؤيا في الصحو متاح أيضاً، فمن أين تبدأ هذه الرؤى؟ أيمكن رسم حد واضح ودقيق بين الواقعية الملموسة ورؤى اليقظة؟ إن القابلة تعبر هذا الحد مرتين أو ثلاثاً، وإذا ما أخطأنا في تعيين حدود هذا الحد فقط فلربما تصير كل واقعياتنا ما يشبه الرؤى وكل رؤانا واقعية خالصة. في انتهاء القصة يقوم حوار بين القابلة وابنها إياز، ربما كان هو حل هذا اللغز:

«يسأل الابن: ماذا جرى، يا أماه؟

ـ ماذا تظنه جرى يا إياز؟

ـ لا أدري . أسألك أنت ما الذي جرى؟

ـ بما أنك لا تدري ، فلابد أنه لم يحدث شيء» .

أمعلوماتنا هي التي تبني الواقع؟ ربما كانت خيالاتنا جزء من واقعياتنا أيضاً؛ ما أدرانا؟

الحواشي

(١) السيدة آزاده ومؤلفها .

(٢) نشيد القتلى .

(٣) ماذا جرى بعد العرس؟

(٤) من بئر إلى بئر .

(٥) شرطة الشاه السرية .

(٦) أسرار بلادي .

قابلة بلادي(*)

رضا براهني

ـ ١ ـ

عندما استيقظت صباحاً كان ذلك بدغدغة الريش الناعم لـ«چكَل» الذي كان «كرم» قد جلبه فوضعه جانب الوسادة وسحب حافة اللحاف بهدوء فوقه، وإذ كان چكَل يتحرك كان جناحاه القصيران ينسحبان على رأسي ووجهي حتى أيقظني أخيراً من النوم.

كنت لا أزال نعسانة متعبة، وطفل ليلة أمس الذي جاء متأخراً وآذاني جداً، إلا أنني كنت مسرورة، لأنه كان ولداً كبيراً نصف أسود نصف بني، وبمجرد أن نقفته نقفة خفيفة بكف يدي على وجهه، ارتفع صراخه وكأنما كسروا يده ورجله بالساطور. قصصت سرته، غسلته وتركته على خرقة نظيفة كانوا قد فرشوها جانب أمه، ثم رفعت رأس أمه على حفرة ذراعي. وأية عينان سوداوتان براقتان كانتا للمرأة! كان وجهها مثل قرص نحاس، من تلك الوجوه الريانة المتفتحة والجميلة التركمانية. كانت امرأة ضخمة، ولكن سنها صغيرة، ابنة سبع عشرة أو ثماني عشرة سنة، ومع ذلك كان هذا وليدها الثاني. فيما هي تحدق إلى وجهي وضعت طاس السمن والسكر المذاب جانب شفتيها شبه

(١) كل شخصيات هذه القصة خيالية، وكل شبه محتمل بينها وبين أناس واقعيين أمر اتفاقي تماماً.

المشقوقتين ألماً حتى أكلته إلى النصف، ثم دفعت بيدها الطاس وألقت رأسها على الوسادة. كان شعرها على الوسادة البيضاء متجانساً، تمري اللون.

كان زوجها يبدو مفاجأً ومحباً للخيال. كان قد أخذ بيده زجاجة فودكا كبيرة وراح يشرب في سلامة ابنه الثاني. قلت: يا مشدي، أنجز عملي كي أذهب. ومد يده في جيبه وأخرج ورقة عشرين توماناً فوضعها في كفي ثم خاط عينيه السوداوين في عينيّ. يا للعينين السوداوين! وكم كان يشبه زوجته. لابد أنهما كانا ابن عم وبنت عم.

كان شاباً ابن ثلاث وعشرين أو أربع وعشرين سنة. كان لا يكبر ابني كرم أكثر من سبع أو ثماني سنوات، ولكن قامته لم تكن أطول إلا بأربع أصابع. إن إياز الذي ذهب للجندية، كان سميناً بقِصَر نوعاً ما، ويشبه أباه، لكنه قوي بشكل عجيب. كان يرفع كرم إلى فوق رأسه ويضرب بشدة به الأرض. كان كرم يهجم من وراء، لا مفر له، يمسك أسفل بدن إياز في يده ويضغط. يصرخ إياز، يتلوى، يرفس، وتبدأ أم زوجي - التي هي قطعة جلد وعظم، وتحيا غالباً في بيت أخي زوجي، وقد فقدت نصف معدتها قبل سنوات في عملية جراحية - تضحك. لأمثال هذه الأمور تضحك أم زوجي نهاراً كاملاً. إنها امرأة بهيجة عديمة الخوف. تضيع في الأزقة، فتبدأ بالضحك. تدلق الشاي على رأس ابنها. يصير الحاج عصبياً ويشتم الأرض والزمان بإقذاع، ولكن الأم تغص ضاحكة، وفي حين يشتم الحاج المسكين حظه السيئ وأمه والأرض والسماء مقذعاً، تضحك أمه. يقول الحاج إن أمه وقعت مرة عن سطح البيت، في نومها، في منتصف الليل إلى الباحة وانكسرت رجلها، ظن الجميع أنها ماتت، ولكن الأم لم تكن لتبالي قط. كانت تضحك. تضحك على نحو ظن معه الجميع أن بلاءً وقع على رأسها وأنها جُنّت. وربما ستضحك وقت الموت أيضاً.

كان اليوم جمعة. رأيت من وراء زجاج النافذة إياز بلباس الجندية ينحني

على عش طيور كرم. كان كرم يملأ يده طيوراً ويخرجها. كان كرم قد ذهب إلى السطح بقميص مفتوح الياقة وسروال داخلي ضيق، في ثلج الشتاء. سقط ليلة أمس ثلج استقر، هذا الجو! ولكن عند الصباح طلعت الشمس، وأية شمس ممتلئة حسنة اللون! كان الثلج يبرق.

التفت فانحنيت على چكَل. يا للموجود العجيب! يا للحيوان الجيد! للطير رائحة خاصة تُسكر الإنسان. كان رأس منقاره بلون جذر أُظفر الإنسان، ثم يصير اللون أغمق قليلاً، وتتحرك عيناه، البريئتان، من الطرفين، مثل زرين صغيرين مصقولين. كان قلبه يدق، من وراء زئبر الريش الكثيف، سريعاً خائفاً. قلقت عليه. نهضت ففتحت النافذة، ناديت على كرم وأطلقت چكَل في الهواء. خفق الحيوان جناحيه، ثم خفق جناحيه أسرع ونتر نفسه من الارتفاع الخفيض فرفعها، ثم بقي الطيْران يخفقان في نقطة واحدة لحظات. قال كرم: الكافران، كأنهما غزالان. قال إياز: إنك أبله يا كرم، أبله. لقد أغلقتُ النافذة، لم أعد أسمع كلامهما.

كم كان البيت بارداً أول الصباح! ذهبت فتناولت من القبو ثلاث قطع حطب أو أربع وجئت بها إلى فوق، كان القبو أدفأ. لكنه كان مثل غار وقد ملأت رائحة الوحدة الرطبة كل مكان. وضعت الحطب في المدفأة. أدخلت خرقة في برميل النفط ثم أخرجتها وألقيت بها داخل المدفأة. كانت لرائحة النفط حدة خاصة، عندما أشعلت الثقاب كانت رائحة الكبريت المحروق جديدة أيضاً. ألقيت الثقاب في المدفأة وأغلقت باب المدفأة. ارتفع صوت دوي المدفأة، ثم عندما اشتعل النفط ونفد، ارتفع الصوت المحزون لاحتراق وطقطقة الحطب. كان احتراق الحطب هذا باعثاً على الغم بحيث ذاب فؤادي. من خلال بويب المدفأة، كانت الشعلات تكلم الإنسان.

فتح إياز وكرم الباب ودخلا، وأطلقا الريح والثلج أيضاً إلى الغرفة. فجأة ارتجفت كتفاي. صفن كرم في عينيَّ.

ـ ها أنت تبكين مرة أخرى يا أماه. أتذكرت جدتي؟

مسحت بيدها على رأسي. كم كانت يداها باردتين! كيف يقول المرء لابنه إنه لا يبكي أحياناً في ذكرى أحد ما، إن المرء لا يفهم أصلاً لماذا يبكي، ولربما تتوجد نقطة عميقة ولينة ودافئة، كنور الشمس الربيعية، في قلبه، وليس هذا أصلاً بالإحساس السيئ، بل هو إحساس فرح، وليس مبكياً أيضاً. ولكن الإنسان يغلبه البكاء من دون إرادة.

تقدّم إياز إلى أمام ووضع يديه حول وجهي. كان كما لو أنه أمسك عيني بين يديه. كم كان يشبه أباه في أيام شبابه! استولى عليّ حس شؤم غامض، كما لو أنني كنت أفتى ثلاثين عاماً وكان الحاج أيضاً أفتى ثلاثين عاماً، وأنني مددت مؤخراً قدمي داخل بيت الحاج. كانت عيناي قد جفتا، ولكن إحساساً غامضاً كان يجبرني أن أصفن على وجه ابني إياز. وكان إياز بدوره كأنه قد طُلْسم. كان ينظر إلي على نحو كأنه لا يراني أنا، كما لو أنه كان يريد أن يجد، من داخل عيني، طريقاً إلى شخص آخر.

ـ مرة أخرى بدأت مطارحة الغرام؟

كان صوت كرم الذي يوشك أن ينفجر حسداً، حررت وجهي من يد إياز ونهضت. كانت الغرفة قد صارت دافئة تماماً.

ـ اجلس أجلبُ لك فطوراً.

خرجت من الغرفة. لا أدري لماذا يدور رأسي إلى هذا المقدار. ما هذا الإحساس المشؤوم السيئ الذي استولى عليّ صباح اليوم، والعجيب أنني لم أكن أحس أدنى إحساس بالذنب. كان مثل ملعقة زيت وضعوها في مقلاة باردة، وكان تحت المقلاة يحمى ببطء، ثم يسخن، ثم يذوب الزيت ـ الذي كان في البدء على شكل قعر ملعقة ـ وينتشر، في البدء على شكل دائرة في حالة اتساع ثم لا يعود له شكل. كنت قد بلغت تلك اللحظة التي وصلت فيها

النار إلى درجة ستذيبني فيها بعد لحظة. ما كان كرم وإياز يفكران؟! لو كانت نسوتي المواخض يعرفن، ما كنّ سيقلن؟ ولكن أكان للآخرين أهمية. وإضافة إلى ذلك، وهل كنت أنا أدري أي إحساس هذا كي يعرف الآخرون. ولكن بعض الأمور يفهمها الآخرون أكثر من المرء ذاته.

ألقيت الزيت على المقلاة وسخنت المقلاة، ثم ـ عندما ذاب الزيت ـ ألقيت أربع بيضات في المقلاة، فارتفعت الرائحة الباردة ـ الساخنة للبيض الطازج في الزيت. رششت الملح. كان الحاج، صباحاً قبل الذهاب، قد أشعل السماور وكمخ الشاي. حملت السماور وأخذته فوضعته جنب المدفأة، ثم رفعت السفرة فالمقلاة الحارة وأخذتهما إلى داخل الغرفة. جلست وملأت قطعة خبز حصى[1] بالبيض المقلي وذهبت نحو كرم، فتحت فمه بالقوة ووضعت الخبز والبيض داخل فمه. صاح بفم مملوء ونصف محترق:

ـ احترق فمي، يا أماه، احترق فمي!

ـ الحسود يجب أن يحترق فمه! ويجب أن يحترق أنفه[2] أيضاً.

ضحك إياز وجلس إلى السفرة. جلست أنا أيضاً، ثم جاء كرم أيضاً وجلس وبدأ يأكل.

يسمونني الأم السعيدة. لم يعطني الله طفلاً خلال عشر سنوات، ثم أعطاني طفلين أحدهما الآن في الثامنة عشرة والآخر في الرابعة عشرة. ثم لم أحبل بعد ذلك. إن شغلي هو توليد الأطفال، وكانت أمي تمارس العمل نفسه أيضاً، منها تعلمت شغلي. وهي أيضاً كانت تعلمت شغلها من أمها. ثم أنني عملت ستة أشهر تحت نظر قابلة حكومية. تعلمت منها أشياء كان أكثرها عن جسد المرأة. لم تنفعني تلك الأمور كثيراً. وإنما كانت تجعلني، في بعض الأحيان، أتخيل أشياء.

كنت في الثانية عشرة من عمري عندما رأيت لأول مرة كيف يأتي الطفل

إلى الدنيا، لم أنس ذلك قط. كانت أمي تصرخ على امرأة بدينة جداً وضخمة الجسم:

ـ اسحبي نفَساً ثم اضغطي بقوة! اسحبي نفساً ثم اضغطي بقوة!

من بين فخذي المرأة، كان يخرج دم ومصل وفي بعض الأحيان ماء. كان فخذا المرأة مفتوحين مفتوحين وقد أُجلست المرأة على نحو بحيث لو أنها ضغطت كثيراً لاندلقت معدتها وأمعاؤها من بين فخذيها. وكم كان وجهها ساخناً وأحمر! كانت تزعق عالياً أحياناً، وتضغط أحياناً أسنانها على شفتيها، ولكن في كل حال كانت تسحب نفَساً أولاً ثم تضغط بقوة وكنت وأمي نجلس مقابل فخذي المرأة المنفرجين ونمسح معاً الدم والمصل، وقد انحبس نفَس أمي ولم أكن أنا أدري ما الذي كنا ننتظره. ومن باب المصادفات أن المعجزة وقعت في تلك اللحظة بالذات. حول جزء المرأة ذاك ارتسم تغضن آخر ثم تغضن آخر، وتراكبت هذه الغضون مع غضون ذلك المكان من المرأة، ثم صرخت أمي: «اضغطي! اضغطي!» وضغطت المرأة وضغطت أكثر ثم ظهر غضن آخر وغضون أخرى، ثم اتضح أن هذه الغضون المتداخلة كانت رأس الطفل، الذي كان يخرج، ووجهه. إلهي! أية معجزة! ثم جاء بدن الطفل. كان الطفل في يد أمي. كان هو من يبكي، وكنت أنا صافنة على حفرة اللحم الخالية التي كانت تلتم وتشخر بهدوء وتغرق غضونها في الدم، ثم جاءت المشيمة؛ شيء عجيب غريب، كرة دم، ثم، أغلقت حفرة المعجزة أبوابها اللحمية الجلدية الدموية.

وبعد ذلك رأيت مع أمي هذه المعجزة مرات ومرات ولم أشبع منها قط. ثم بعد أن ماتت أمي، طلب أهل المحلة مني أن أكون قابلتهم. كان الحاج قد تزوج قبلاً وماتت زوجته عند الوضع. بكي الحاج تلك الليلة كثيراً حتى احترق فؤادي على حاله. طلب مني في الصباح التالي أن أدخل في عقده. بعد أسبوعين أو ثلاثة صرت امرأة الحاج، بشرط ألا أفقد عملي أبداً. قال الحاج إنه لا مانع عنده. إن الحاج إنسان جيد، لا شكوى عندي عليه. ثم صار الحاج، في ظل

لياقـته، نقيب الحجـاج. ما الذي يفضل هذا؟! ولكنني أسـلمت قلبي لتلك المعجزة.

- ٢ -

عندما أتى الحاج إلى البيت ظهراً، كان أول عمل عمله هو أن أجرى مصارعة تامة العيار مع كرم وإياز. يعني أنه ما أن دخل، خلع معطفه وجاكتته وألقاها على المشجب، ثم قال لإياز:

- طيب، تقدم لأرَ يا بطل، ما الذي علمتك التكنة؟

- ليست الثكنة زورخانه(٣) يا أبت.

فقفز كرم إلى أمام وقال:

- يا أبي، إن استطعت صارعني أنا! تقدم، إن كنت تستطيع تقدم.

قال الحاج مازحاً:

- لا! أخاف منك، أنت تعرف الحيل والفنون. أنا أدري أن إياز لا يعرف الحيل والفنون!

- من أين تعلم كرم الحيل والفنون؟ إنه لا يعرف إلا أن يطيّر چكَل ويُضِلُّ طيور ملاعبي الطيور الآخرين!

فقلت:

- وأنت يا ابن المحروق(٤) تضل بنات الناس!

قال الحاج:

- يا لابن الحرام!

وقفز نحو إياز، ولكن إياز خطف نفسه والتف إلى ما وراء أبيه وأمسكه

من وراء وحاول أن يرفعه لكن الحاج غرز رجليه في الأرض. كما لو غاصت قدماه في قلب الأرض. رفع الحاج يده وأمسك رأس إياز بحلقة مرفقه وسحب الرأس. ارتفع إياز كالسوط إلى أعلى وتشقلب أمام الحاج لينطرح أرضاً. قال الحاج:

- أنا مستعد أن أصارعكم أنتم الثلاثة جميعاً.

غلبني الضحك وقلت:

- يا حاج، منذ متى صرت مصارعة؟!

التفت الحاج إلى ولديه:

- لنرَ من يفوز! إذا فزتما أنتما وأمكما سآخذ أمكما إلى مكة.

قلت:

- هذا أيضاً من وعودك الموكولة بالحصاد! إنك عازم على السفر غداً أو بعد غد. فكيف تريد أن تأخذني إلى مكة؟

- أنا نقيب الحجاج. ألا تتصورين أن أتدبر جواز سفرك في يوم أو يومين؟

قال إياز:

- لا مشكلة يا أماه. تعالي اقبلي الشرط!

وقال كرم:

- جيد جداً، وافقت الأم!

ثم قفز نحو أبيه. كانت عادة كرم أن يتكلم دائماً عن لساني. لقد تعلم بتلك السرعة أن يصير وصياً وقيماً عليّ.

ما أن رأى إياز كرماً في خطر حتى قفز نحو الحاج. ومضيت أنا أيضاً نحو الحاج وبدأت أدغدغ مناطقه الحساسة. كان الحاج يضحك، خلص نفسه من يدي، ورمى ابنيه إلى هذا الجانب وذاك فهربت، ولكن ما أن كان ابناه يشتبكان حتى كنت أشرع بالدغدغة مجدداً. إلى أن أمسك كرم بأحد ساقيه وإياز بالأخرى، وبينما كنت أدغدغه رفعناه إلى الهواء وألقيناه على بطنه فوق الأرض. سلّم الحاج.

عندما نهض كان يلهث وقال كرم:

ـ يجب أن تأخذ الأم إلى مكة، أنت الذي راهنت وخسرت.

أشار الأب إلى إياز أن يأتي بجاكتته. ألقى الحاج نظرة علي وغمز وبرقت عيناه شيطنة.

ـ تتصورون أنني أخسر عبثاً؟ ها، هل تتصورون حقاً أنني أخسر عبثاً؟

أعطى إياز الجاكتة بيد أبيه وبقي ينتظر. أخرج الحاج جواز السفر من جيبه وأعطاه بيد كرم:

ـ اقرأ!

عندما قرأ كرم وترجمه لي بالتركية، طرت نحو الحاج وشرعت أقبّله. لم أكن أخجل على الإطلاق من ولديّ.

ـ تصور، كل أولئك الناس جاؤوا من كل أنحاء الدنيا يطوفون. تصور أنني لبست لباس الإحرام. أو أنني ألقي الجمرات. أو أنني ضعت بين كل أولئك البشر وأنني أدور أبحث عنك.

قال إياز:

ـ أماه، المفروض أن تدوري حول الله، لا حول أبي!

فقلت:

- إنني أدور حول من يريد قلبي، ولا بد أن أجده أيضاً. اعلم أنني قابلة هذه المدينة، وإذا ما بحثت القابلة فإنها تستطيع أن تجده!

قال الحاج:

- لا تهذري بعد. يجب أن تبدأي العمل بأسرع وقت. لا ولادة عندك في هذه الأسابيع الثلاثة؟

فكرت دقيقاً وأجبت:

- لا أظن أن عندي ولادة إلى بعد شهر، ولكنني ينبغي أن أتكلم حتماً مع عصمت كي تمر على حواملي.

- ينبغي أن ترتبي كل شيء غداً!

كم هو ممتاز! كم هو جيد! كان طير مسكين قد جاء، استقر عند النافذة. انطوى على نفسه برداً. لم يكن كرم قد رآه بعد. تراجعت شيئاً فشيئاً إلى وراء جنب النافذة، وكنت أنظر على نحو طبيعي إلى الآخرين، ولكن انتباهي وحواسي كانت منصبة على شيئين: مكة والطير. فتحت النافذة على مهل. كنت أخاف أن البرد، عندما يهجم على الغرفة، سينبه الآخرين إلى قصدي. تحرك الطير قليلاً، لكنه لم يطر. كان بردانا جداً بحيث لم يكن فيه رمق. مددت يدي نحوه. هادئاً مطيعاً أليفاً جاء إلى حفرة يديّ. يا إلهي كم كان وحيداً! كم كان بردانا! أغلقت النافذة على مهل. وضعت الطير على صدري وأحسست مخالبه بين صدري. قفّ شعر بدني! كم كان رقيقاً! سحبت ثوبي فوقه، دفأته ثم جئت بطيئاً بطيئاً إلى وسط الغرفة. كنت أخاف أن يهدل من تحت فيفضحني. كان الحاج والولدان خافضي الرؤوس ويتهيأون ليتناولوا الغداء. كانت السفرة مبسوطة وصحن كبير يتوسط السفرة وكان المفروض أن آخذ

هذا الصحن فأصب فيه الدجاج وأجلبه فأضعه على السفرة. اقتربت، ووضعت الطير، الذي استعاد الحياة، على مهل، في الصحن. وقف الطير ونظر حوله بتردد لحظة ثم ـ ما أن كان يتردد ـ قفز الحاج وكرم وإياز، ثلاثتهم، نحوه. ولكن الطير غلب الثلاثة جميعاً، قفز إلى الهواء ولما لم يجد مكاناً يحط عليه جاء فحط على كتفي. قفزوا ثلاثتهم. كانوا مبهوتين.

سأل كرم:

ـ أين كان؟ من طيري؟

وسأل الحاج؟

ـ من أين جاء؟ فالنوافذ مغلقة!

وقال إياز:

ـ عسى ألا تكوني يا أماه قد ولّدت حمامة هذه المرة.

مددت يدي، رفعت الطير، أعطيته بيد كرم:

ـ ليس هذا من طيرك، لكنه لك. هديتي من مكة.

فقال كرم:

ـ يا للمكة الجيدة! يا للحج الجيد! هديتها نقدية!

سمّينا الطير ألناز. كم كان جميلاً! ولقد انتخب الحاج اسمه. إن للحاج تبحراً في اختيار الأسماء التركية الأصيلة. كان چكَل وألناز في الواقع ابنتي الحاج.

ـ ٣ ـ

كنت الليلة أحلم، وأي حلم!

أغرز يدي في حفر عميقة، حفر من لحم أحمر، لها أبواب دوّارة لحمية، وأخرج طيراً ملوناً من داخل الحفر. أشم الطير. تفغ الطير رائحة الحفر الحمر اللحمية، رائحة عجيبة ومخدرة. كنت أطيِّر الطير في الهواء، وكان للسماء لون محير خاص، لون قبب المساجد التي لم أكن رأيت إلا تصاويرها. كنت أضع فمي على تلك الحفر اللحمية الحمراء وأنادي. من؟ لم أكن أدري. كنت أقول: اخرج! اخرج! أريد أن أراك، بالله عليك اخرج! اخرج! أريد أن أراك! كنت أقبل أبواب الحفر اللحمية. كانت هذه الأبواب تفوح منها رائحة البحار وطعمها، ربما كانت تفوح برائحة «شرفخانه»[٥] لتنا إياها. يا للحال العجيبة الغريبة! ولست أدري لماذا لم أكن أحس بالذنب. لم أكن أحس خجلاً. كم كنت حرة! وكانت شفتاي، من الملح الذي لعقته، مالحتين، وكان لساني ينسل، مائلاً، على شفتيّ، وعندئذ كانت رائحة الحفر اللحمية تضاف على طعم اللحم المملح، طعم أشياء كالأشنات البحرية أو شعر الأماكن النسوية الخفية. ومرة أخرى، كنت أضع فمي على إحدى الحفر اللحمية وأصيح، وبأي ارتفاع! وبأي هيجان! بحيث كنت أنتقع من الهيجان عرقاً، يقف شعري، أي سرور عميق! اخرج! اخرج! أريد أن أراك، بالله عليك اخرج! اخرج! وكما لو أن هذه المناداة كافية وحدها للالتذاذ، ولم أكن أريد أن يخرج من هناك أحد. ثم كنت أملأ يديّ طيراً، كلها طير إناث، وأمد كفّي يديّ نحو السماء وأغطي كل سطوح المنازل بأجنحة الطير. ثم، كنت أذهب ثانية إلى زيارة الأبواب اللحمية، أغوص عن قاعات مبللة وملونة، اخرج! اخرج! ثم رأيت حشداً عظيماً من النسوة العاريات، من أين جئن حقاً، إلى أين يذهبن؟ كم كان عندهن أرجل وأعقاب ناعمة! عندما كن يسرن كأنهن كن يخفن أن يستيقظ أحد، أو ربما كن يخفن أن يصحين هنّ أنفسهن. مجموعة مجموعة، مئة مئة، مئتين مئتين، ألفاً ألفاً، عاريات صامتات، كن يمشين. كما لو كن يسرن جميعاً في النوم، وكانت وجوههن جميعاً بالقدر نفسه والقياس نفسه، وكن جميعاً بالقدر نفسه جميلات، بخدود بارزة نسبياً ونصف تركمانية وأعين

صافية، بلون عسل سبلان[٦] الطازج. ومع ذلك كنت لأأزال أنادي: اخرج! اخرج! أريد أن أراك! اخرج ناشدتك الله! وكانت النساء، بأعقابهن تلك وكعوب أعقابهن التي تشبه ريش النعام نعومة، بعيونهن البسيطة تلك، العسلية عديمة الزينة، وكان العالم مملوءً نساء عاريات، نساء طليقات.

ثم تبدل جو حلمي. في شاحنة، على حصباء وحصى، كنت جالسة وأمضي. إلى أين؟ لم أكن أدري. كان سائق الشاحنة الحاج. على البعد كانت القيامة قائمة. كان المفروض أن أرمي الأحجار، كلها، نحو الشيطان. كانت النساء والرجال قد لبسوا الإحرام، وكم كانوا جميعاً جميلات ووسيمين وشبّاناً! كانوا جميعاً في السن نفسها، كما كانت وجوههم شبيهة بعضها. كما لو كان النساء والرجال من جنس واحد فقط. ولكنني لم أفهم ما كان جنسهم. فوق رؤوسنا، كانت طير كرم تطير في مجموعات من خمسمائة طير وستمائة. من أين جاء كرم بكل هذه الطير؟! ثم رأيت الحاج واقفاً، فوق مرتفع إلى جانب رجل نوراني جداً يأكل معه التمر. من ذلك التمر الملتصق ببعضه. كم كان يليق بالحاج أن يقف جنب رجال نورانيين ويأكل معهم التمر! ثم، رأيت المرحومة أمي وقد ألقت نفسها بالحجر الأسود. كانت تريد أن تشق الحجر وتدخل فيه. كان الحجر عارياً عارياً. لا مثل شيء يراه المرء في التصاوير. حجر صاف، مصقول، كبير، جوانبه مدببة جيدة الخرط. وقد ألصقت أمي وجهها بالحجر وكأن سطح الحجر لم يكن حجراً، وإنما زجاجة، وخلف الزجاجة أسرار كان يجب أن تدرسها أمي بدقة. وبعد لحظة لم يعد الحجر على الأرض. كان يتحرك في الفضاء ويذهب، ولكن لم يكن ثمة فرق بين ذهابه وإيابه. شيء أسود هندسي وفي حالة سقوط دائم، من دون أن يصل. ثم، كانت تأتي رائحة دم جديد، كانت خرفان نصف مذبوحة تحت أرجلنا، عسلية العيون، سكرى موتاً تحت شمس مكة. عندما كنا نطوف، لاح لي أنني كنت جالساً على عجلة دوامة خيل، ودوامة الخيل تتحرك بسرعة مدوخة، وأنا أضحك وفي الوقت نفسه أخاف اضطراباً وقلقاً. كنت أصرخ عالياً، أضحك،

وأريد أن أقفز باستقامة إلى أمام ـ بدل أن أدور دائرياً ـ مثل رمح ينقذف أسرع من النور والصوت فيصطدم بحجر، حجر وسط السماء. ثم، كنت أنا أسقط، لا أدري من أين. لم يكن المحل الحقيقي لرأسي وقدميّ معلوماً، لكنني كنت أسقط باستمرار. ثم أحسست أنني أُضرب ـ وأنا أسقط ـ ركلات شديدة على قفصي الصدري، على قلبي. يا إلهي، أية ركلات عديمة الشفقة وشديدة! لم يكن أحد ضربني حتى اليوم على هذا النحو من دون شفقة!

فجأة نهضت. كان الحاج قد أشعل الفانوس ويغادر الغرفة. كان صوت الباب هو ما يأتي. يا للصوت المشؤوم! كانت قبضات شديدة تدق على الباب. لابد أنه مضى نصف ساعة والباب يُدق. يا للقبضات! لا تتألم!

ثم سمعت الحاج فتح الباب. سُمعت أصوات رجالية عالية. ثم، عاد الحاج فجاء من دون أن يغلق الباب. كان نور الفانوس يحرك هيكل الحاج على الجدران على هيئة غول.

ـ إيه! إيه! قومي، إيه! يريدونك!

ـ أنا صاحية يا حاج، ماذا حصل؟

ـ قومي! جاء شخصان يطلبانك. عندهم امرأة على وشك الوضع. كأنه مكان بعيد. جاؤوا مع خيل!

ـ مع خيل؟ أفلا توجد قابلة قربهم؟!

ـ يقولون إنهم ذهبوا وراء واحدة أو اثنتين، ولكنهما كانتا مشغولتين. هيا انهضي! الجو بارد جداً! لا يجوز تأخير امرأة على وشك الوضع!

ـ أتأتي معي أنت أيضاً؟

ـ لا . . . ، لماذا آتي أنا؟ لابد أنهم ناس طيبون! إن مظهرهم يدل على أنهم ناس طيبون.

لبست ملابس صوف. كان لدى الحاج معطف صوف. ارتديته. لبست جوارب صوفاً. وضعت شادري على رأسي. جاء الحاج إلى الباب بالفانوس. عند الباب كان رجلان طويلا القامة جداً واقفين. لم يكن يُرى وجهاهما، كان بخار فميهما يختلط مع بخار أفواه الخيل. يا للهياكل الرجولية! لم أكن رأيت رجالاً بمثل تلك الهياكل والقامات في أي مكان.

كان عندهم ثلاثة خيول، ثلاثتها بسروج وعدة معدنية. وكانت الخيل أيضاً مرتفعة جداً. كان يتصاعد من أجسادها بخار، وتدق الأرض بين أوان وآخر وتشق الجليد بحوافرها. كان كل شيء يبدو وكأنني أواصل رؤية حلمي ولم أستيقظ بعد.

ساعدني الحاج كي أركب الحصان. وضع قدميّ في الركاب. ثم قال:

ـ هذا لجامه. لا تتركيه. انتبهي لنفسك!

ـ في أمان الله.

ـ في أمان الله.

كان سلوك الحاج وكأن ثمة بينه وبين هذين الرجلين اتفاقاً موضوعاً سلفاً. كم كان الليل قد جعلني سيئة الظن!

ودّع الرجلان الحاج، بأصوات تصدر من المخرج نوعاً ما. عزوت غرابة صوتيهما لليل والجليد والظلمة. عطفنا رؤوس الخيل. انطلقنا؛ أنا على ظهر الحصان الأوسط وأحد الرجلين من أمامي والآخر من خلفي. كانت حوافر الخيل تصطدم أحياناً بالحجر الذي بقي، بالمصادفة، خارج الجليد. كان صوت الحوافر يرتفع وفي بعض الأحيان تشاهد حتى شرارة. لم يكن في الزقاق أحد قط، وعندما وصلنا إلى رأس الزقاق، ترجل الرجل الذي كان على ظهر الحصان الأمامي وجاء نحو حصاني. كان الرجل الخلفي قد ترجل أيضاً ويتقدم

نحوي. لماذا؟ أنزلاني عن الحصان. كانت الليلة غارقة في الجليد، ومع هذا لم يكن ممكناً تشخيص وجهي الرجلين. أخرج أحد الرجلين منديلاً من جيب ومضى إلى ورائي فألقى المنديل حول رأسي وشد عينيّ! سألت، لماذا تفعل هذا؟ ما تريد أن تفعل بي؟ افتح عينيّ! ومددت يدي نحو عصابة العين.

خطف أحد الرجلين يدي في الهواء وخفضها باقتدار.

- لا تخافي أيتها القابلة، لا شأن لنا بك. إننا فقط لا نريدك أن تعرفي إلى أين نأخذك. اطمئني إلى أننا سنعيدك سالمة إلى بيتك.

قلت:

- لو تسمحان بأن تبقى عيناي مفتوحتين، أقطع عهداً بألا أقول لأحد شيئاً.

قال الرجل الثاني:

- اعلمي أنك لو قلت شيئاً لأحد سنعرف ونقتلك!

فقلت:

- ما الذي جرى؟ أفليس المفروض أن أولّد طفلاً؟

قال الرجل الثاني:

- نعم، من المفروض أن تولّدي طفلاً، فقط! ثم نعيدك إلى بيتك!

قلت:

- لماذا إذن تشدان عيني؟

فقال الرجل الأول:

- ستفهمين فيما بعد لماذا.

لم يتكلما بعد ذلك. كان قد غلبني البكاء. وكانا يعرفان أنني أبكي. ولكنهما لم يوقعا عذاباً وأذى غير شد العين. رفعني أحدهما ووضعني على ظهر الحصان وأعطاني اللجام بيدي وغرز رجليّ في الركاب. إلهي، أين يأخذانني؟ ثم أدار الخيل مرتين أو ثلاثاً على نحو دائري كي لا أعرف في أي اتجاه نتحرك. ذهبنا أولاً إلى منخفض بسيط ثم مرتفع بعده منخفض فمرتفع وكان الهواء يأتي من أمام فيضرب رأسي ووجهي وجسدي بشدة. كنت أفكر أحياناً أن أترك اللجام وأزيح عصابة العين بيدي فأرى إلى أين نذهب. ولكن الحصان الذي كنت أمتطيه كان بين حصاني الرجلين ولابد أن الرجل الخلفي كان يرى ما أفعل ولم يكن ليدعني أرى أطرافي، وربما سيصيران عصبيين وينفذان، عملياً، التهديد الذي كانا أطلقاه. كان يبدو أننا خرجنا من المدينة وأننا نجري عدواً في الصحارى المحيطة. كانت الخيل تمضي مسرعة. كنت ألتذ من حركة الخيل، ولكنني قلقة. ليت الحاج كان اقترح أن يأتي معي. ثم صعدنا مرتفعاً وهبطنا على جادة ضيقة جداً يبدو أنها جبلية. كنا نمضي صاعدين نحو ساعة. كانت الخيل تمضي بمشقة الآن. من هذه التي تلد طفلها في أعلى جبل؟ كان جسدي قد تخشب لكثرة الانتصاب وقد تجمد اللجام في يدي. ولكن حصاني كان يمضي خلف الحصان الأمامي. لابد أن الحصان كان يعرف أيضاً أن امرأة مسكينة مشدودة العين تجلس فوقه. عندما بلغنا ذروة الجبل، لم تعد الخيل تلوب، فكانت تلف الشريط المسطح، من جنب الحاشية الصخرية والهوة ولابد، وتمضي. ثم توقفت الخيل وترجل الرجلان عن ظهور الخيل وأنزلاني أنا أيضاً، وأدخلاني - على ذلك النحو؛ مشدودة العين - إلى بيت. كانت همهمة عجيبة تُسمع داخل البيت. كانت تفوح رائحة خاكينه[٧] ورائحة زيت مسخن على حطب. لم يكن يُسمع صوت امرأة. ربما كان الطفل جاء إلى الدنيا قبل مجيئي. ولكن صوت طفل أيضاً لم يكن يُسمع. كان الرجال يهمهمون ويتحدثون فيما بينهم همساً. ولم يكن يُسمع صوت أنين امرأة على وشك الوضع. كنت واقفة والشـادر حول رأسي وعصابة العين فوق عينيّ حتى يقال لي ما أفعل. كنت أحس رعباً.

سألني رجل:

- من أجل شغل الماخض ، ما الذي تحتاجين إليه؟

- أريد أولاً أن أرى الماخض ، أفحصها .

- ليس ضرورياً أن تريها من أجل الفحص! للماخض أربعة أيام وهي تريد أن تضع . لقد مضت حتى أربعة أيام أو خمسة على وقتها . قولي فقط ما الأشياء التي تحتاجينها .

سألت:

- ألم ترَ قابلة أخرى الماخض؟

فقال:

- لا! كنا نظنها ستلد بنفسها ، ولكننا توصلنا أمس إلى نتيجة أنها غير قادرة على هذا العمل بمفردها .

- أريد ماء مغلياً بُرِّد قليلاً جداً . أريد صابوناً . أريد كاسة زيت مذاب ، ولكن بارد . أريد مقصاً ومصباحاً . إذا كان الفانوس شديد النور فلا بأس ، لا مانع هناك .

- عندنا كل هذه الأشياء .

- دعوني إذن أرى الماخض .

أمسك أحد الرجلين مرفقي وسحبني فأخذني إلى زاوية وقال:

- اسمعي ، إن تحدثت في مكان عما ترين ، سنقطع رأسك .

قلت:

- أفليس المفروض أن أولِّد ماخضاً؟

فقال:

ـ نعم، ولكن هذه الماخض ليست ماخضاً عادية. سترينها الآن، ولكن ما أن تخرجي من غرفة الماخض، عليك أن تنسي بعدئذ أنك رأيت الماخض.

ـ ما الذي تريدون إيقاعه برأس امرأة مسكينة؟ ليس عندي ما أقول. إنني أريد توليد طفل الماخض ثم أذهب لشأني.

ـ أحسنت أيتها المرأة الطيبة، أحسنت أيتها القابلة الجيدة!

أمسك بمرفقي واقتادني بحذر إلى داخل غرفة أخرى ثم إلى داخل غرفة أخرى.

ـ ستجدين الماخض الآن بنفسك. وعندما يولد الطفل نادي، وسنأتي.

فقلت بعصبية:

ـ هل تقرر أن أولّد الطفل معصوبة العينين؟

فقال الرجل:

ـ آها، صحيح، اعذريني، نسيت، أديري لي ظهرك، لا يحق لك أن تستديري فتريني. سأرفع العصابة وأذهب. لن يساعدك أحد قط. تولّدين الطفل ثم تنادينا.

أوليت الرجل ظهري فرفع العصابة، أغلق الباب، ومضى.

لم يكن شيء يُرى في الغرفة. تعجبت وفركت عينيّ. أردت أن أتأكد أن أحداً لم يكن يمزح معي. كان جدار جديد يُشاهَد لا يزال مبتلاً وكأنما بُني في اليوم السابق فأعمى عين النافذة المطلة على الخارج. كانوا قد وضعوا الوسائل التي أحتاج إليها جنب الباب. ولكن أين كانت الماخض؟ دخلت من الباب المواجه للباب الذي سبق أن دخلنا منه. في الغرفة الأخرى أيضاً لم يُشاهَد أحد.

كانت غرفة خالية، وكالغرفة السابقة فرشت أرضها بحصير. تعجبت. وهل هنا مسجد؟ ولكن من تحت الباب المغلق للغرفة الأخرى كان يلوح نور. لابد أن الماخض كانت في الغرفة التالية. كانوا قد أعموا نافذة الغرفة الوسطى أيضاً بجدار. عدت إلى الغرفة السابقة وأخذت اللوازم كما تناولت الفانوس بيدي وذهبت ففتحت باب الغرفة التالية. في البدء، لم يكن يُرى شيء. تصورت أن الماخض لابد أن تكون في غرفة أخرى. أو أن كل هذه الواقعة مزحة قبيحة لا أكثر. وضعت اللوازم جنب الباب وما أن أغلقت الباب حتى انتبهت إلى رائحة فظيعة لم تكن وصلت أنفي من قبل. ربما مات الطفل في بطن الماخض؟ ولكن لا! لا ينبغي أن تصدر رائحة كهذه عن طفل ميت! وإضافة إلى ذلك فقد سمعت أيضاً صوت تنفس إنسان في الغرفة. كان ظهر هذا الإنسان نحوي وكان يتنفس أنفاساً قصيرة وطويلة، ومن دون أن يسمع من أحد كان يضغط. كان له رأس كبير وقد غُطي بقطعة قماش. ولكن هيكله كان عجيب الضخامة. لابد أن الطفل لم يكن يأتي بسبب سمنة الماخض، أو أن الطفل قد اختنق.

سألت من ورائها بصوت خفيض:

ـ أيوجع كثيراً؟

لم أسمع جواباً. مضيت إلى أمام قليلاً. كان صوت النفَس أقوى ورائحة التعفن أحدّ. كررت سؤالي. تحرك الرأس الضخم الذي كان بقي تحت القماش ولم يكن يُرى. يا للرأس الكبير المكور! ويا للثقل الذي يتحرك به، إلى أمام، إلى وراء، ومرة أخرى إلى أمام وإلى وراء. ولكن صوتاً لم يكن يند عن الرأس. بعد بضع لحظات، وقف الرأس في مكانه. أنا التي كنت قد مضيت إلى أمام لم أكن أرى شيئاً من رأس الماخض. كان شيء كالنقاب قد عُقد على رأس الماخض ووجهها، وأنزلوا على هذا النقاب، حول العنق، شريطاً مطاطياً. كان النفَس يصعد ثقيلاً من وراء النقاب وثقيلاً ينزل. ولكن، يا للهيكل الضخم غير المعيب! إن امرأة بهذه الضخامة لا توجد في أي مكان في الدنيا. كانوا قد

وضعوا الماخض على النحو الذي كان يجب أن تلد فيه. كانوا قد ألقوا شرشفاً غامق اللون على ساقي المرأة وأدنى جذعها. من تحت الشرشف كانت تخرج رائحة التعفن الحادة. ولكن كان واضحاً أن الفخذين كانتا طويلتين، قويتين، سمينتين، ويمكن القول حتى عظيمتين. بقيت قدماها خارج أدنى الشرشف. كانتا قدمين ضخمتين متورمتين. لابد أن الماخض لم تلزم حمية، وقد أكلت أثناء الحمل ملحاً كثيراً أدى بجسدها إلى هذا الورم. لم تكن أدنى ظرافة تشاهَد في ساقيها. كان عقباها معقدين ووسخين. كانت هذه الموجودة مرعبة إلى حد أنني نسيت أن أرتعب منها. لقد سدت الدهشة الطريق على رعبي.

مددت يدي كي أزيح الشريط المطاطي عن عنقها ثم أرفع النقاب. هزت رأسها بفظاظة تحت النقاب ومن هناك، من تحت، صرّت أسنانها ثم بدأت بالأنين، أنين من قعر الحنجرة، من دون جنس، كان يشبه في البدء أنين وجع أسنان شديداً، ثم شرعتْ رسمياً بالعياط والضغط وسحب الأنفاس. مع أنني لم أعرف عياطاً من هذا النوع عند أية ماخض، إلا أنني ازددت توجعاً على حالها. موجود بهذه الضخامة يتوجع ويصرخ مثل حيوان انكسر ظهره أو عظم ساقه. ولكن لم يكن يلاحظ في العياط أي شيء أنثوي. من كان هذا القابع وراء النقاب يعيّط ويشبه عياطه أنيناً عصبياً لحيوان بدائي؟

أردت أن أرفع الشرشف عن ساقيها وأفحصها في ضوء الفانوس. حركت ساقيها بعصبية. انطبقت ركبتاها وأخرجت يديها من تحت الشرشف فعقدتهما واتخذت وضع تهديد، كما لو كانت تريد أن تنهض وتخنقني.

كنت قد رأيت كثيراً من المواخض المجنونات سريعات الغيبوبة والمصروعات. كنت أدري أنه لا شيء ينقل المرأة من حال إلى أخرى كالولادة. كنت أدري أن المرأة أعجب موجود في الدنيا. أن جسدها ينتقل من حال إلى حال. كنت سمعت من القابلة الحكومية أن المرأة تبيض بعد أربعة عشر يوماً من عادتها الشهرية، ترتفع حرارتها ثم تنخفض فجأة وتمضي المرأة مسرعة نحو

العادة الشهرية. من كل التسعة أشهر وبضعة أيام يمكن أن تلد طفلاً. يتحول دمها إلى حليب وحليبها إلى دم. حمل المرأة حركة عجيبة. تفتح بهذا العمل طريق جسدها نحو الخلق، تجعله جزءً من جسدها ثم تخلق. المرأة سكرى بالخلق. كانت أمي تقول إن كل علوم العالم تتم تجربتها بوساطة جسد المرأة. وكذلك كل الفنون. كيف تفهم أمي كل هذه المسائل؟ قالت مرة إن الواحدة عندما تحبل تكون قد جربت الدنيا. ولكن لا شيء مثل الحبل. إن الضغط الداخلي يجنن المرأة. ثم يأتي الطفل إلى الدنيا. صحيح أن فيه عذاباً، ولكنني أعرف نساء التذذن من الوضع أكثر مما التذذن بالنوم مع رجل. موجود غير معروف يشق من الداخل جسد الواحدة فيزحف إلى الخارج. أعرف امرأة كانت تصيح وقت الوضع: كم هو جيد! يا إلهي كم هو جيد! يا للذته! ما من لذة أعلى من هذه! إلهي دع لذة الوضع تستمر! ثم عندما يولد الطفل، ثمة هدوء لا يساويه شيء. يقف البحر المتلاطم. يستريح جسد المرأة. إن بدن الرجل محروم من كل هذه التغييرات والتجارب واللذات والآلام. ولهذا السبب للمرأة قدرة تحمّل أكبر.

كنت أتوسل بألف حيلة كي تجرب الماخض كل هذه الآلام واللذات. صرخت بالماخض:

ـ انظري، إنني لا أدري من أنت. لقد حملوني في منتصف الليل فجلبوني إلى هنا، بعصابة عين وتهديد وخطر، على ظهر فرس، في البرد، ولكثرة ما مثّلوا وجاؤوا به من حركات وكلام نفرت منهم جميعاً. ولكن عندي واجباً. لا أترك الماخض حتى تضع وليدها. إن كنتِ ماخضاً، دعيني أولّد طفلك، وإن لم تكوني ماخضاً فلأذهب لشأني.

نهضت فانطلقت. كنت لا أزال أعيط. عياط اعتراض. فتحت الباب وجئت إلى الغرفة الأخرى. أردت أن أفتح الباب فوجدته مقفلاً من الخارج. ضربت بقبضتي على الباب. قال صوت من وراء الباب:

ـ أولد الطفل؟

ـ لا! لم يولد. لا تريد هذه الماخض أن تضع طفلها. لا تدعني حتى ألمسه. إن لم أمسها، فكيف أولّد الطفل؟

فقال الصوت الذي وراء الباب:

ـ ما لم تولّدي الطفل، لا تستطيعين أن تخرجي من هنا! أفهمت؟

انقطع الصوت وابتعدت قدما صاحب الصوت عن وراء الباب.

قرعت بقبضتيَّ الباب، وهذه المرة بصوت أعلى من السابقة. ولكن ما كان صوت يأتي من الخارج. كأن جميع من على طرف الباب الآخر ماتوا. عـــدت إلى غرفـــة الماخض مضطرة. كانت آهات الماخض وأنينها وعياطها عالية ماتزال.

ذهبت فوقفت في زاوية وفكرت ماذا أفعل. هذا الهيكل بهذه الضخامة كان، بسبب وضعه غير المناسب، أضعف من أن يستطيع إيذائي. قفزت عليها فجأة وتشبثت بكلتا يدي بالشرشف وأبعدته عن بدنها. بقيت يداها وأدنى جذعها عارية تماماً. كان القسمان مُلحمين ومملوءين بالشعر، ولكن يبدو أن اللحم شديد ومعضل. كانت قد ألصقت ركبتيها وفخذيها معاً. كان بطنها الكبير منفوخاً مثل كرة كاملة، قد اتكأ على ركبتيها. ولكن البطن الكبير بقي داخل القميص الطويل الذي كانت ترتديه. كانت قد جمعت قبضتيها ورفعتهما فوق رأسها واتخذت وضعاً بالغ التهديد، ولكن كان واضحاً أنها لا تستطيع أن تنهض بذلك الوضع. ذهبت فوقفت قبالتها وبدأت أصرخ وأعيط:

ـ انظري. إنني قابلة. لي ثلاثون سنة أو أكثر وأنا أولِّد. لم أرَ ماخضاً بهذه السماجة! يجب أن تضعي طفلك، وإلا ستبقين هنا تتفسخين وتموتين! يجب أن تدعيني أفحصك! يجب أن أرى في أي وضع هو الطفل! يجب أن تدعيني أمسح على بطنك! أن أفحص بين فخذيك. إن لم تدعيني ستعفنين وتموتين! وارفعي هذا النقاب اللعين عن وجهك أيضاً! فليس في الوضع عار. . .

كنت أقول هذا الكلام إذ انتبهت إلى ما بين فخذيها فجأة. تيبست في مكاني. ما الذي كنت أراه يا إلهي؟ يا ربي أين هنا؟ ربما كنت أحلم. وقد انتبهت الماخض إلى أنني انتبهت للأوضاع الاستثنائية. كان صوت أنينها قد انقطع. ولكنني انتبهت ثانية إلى ما بين فخذيها. كان هو هو. لم أكن أحلم. لم أكن على خطأ. ولكن لماذا؟ كيف؟ غير ممكن! ركضت إلى الغرفة الأخرى وقفزت نحو الباب أعيط.

ـ أخرجوني من هنا! بأسرع وقت. أتجعلونني مهزلة! يا أولاد المحروقين! سأفضحكم!

ولكن ما كان صوت يُسمع من وراء الباب، فواصلت:

ـ تجلبون قابلة سيئة الحظ مسكينة في منتصف الليل من المدينة إلى فوق الجبل، في هذا الثلج وانسداد الطرق، وتتركونها في غرفة واحدة مع غول ضخم، وتريدونه أن يضع لكم من بطنه الضخمة طفلاً!

ولكن كأن كل الناس الذين كانوا وراء الباب قد هربوا فزعاً. أو ربما لزموا الصمت وكانوا يريدون أن يروا ما ستكون حركتي التالية.

ـ يا قابلة، يا قابلة، تعالي أريحيني. عودي تعالي أريحيني!

كان الصوت صوت رجل. كان الصوت يأتي من غرفة الماخض. لم أخطأ، كانت الماخض رجلاً. ولكن هذا غير ممكن! كيف يمكن أن يلد رجل؟ سُمع صوت الرجل مرة أخرى:

ـ أيتها القابلة، بالله عليك تعالي أريحيني. إنه يؤلم. يؤلم كثيراً. فيه ثواب. تعالي أريحيني!

استدرت فدخلت الغرفة. كانت هذه المرة الأولى التي أبقى فيها في غرفة واحدة مع رجل غير زوجي. لو عرف الحاج ما كان سيقول؟

ولكن هذا الرجل ما كان يمكن أن يكون رجلاً عادياً! على الصورة السابقة ذاتها، بقي على وضع نصف تمدد، يئن ويرمي قبضتيه نحو الهواء، وفي هذه الأثناء كانت ركبتاه وفخذاه تنفرج أحياناً فكنت أرى موضعه ذاك، من تحت بطنه، ولم أكن أدري كيف وقع الرجل في هذه الحال.

ـ أيتها القابلة، بالله عليك أريحيني! لا طاقة لي على احتمال هذا العمل. افعلي شيئاً! افعلي لي شيئاً!

ـ كان يجب أن يأتوك بقابلة رجل. ثمة قابلة أرمنية هي رجل. ثم طبيب. كان في أوروبا. من الأفضل أن يذهبوا فيجلبوه. فلربما يفهم ما الذي يجري!

ـ لا! لا يمكن! إلى أن يذهبوا ووراءه يكون الطفل قد جاء. أظنه قريباً جداً. لا يترك الوجع مجالاً!

أيصدّق هذا الرجل حقاً بأنه سيلد؟

ألقيت سؤالاً عادياً كنت أوجهه إلى كل ماخض:

ـ بطنك الأول؟

ـ نعم، الأول والأخير! يا لوجعه! الآن أفهم ماذا تعانين أيتها النساء.

ـ من أبوه؟

ـ كان أبوه أجنبياً، ترك وسافر.

ـ عجيب! إذن فقل إنه ابن زنا.

لم يقل شيئاً بعد. كان يئن. كان يرفع قبضتيه ويقربهما من رأسه ثم ينزلهما ويضرب بهما اللِبْن من حوله. ثم يتنفس ثانية، نفَساً عميقاً، ثم عياط فمرة أخرى قبضة.

انحنيت. فتح ركبتيه. كما لو كان يعرف أنه ما من فائدة بعد في المقاومة. كنت أبذل أقصى ما في استطاعتي كي لا تقع عيني على «مواضعه» تلك. ولكن أفيمكن؟ وهل يجب أن يخرج الطفل من مكان ما أم لا؟ وهنا بالضبط هو هذا المكان، أو هو تحت أو فوق مكان ما كان يجب أن أراه. عاهدت نفسي أني إن خرجت من هنا لن أذهب وراء القِبالة. لم أكن أدري ما أصنع أو ما ينبغي أن أصنع.

جئت بالصابون. غسلت يدي بالماء الحار وشطفتها بالماء وجففتها بالمنشفة التي كانوا وضعوها جنب دلو الماء، ثم مددت يدي ووجدت لي، تحت موضعه ذاك الذي كان مقززاً لي، مكاناً كنت أظن أن الطفل لابد أن يخرج منه، ثم أدخلت أصابعي على مهل، ثم لمست هناك، بكل تعجب، رأساً نصف صلب لطفل. وضعت يدي الأخرى فوق البطن الكبير المبلل وأدرتها حوله. لم أكن أشك في أنه طفل. وضعت يدي على المكان الذي كنت أظن أنه لابد قريب من القلب. أحسست على نحو من الأنحاء أنه حي.

- حي!

فقال:

- أدري أنه حي، إنني أحس حركاته.

لم يكن لي شأن بكلامه. حصل مرات أن تقول ماخض إنها تحس طفلها يتحرك، في حين يمكن أن يكون طفلها قد مات قبل أربع وعشرين ساعة.

حركت أصبعي بلين في الداخل، ومرة أخرى اصطدم رأس الطفل الملتهب بيدي. فتحت بيدي مكاناً للرأس، وفي هذه المدة كلها كان سعيي هو أن لا ألمس بيدي مواضعه المثيرة للاشمئزاز. ثم تعودت على قطعتي اللحم والجلد أو الثلاث عديمة الفائدة هذه فلم أعد أقشعر منها.

قلت:

ـ اضغط، ثم خذ نفَساً عميقاً، ومرة أخرى اضغط وخذ نفساً عميقاً!

وبدأ. كان يضغط بجهد بالغ ويتنفس، وقد جعلت يدي مثل حفرة صغيرة أمام رأس الطفل منتظرة أن يأتي. إلى أن أطلق الماخض عياطاً مرتفعاً وأظنه غاب عن الوعي، بدليل أنه لم يطلق صرخة بعد ذلك ولا أنّ أنّة. كان رأس الطفل قد خرج، وكان رأساً كبيراً جداً فأخذت على مهل الرأس في يدي فزحف كتفاه اللينان من الداخل ثم كل الجذع والساقين، ثم مضى كل شيء على النحو المألوف وصار طفل سالم وحيٌّ في يدي.

وضعت الطفل على مخدة صغيرة كانت قد وضعت على الحصير. كنت قد قصصت سرته. كانت كل إجراءات توليد الطفل قد أُجريت. كان الماخض قد غاب عن الوعي. غطى الدم كل شيء. تناولت الخرقة النظيفة التي كانوا وضعوها بين اللوازم، حشوت المكان الذي خرج منه الطفل بالقطن ووضعت الخرقة فوقه فأغلقته ونهضت. وحل الآن الوقت الذي ينبغي فيه أن أعرف من كان الماخض، سحبت الشريط المطاطي برقة عن عنقه. لم يتحرك. رفعت النقاب عن وجهه وتيبست في مكاني تعجباً.

كان وجه الرجل المعذَّب موقراً للغاية ومحترماً جداً بحاجبين كثين متشابكين، لحية طويلة وشفتين تشققتا واعوجّتا من الألم. كان وجهاً جميلاً. الآن وقد رفعت النقاب لم يكن الرأس والعنق يبدوان ضخمين. حتى البطن، حتى المرفقان، لم تكن ضخمة، كما لو أن الطفل كان قد عشش في كل جسده، فجعله سميناً وضخماً، والآن إذ انولد، لم يعد لازماً أن يكون جسد الرجل ضخماً. ولكن الرجل نفسه كان مسناً جداً. أردت أن أفتح عينيه فأرى لون عينيه أيضاً. ولكنني خفت أن يصحو. كان تخطيط عذاب قد ارتسم على وجهه. كان إحساس احترام مقرون بقشعريرة قد فرضا نفسيهما على كل جسدي وذهني. أسدلت النقاب على وجهه، ووضعت الشريط المطاطي أيضاً

حول عنقه. كان الأمر المثير للدهشة أن الطفل لم يصرخ أصلاً، وإلا لكان أيقظ «أمه». غسلت يديّ، وضعت شادري على رأسي وانطلقت نحو الباب. ينبغي أن أخرج من هذا المكان وأذهب. نقرت بصوت خفيض على باب الغرفة التي كانوا رفعوا فيها العصابة عن عينيّ. انتظرت لحظة. لم يكن يأتي صوت. دققت مرة أخرى وقلت:

- افتحوا الباب! وُلد الطفل!

فجأة سُمع صوت وحركة من وراء الباب. فتحوا حتى النصف. قفزت نحو الباب وأردت أن أقفز خارجة. ولكن الباب انغلق فجأة. صحت:

- ولد الطفل! ينبغي أن تفوا بقولكم! يجب أن تدعوني أذهب!

فقال الصوت من وراء الباب:

- سنفتح الباب، ولكن أديري وجهك إلى ذاك الجانب كي نعصب عينيك.

قلت:

- إنكم مجانين، مجانين! كيف حبل هذا الرجل؟

فقال الصوت من وراء الباب:

- إذا كنت تريدين أن نعيدك إلى بيتك، ينبغي أن تدعينا نضع العصابة على عينيك!

فقلت:

- جيد جداً، ادخلوا!

عندما دخلوا وشدوا العصابة، ركض عدد منهم نحو الغرفة التي كان

الماخض فيها. يبدو أنهم رفعوا الطفل وأحاطوا جميعاً بالماخض يحتفلون ويرقصون. أمسك شخصان يديَّ من الجانبين وأخرجاني. كان الجو بارداً وجيداً، بارد وجيد بحيث تعرضت للغثيان وتقيأت. بقي الإثنان ينتظران. ثم ركبنا الخيل نفسها وهبطنا الجبل. كانت رائحة صباحِ تبريز[8] تهب من المدينة. كنت عشت خمسين سنة مع هذه الرائحة. وكم تبدو هذه الرائحة غريبة الآن. عندما وصلنا باب المنزل أنزلاني عن الفرس. أمسك أحدهما بيدي وبها فتح شادري ووضع ورقة نقدية كبيرة في راحة يدي. قرع أحدهما الباب، لكنهما لم ينتظرا أن يأتي الحاج فيفتح الباب. ركبا حصانيهما وذهبا. كانا يخافان أن يرى الحاج وجهيهما. فتح الحاج الباب وأزاح العصابة عن عيني:

ـ ماذا جرى؟

ـ لا شيء.

ـ لا! يجب أن تقولي ما الذي جرى! لقد آذوك!

كنت أدري ما قصده بالأذى. فقلت:

ـ كلا! لم يؤذياني على ذلك النحو. ولد الطفل بمشقة.

ـ لماذا إذن وضعوا عصابة على عينيك؟

ـ لم أفهم لماذا. لقد رأيت كل مكان، رأيت كل شيء. لا أدري لماذا عصبوا عيني.

ـ ماذا رأيت؟

ـ كل شيء! فهمت الدنيا بيد من!

ـ يعني ماذا: فهمت الدنيا بيد من؟

فقلت:

ـ أنا الآن متعبة. ربما سأقص عليك ذات يوم. لكن ليس الآن! أنا متعبة الآن، زاهقة الروح. من أولئك، ومنك، زاهقة من كل شيء، وأريد أن أنام.

أمسك الحاج بمرفقي كي يأخذني نحو الفراش. حررت مرفقي من يده. لكم أنا نافرة من هاتين اليدين اللتين تُمَدّان على مرفقي!

سأل الحاج متعجباً:

ـ ما بك؟ لو أنك قلت لجئت معك، لمَ لم تقولي؟

ـ لم يكن مجيؤك ليغيّر من أصل القضية. من أنت لكي تستطيع أن تغير مسألة ما؟

أحس الحاج أنني أهينه فقط. ولكنني لم تكن عندي طاقة على توضيح المسألة كلها. لم يكن ممكناً أصلاً قول المسألة لأحد. ذهبت فسقطت على الفراش وبين كوابيس اليقظة غلبني النوم وعندئذ حلمت أنهم يطوفون بجنازتي حول الحجر الأسود. كانوا قد غطوني من الرأس حتى القدمين بالكفن. كان حشد عظيم يتقافزون إلى أعلى ويهبطون إلى أسفل في الجو الساخن، يلتفّون ويقرأون الأدعية والآيات بأفواه مزبدة، ويديرونني أنا أيضاً حول الحجر الأسود. عندما كنت أستيقظ كنت أرى الحلم نفسه، وعندما أنام أرى الحلم إياه. من بين الوجوه التي كانت تطفو حولي، كنت أدور بذلك الوجه الميت مكفناً حول الحجر الأسود. ثم تكررت هذه الأحلام واليقظات، تكررت إلى حد أنني تعبت، تعبت روحي وجسدي. سقطت، كالسقوط من مكان عال جداً وواصلت حياتي مثل صخرة تكسرت قطعة قطعة، وعلى هيئة حلم مقطّع.

بعد أيام حين استيقظت من النوم كنت من التعب بحيث كأنني عُذّبت أسابيع كاملة. كان وجهان شابان قد انحنيا على وجهي ويبدو أنهما كانا ينتظران كل هذه المدة استيقاظي: وجه إياز ووجه كرم. كانت الغرفة ملأى بالنور

بشكل عجيب. على نحو بحيث أغمضت عينيّ ثم فتحتهما ثانية. وكررت هذا الإغماض والفتح عدة مرات. ثم فهمت أن الوقت حوالي الظهر وأن نور الشمس كان يشع من زجاج النافذة إلى الداخل. ثم أشرت إلى إياز وكرم أن يرفعاني ويأخذاني إلى جنب النافذة. فعلا ذلك. جنب النافذة صفنت في الثلوج البيضاء. يا للشمس المشرقة! لابد أن الجو في الخارج دافئ، يعني أنه لابد حار. كنت أتمنى أن أستطيع أن أنهض وأذهب فأفتح بويب مخزن مؤخر البيت وأنظر من هناك إلى الجبل، الجبل الذي كان يشاهد فوقه مسجد خرب. هل كان هذا الحادث قد جرى حقاً؟! كنت سمعت أن هذا المسجد تخرّب منذ قرون. أيستطيع إياز وكرم أن يتحملا سماع سري؟

كان ابناي جالسين إلى جانبي ينظران إلي مبهوتين. كأن أسبوعاً مرّ على الواقعة، وأن اليوم جمعة إذ كان إياز في البيت.

انطلقت قطة ضخمة من جانب ستارة السطح اليمنى تمشي ببطء فوق الثلوج وذهبت نحو الجدار المقابل. كانت قطة ضخمة رمادية اللون منفّرة، وعندما وصلت إلى منتصف الستارة الوسطى استدارت وفتحت فمها، بقدر ما كان ممكناً، وكشفت عن أسنانها الحادة ثم عوجت رأسها ومضت فكمنت جنب عش طيور كرم تنتظر، على أمل أن يخطئ طير فيخرج. انتظرت أن ينتبه كرم للمسألة بنفسه، ولما لم ينتبه قلت بصوت خافت:

ـ كرم، يا بني، القطة كامنة لحِجَل!

رفع كرم رأســه ورأى القطــة فنهض على عجل وذهب نحو القطة حاملاً عصا.

اقترب إياز، أمسك وجهي بين يديه وأغرق نظرته في عينيّ:

ـ ماذا جرى يا أماه؟

ـ ماذا تظنه جرى ، يا إياز؟

ـ لست أدري . أسألك أنت ما الذي جرى؟

ـ لما كنت لا تدري ، فلم يجر شيء بالتأكيد .

الأمان من إياز ، لاسيما عندما يحدق صافناً إلى عين الآدمي . يا للحالة المجننة التي تستولي على الآدمي!

ـ كلا! جرى شيء! يجب ألا تخفي عني شيئاً .

غيرت الحديث كي أهرب من نظرته .

ـ متى يعود أبوك؟

ـ بعد أسبوعين!

ثم قال بإصرار:

ـ ماذا جرى يا أماه؟ قولي ما الذي جرى .

أخرجت وجهي من بين يدي إياز ، استدرت ، تمددت ووضعت رأسي على ركبة إياز وغرقت من وراء الزجاج في عين الشمس النورانية .

الحواشي

(١) خبز يُخبز في فرن أرضيته من حصى يحمى.

(٢) احتراق الأنف كناية على التعرض لفشل كبير، أو للخجل من التعبير بمثل هذا الفشل.

(٣) النادي الرياضي التقليدي الفارسي، حيث تمارس ألعاب الكمال الجسماني والمصارعة.

(٤) هذه ليست شتيمة سب ولعن بقدر ما هي شتيمة تحبيب وتدليل. إلا أنها هنا تعني «خبيث، لئيم»، ولو مزاحاً.

(٥) أحد موانئ أرومية، في محافظة آذربايجان الغربية الإيرانية.

(٦) جبل في آذربايجان.

(٧) بيض مخفوق مقلي.

(٨) مركز محافظة آذربايجان الشرقية. مركز صناعي وتجاري مهم.

غلام حسين ساعدي

ولد غلام حسين ساعدي سنة ١٩٣٦ في تبريز، صار طبيباً نفسانياً إلا أن عشقه الكبير وحتى حرفته الأصلية كانت الكتابة. لم يعش إلا خمسين سنة ولكن حياته كانت مثمرة جداً. كتب مسرحيات وقصصاً متعددة، وبعد الثورة الإسلامية وانكسار الأهداف التي كان المفكرون والفنانون من نظرائه يحتضنونها في أفكارهم، سافر إلى فرنسا. ربما لم تكن روحه الحساسة قادرة على تحمّل هذه الهزيمة، فانهار في باريس. دُفن في مقبرة «پير لاشيز» قريباً من قبر صادق هدايت، وكان له من العمر حينذاك خمسون سنة فقط.

إنه مبدع جو خاص به في الأدب القصصي الإيراني المعاصر. كانت مجموعات قصص «شب نشيني باشكوه»[١]، «عزاداران بيل»[٢]، «دنديل»، «واهمه هاي بي نام ونشان»[٣]، «ترس ولرز»[٤]، «كَور وكَهواره»[٥]، وكذلك «روايت توپ»[٦]، من جملة أعماله التي نشرت في حياته. وبعد موته صدر بعض أعماله أيضاً.

نثره بسيط وصريح، وأبطاله مكتئبون وعجيبون غريبون، وجو قصصه غامض ومملوء خرافة أحياناً وفي أحيان أخرى مرعب ويحمل وقائع غير متوقعة.

كان يصدر مسرحياته باسم «كَوهر مراد» المستعار. وبعض مسرحياته هي: «ما نمي شنويم»[٧]، «پروار بندان»[٨]، «چوب بدستهاي ورزيل»[٩]، «چشم در

برابر چشم»[۱۰]، «ديكته وزاويه»[۱۱]، «آي باكلاه، آي بي كلاه»[۱۲] و«عاقبت قلمفرسائي»[۱۳].

* * *

يدور الحدث في الـ«حمّى»، التي انتُخبت من مجموعة «مخاوف من دون أساس»، في جو لا يبعث على الاطمئنان. مع أن «كاف»، بطل القصة، يبدأ يومه بنشاط وإحساس هدوء وراحة، إلا أنه يتلفن لأصدقائه ويبعث فيهم القلق بطرح مسـألة الانتحار. تدور كل الحوارات على حد الجد والهزل وتنتهي بقطيعة مريبة.

يتناول كاف الغداء مع صديق ويقول له: «اليوم مناسب لكل عمل: للمرح، للتسلية، وحتى للانتحار». وعلى هذا النحو، يحتقر الموت على طريقته، ويحوله إلى حدث بسيط وعادي.

عند المغرب يصل البيت. يجد أصدقاءه القلقين داخل غرفته يجهدون أنفسهم ويوجهون له الملامة والعتب على مزحته عديمة الطعم هذه، وفي الآخر يحتفلون جميعاً في مقهى بسلامة كاف.

في الليل يعود كاف إلى البيت ويرى أن كل شيء مهيأ للانتحار.

الحواشي

(١) سهرة جليلة.

(٢) أصحاب مأتم بيل.

(٣) مخاوف من دون أساس.

(٤) خوف ورجفة.

(٥) قبر ومهد.

(٦) رواية الكرة.

(٧) نحن لا نسمع.

(٨) رابطو [الحيوانات] المسمَّنات.

(٩) حاملو هراوات ورزيل.

(١٠) عين مقابل عين.

(١١) الإملاء والزاوية.

(١٢) هَيْ يا ذا القبعة، هيْ يا عديم القبعة!

(١٣) نتيجة «الشخبطة».

حمّى

غلام حسين ساعدي

(١)

استيقظ (كاف) من النوم متأخراً. كانت شمس جميلة اللون قد ملأت الغرفة ولم يكن ثمة خبر من جو الأمس الداكن والغائم، وكان لكل شيء لون أيام التعطيل ورائحتها؛ أصوات الباعة والجوالين ونساء الطابق الأسفل المتكلمات بصوت مرتفع والضاحكات بقهقهة، وأصوات عصافير الخريف الجائعة التي حلت محل الأوراق فوق الأشجار. نهض كاف وجلس، كانت ساعة من وقت الدرس قد انقضت ولو أنه أراد التهيؤ وحلاقة لحيته ويأكل شيئاً وينطلق فسيصل الجامعة مع الظهر. نظر إلى نفسه في المرآة، ارتاح لأن وجهه هادئ، رقيق الحاشية وحيّ. كانت عيناه قد صارتا أوسع وأجمل، وغضون وجهه أقل. وضع المرآة في مكانها ونهض، سوّى الملاءات ومضى إلى أمام النافذة؛ كان كل شيء غارقاً في نور الشمس الزعفراني وللدنيا نشاط جديد. ذهب فوقف في الممشى وأمام المغسلة، ونظر مرة أخرى إلى نفسه في المرآة. ألقى كف ماء على رأسه ووجهه وعاد إلى داخل الغرفة فجلس على السرير. كان يوماً هادئاً وعجيباً، مضت سنوات لم يرَ فيها يوماً هادئاً كهذا، أحس جوعاً، نهض وتناول من الثلاجة كأس حليب وشربها، بردت معدته أولاً ثم انتشر البرد على مهل في بدنه كله. فرك كتفيه وأحس حركة الدم في عروقه وعضلات

جسده، لم يكن أي شيء كدراً، كان سرور جديد يملؤه، كأن أمراً إلهياً حل عندما تأخر وقت الجامعة وبقي هو في البيت، دوّر يديه ومسّد على عضلات ساقيه، وأصغى إلى صوت الساعة. ما من برنامج مهيأ له كان صالحاً لذلك اليوم، وفيما كان يتمشى كان ينظر بدقة إلى حيطان الغرفة وبابها، إلى بطاقات المعايدة المثبتة على الجدران منذ سنوات ولم ينتبه لها قط. كان في كل جدار نافذة تجلب هواء الوديان والمدن المغطاة بالجليد، المجهولة، اللذيذ إلى داخل الغرفة. كان يتمنى لو كان له صوت جميل وأنه يغني، أو لو كان ثمة أحد كي يتنازعا فيما بينهما ويتمازحا ويتعاركا. وقع نظره على التلفون فوق الطاولة، رفع السماعة وفكر زمناً ولعب برقمين أو ثلاثة ثم أخذ رقماً. رُفعت السماعة، تنفس كاف الصعداء وقال:

ـ ألو . . . محمد . . سلام عليكم.

قال محمد من الطرف الآخر للتلفون:

ـ عليك السلام، أنت؟

قال كاف:

ـ نعم، أنا.

قال محمد:

ـ أين أنت؟

قال كاف:

ـ في البيت.

قال محمد:

ـ في البيت؟ لمَ لم تذهب إلى الجامعة؟

قال كاف:

ـ لم أذهب اليوم .

فقال محمد:

ـ أوقع حادث؟ لمَ لم تذهب؟ أُصبت ببرد وثمة مشكل؟

قال كاف:

ـ أبداً . على فكرة حالي جيدة جداً .

فقال محمد:

ـ قل لي ، ليس هناك موعد واتفاق وأمور من هذا القبيل؟

قال كاف:

ـ لا يا عم . . أي موعد واتفاق!

فقال محمد:

ـ لماذا إذن بقيت في البيت؟

قال كاف:

ـ كان عندي شغل صغير .

فقال محمد:

ـ أي شغل:

قال كاف:

ـ شغل خصوصي .

فقال محمد:

ـ ألا يجب أن أعرف؟

ففكر كاف وقال:

ـ ليس أمراً مهماً، أريد. .

قال محمد:

ـ تريد ماذا؟

قال كاف:

ـ أريد أخيراً أن أحدد وضعي.

فقال محمد:

ـ ماذا تفعل؟

قال كاف:

ـ أُقتل نفسي.

قال محمد:

ـ يعني ماذا؟ أجننت؟

قال كاف:

ـ لا، لم يحصل شيء.

قال محمد:

ـ لا تصر حماراً. أجبني.

قال كاف:

ـ لا وحياتك، هكذا.

قال محمد:

ـ هكذا يعني ماذا، لا تمثل مهازل.

فقال كاف:

ـ جيد جداً، لا أمثل.

قال محمد:

ـ انظر شف ما أقول: قم تعال عندي.

فقال كاف:

ـ أجيء عندك ماذا أفعل؟

قال محمد:

ـ مادمت لم تذهب إلى الجامعة، تعال نكن معاً.

قال كاف:

ـ ما عندي طاقة على المجيء إلى السوق، لا تدري أي شمس طيبة في الخارج.

قال محمد:

ـ أنا مشغول جداً، وإلا لكنت أنا أجيء، قم الآن أنت تعال لنتغدَّ معاً.

فقال كاف:

ـ حالي لا تساعد.

فقال محمد:

ـ إذن . . ماذا تريد أن تفعل في البيت؟

قال كاف:

ـ لا شيء .

قال محمد:

ـ قلتَ إنك . .

قال كاف:

ـ ماذا قلتُ؟

قال محمد:

ـ انظر يا عم . . لا تزعجني ، قل لي حقاً أوقع شيء؟

قال كاف:

ـ يا لك من إنسان عجيب ، ها!

قال محمد:

ـ قل: وحياتك لا أريد أن أفعل شيئاً أبداً .

فقال كاف:

ـ ولكن . . أي شيء؟

قال محمد:

ـ ذلك العمل الذي كنت تريد أن تفعله نفسه . . الانتحار . .

قال كاف:

ـ لا تصر طفلاً.

قال محمد:

ـ ليس هذا جواب كلامي.

فضحك كاف عالياً وقال:

ـ كنت أمزح، يا عم. اطمئن.

قال محمد:

ـ إنك لن تفعل هذا؟

قال كاف:

ـ لم يحدث شيء.. وهل أنا حمار؟

قال محمد:

ـ وحياتي؟

قال كاف:

ـ وحياتك.. وحياة أبي.

قال محمد:

ـ جيد جداً، أنا الآن مشغول، سأتلفن لك ظهراً، ربما جئت إليك.

قال كاف:

ـ جيد جداً.

وضع السماعة على التلفون. كانت الغرفة قد دفأت، كانت الشمس قد ارتفعت وقصرت الظلال، كانت ضجة العصافير قد همدت ولم يعد ثمة خبر عن أصوات النساء في الطابق الأسفل. بدأ كاف يتمشى ثانية، أي اضطراب استولى على محمد؟ هل صدّق حقاً؟ غلبه الضحك، مضى فوقف أمام المرآة وضحك، ونظر إلى ضحكته وجلس على كرسي ولبس جوربيه وتمشى ثانية في الغرفة وفكر بضع لحظات وجاء فجلس وراء التلفون، رفع السماعة وأخذ رقماً آخر.

- هلو.. هلو.. پرويز.

- نعم.. أنت؟

- نعم أنا.. سلام.. كيف حالك؟

- لست بسوء.. حسن.. أين أنت؟

- في البيت.

- في البيت؟ لم تذهب للدرس؟

- لا.. لم أذهب.

- لِمَ لم تذهب؟.. أنت كان مستحيلاً أن تلزم البيت.

- طيب.. اليوم لزمت البيت.

- أأنت مريض؟

- كلا.. وبالمناسبة فإن حالي جيدة جداً.

- قل لي.. ألم تصطد شيئاً؟

- مثلاً؟

ـ ما أدراني يا شيطان . . من الزميلات . . الممرضات!

ـ لا يا عم . . ما هذا الكلام؟

ـ لماذا إذن بقيت في البيت؟

ـ كان عندي شغل بسيط .

ـ أي شغل؟

ـ اتخذت قراراً صغيراً .

ـ أن تفعل ماذا؟

ـ هكذا ، تولاني هوس الانتحار .

ـ هوس ماذا؟

ـ الانتحار .

ـ كي يصير ماذا؟

ـ لا شيء .

ـ لا تتحامق ، ما تقول؟

ـ ما التحامق؟ أقول جداً .

ـ لكن لماذا؟

ـ ما فيه لماذا .

ـ أفوقع شيء؟

ـ لا .

ـ لماذا تريد إذن أن تقوم بهذا العمل؟

ـ السبب أنه يوم جيد جداً ، الجو طيب والشمس جميلة جداً .

ـ طيب؟

ـ فقط .

ـ إنك حقاً عديم الطعم ، تذكّر عندما تريد المزاح أن تمزح مزاحاً له طعم .

ـ على عيني .

ـ طيب . . هكذا إذن . . قل لي . . قل الحق ، أصار شيء؟

ـ أي شيء؟

ـ أتعرف . . بهذا المزاح المضحك تمارس انعدام طعم بالغاً ، يذهب الشخص في الصباح الباكر إلى عمله وإذا به يتلفن لصاحبه أن يا فلان أريد أن أنتحر .

ـ أي جزء منه عديم الطعم؟

ـ من أوله إلى آخره .

ـ ليكن عديم الطعم . . ماذا سيصير؟

ـ معلوم . . يضيع الواحد نفسه .

ـ بلا موجب ، وهل يجب أن يضيع الواحد نفسه لكل عمل؟

ـ اسمع ، إنني أدري أنك تمزح معي ، لأنه في كتاب علم النفس كتب أيضاً أنه عندما يريد شخص أن ينتحر فهو لا يخبر أحداً قط ، يذهب يفعل عمله فيطلع الآخرون .

ـ لو كان عنده كلام أو أراد أن يودع ، فماذا يفعل؟

ـ لا شيء ، يكتب ويضع ما كتب على منضدة ، أو تحت كأس السم ، أو في جيبه أو تحت وسادته ، حتى الناس المرتبون يُبردون قبل ساعة من الانتحار رسالتهم .

ـ ولو أراد المرء ألا يكتب رسالة؟

ـ عندئذ يكون معلوماً أنه لا يريد أن يعرف أحد عن عمله شيئاً .

ـ إذن فكل من يخبر أحداً قبل الانتحار ما عنده قصد انتحار . ها؟

ـ مؤكد .

ـ جيد جداً ، فأنا أيضاً ما عندي .

ـ أدري .

ـ طيب . . وبعد؟

ـ ماذا تفعل الآن؟

ـ إنني أكلمك .

ـ ماذا تريد أن تفعل بعد ذلك؟

ـ لا أدري .

ـ قم تعال عندي .

ـ لا أتحمل ذلك .

ـ نذهب ظهراً فنشرب الجعة .

ـ في هذا الوقت من السنة؟ من يستطيع أن يشرب الجعة؟

ـ جيد جداً، نذهب إلى مطعم مشوي الدجاج، دجاج مع الفودكا، موافق؟

ـ ليس عندي اشتهاء كبير، لقد أكلت لتوي فطوراً كبيراً، أصلاً لست جائعاً.

ـ ستجوع بعد ساعتين.

ـ لابد.

ـ إذن تجيء نتناول الغداء معاً؟

ـ إن أردتُ أن أجيء سأتلفن لك.

ـ جيد جداً.

ـ في أمان الله.

ـ اسمع. . أنت. . أنت كنت تمزح حقاً؟

ـ أمزح؟

ـ بخصوص تلك القضية.

ـ أي قضية؟

ـ مسألة الانتحار التي ذكرتها؟

ـ يا لك من طفل، ها. . في أمان الله.

وضع السماعة على التلفون. كانت الساعة العاشرة والنصف. نهض وفتح باب الثلاجة وتناول بضع حبات عنب وأكلها وذهب أمام المرآة؛ كانت لحيته طويلة وكان مؤسفاً أن يتلف يوماً جيداً كهذا بمثل هذه الهيأة، جلب لوازم الحلاقة وصفها على الطاولة، فتح الماء الحار من الحنفية وجلبه ووضعه جنب

لوازم الحلاقة، وبينما كان يصفر بدأ بحلاقة وجهه. كان قد نظف نصف وجهه عندما دق التلفون. من يطلبه في هذا الوقت من النهار؟ لابد أن أحداً أخطأ في الرقم. إذ يعرف كل أصدقائه ومعارفه أنه لا يكون في البيت صباحاً قط، في غير أيام الجمعة. نظر إلى التلفون، رن التلفون مرة أخرى، جفف المعجون على وجهه بمنشفة ومضى فرفع السماعة.

ـ هلو!

ـ هلو!

ـ أنتَ يا دريه؟

ـ نعم أنا.

ـ سلام، يا للعجب، في هذا الوقت من النهار؟

ـ لا شيء، هكذا طلبت رقمك لأرى إن كنت في البيت.

ـ أنا لا أكون في هذا الوقت في البيت.

ـ فأين أنت الآن؟

ـ في البيت.

ـ طيب.. إذن فأنت في البيت.. قل لي لمَ لم تذهب إلى الدرس؟

ـ لا صبر لي عليه.

ـ ماذا؟.. لا صبر لك عليه؟.. لماذا؟

ـ لا شيء.. استيقظت من النوم متأخراً ورأيت أنه يوم جيد فشعرت بالحيف إن ذهبت فجلست في الفصل المظلم.

ـ إنك ما كنت قط تتذرع باليوم الجيد والتأخر وأمثال هذه الأمور. قل حقاً لمَ لم تذهب إلى الدرس؟

ـ وحياتك لا سبب هناك. وبالمناسبة كنت أحلق الآن كي أتلفن لك.

ـ نعم، قلت أنت وأنا أيضاً صدّقت!

ـ والله أقول الحق. إن كنت تريد الحق أصلاً فقد أردت أن أرجوك أن نتناول الغداء معاً.

ـ لمَ لم تتلفن قبلاً؟

ـ قبلاً؟.. ظننتك مشغولة.

ـ أنا.. أنت كنت مشغولة، كما لو كنت.. تكلم أحداً؟

ـ لماذا؟

ـ كان تلفونك مشغولاً، كلما تلفنتُ كنتَ تتكلم.

ـ كنت مع پرويز.

ـ كل هذه الساعات؟

ـ نعم تلفنت أسأله عن حاله، أصر على أن نكون معاً ظهراً.

ـ جيد.

ـ لا، لن أذهب، قلت له إن حالي لا تساعد. انظر، ماذا تفعلين ظهراً؟

ـ لا شيء.

ـ يمكننا إذن أن نكون معاً.

ـ كلا.

ـ لماذا؟ لماذا لا؟

ـ كان الأولى بك أن تقول قبلاً.

ـ وما الفرق . أنا أقول الآن .

ـ عندما تجري محادثاتك مع الآخرين وتتكلم وتتعب ، عندئذ تدعوني لأكون معك ، وذلك عندما أتلفن أنا لك .

ـ لا تتدللى ، أرجوك .

ـ نعم ، ترجو .

ـ حسناً ، طيب ، أنت أيضاً موافقة . اسمعي ، نذهب نتغدى ثم نذهب إلى السينما .

ـ لا أقدر .

ـ لماذا؟

ـ ستأتي أختي علي عصراً .

ـ أيَّ ساعة؟

ـ الساعة الخامسة ، الخامسة والنصف .

ـ حتى ذلك الوقت تكونين قد عدت إلى البيت . . حسن؟ أتأتين؟

ـ جيد جداً .

ـ شكراً .

ـ ماذا ألبس؟

ـ ذلك المعطف المطري الفستقي .

ـ ذاك أيضاً؟

ـ ماذا أفعل ، يبدو مناسباً جداً عليك .

ـ طيب جداً ، أي ساعة؟

ـ الحادية عشرة والنصف .

ـ أين؟

ـ في أطلس .

ـ لا تدعني أنتظر ، ها!

ـ أنت لا تفعل! في أمان الله .

وضع السماعة ، ومضى يحلق النصف الثاني من وجهه .

(٢)

عندما خرجا من المقهى كانت قد مضت على الظهر ساعة . كان الهواء طرياً وللشمس لون أول الصبح ذاته . كان أحدهما يمسك بيد الآخر .

قال كاف:

ـ عندنا وقت طويل حتى بدء السينما ، فلنتمشّ قليلاً .

وافقت دريه بإشارة من رأسها ، فعبرا من وسط الشارع وذهبا إلى الرصيف المقابل ، وانطلقا تحت الشمس .

قال كاف: «أكلنا غداء جيداً» .

فقالت دريه: «نعم ، كان جيداً جداً» .

قال كاف: «يسير كل شيء اليوم على وفق المراد» .

وقالت دريه: «حقاً؟» .

قال كاف: «يوم جيد بشكل فوق العادة» .

وقالت دريه: «هنيئاً لك» .

قال كاف: «أنا اليوم على نحو خاص» .

فقالت دريه: «أي نحو؟» .

قال كاف: «أُسرُّ لكل شيء» .

فقالت دريه: «ما أحسن ذلك» .

قال كاف: «أتفهم قصدي؟» .

قالت دريه: «ربما» .

قال كاف: «أتدري كيف أنا؟ كما لو بعد عمر من ضعف البصر أضع لأول مرة نظارة على عيني ، فأرى كل شيء واضحاً نظيفاً» .

قالت دريه: «ما أحسن ذلك» .

قال كاف: «أنا في وضع بحيث لا أرى أي شيء سيئاً» .

قالت دريه: «لا ، بابا!» .

قال كاف: «كل شيء جيد وساطع ، كل الأصوات جيدة ، اليوم مناسب لكل شيء ، للتسلية ، لتمضية الوقت ، وحتى للانتحار» .

فقالت دريه: «الانتحار؟» .

قال كاف: «نعم ، حتى الانتحار» .

قالت دريه: «ما الذي جرى حتى تفكر بالانتحار؟» .

قال كاف: «هكذا» .

فقالت دريه: «إذن فاليوم يوم خطر ، ينبغي أن تنتبه لنفسك» .

قال كاف: «أقول إنه ليس معلوماً أبداً أن الموت سيئ دائماً، من يعرف أن أولئك الذين ينتحرون لا يلتذون من عملهم؟».

قالت دريه: «أنا لا أدري، لم أجرب ذلك».

قال كاف: «أقول بجد، في يوم مثل هذا يمكن أن يهوى أحد أن يذهب في نوم أبدي».

قالت دريه: «لو كان يهوى، فليس ثمة مشكل في أن يرى هذا العمل».

قال كاف: «أفضل الانتحارات انتحار أولئك الذين يضيعون أنفسهم بلا إنذار، مثل فيل يذهب فيفني نفسه في زاوية ما، وأسوأها انتحار أولئك الذين يكتبون رسائل لهذا وذاك، يودعون ويطلبون السماح، كما يتركون مذكرة للجهات القانونية تحت الوسادة أن: ما من أحد مسؤول عن موتي، وعلاوة على ذلك أنهم يصرفون وقتاً مفكرين في وسيلة الانتحار، أيها أفضل: مسدس، حبل أو دواء منوم. ولليوم والساعة أهمية عندهم أيضاً، يفضلون الجو الغائم والمطير، فأخيراً يجب أن يقال إن فلاناً قد وضع حداً لحياته في يوم مفعم بالغم بوضع مثير للهموم».

قالت دريه: «ما الذي جرى بحيث أخذت تفكر في هذا الأمر فجأة؟».

قال كاف: «تقصير هذا اليوم العجيب».

قالت دريه: «بالله عليك يكفي، لا أحتمل هذا».

قال كاف: «على عيني يا عزيزتي».

قالت دريه: «لنركب نذهب إلى فيلم مضحك، طيب؟».

وركبا سيارة أجرة.

(٣)

عندما وصل المنزل كانت الشمس في حالة الغروب. صعد السلالم نصف المظلمة على مهل، قبل أن يبلغ الطابق الثاني سمع صخباً غير مميّز من غرفته، توقف وراقب وتسمّع. كان صوتا محمد وپرويز يُسمعان من داخل الغرفة، رقى بهدوء من عند حاشية الجدار، وفيما كان يتطلع إلى داخل الغرفة من شق فتحة الباب، وقف يتنصت. كان كل شيء ملخبطاً متناثراً. لقد قلب محمد وپرويز الغرفة سافلها عاليها، كانت الكتب متناثرة على الأرض، وقد قلبا الملاءات وكل ما كان على الأرفف وجلسا قبال أحدهما الآخر حائرين يفكران في حل. بقيا لحظات صامتين، وقال محمد في الآخر:

ـ كله تقصيري، لو أنني لم أستحمر وجئت إليه في الساعة التي تلفن فيها لما حدث أي أمر.

قال پرويز:

ـ ما أدرانا، لم يكن شخصاً يفكر في أمثال هذا الأمر، لم تكن ثمة عقدة في حياته في أي وقت.

قال محمد:

ـ ما أدرانا أنا وأنت؟ أفيمكن معرفة البشر؟ يمكن أن يكون وقع له حادث.

قال پرويز:

ـ يعني أي حادث مثلاً؟

قال محمد:

ـ ما أدراني؟

قال پرويز:

ـ لو كان وقع له حادث لكان قال لنا.

قال محمد:

ـ ربما كان شيئاً لا يمكن قوله.

قال پرويز:

ـ كان سيظهر على هيأته.

قال محمد:

ـ يظهر على هيأته ماذا؟ وهل يبين من هيأة الإنسان كل شيء؟

قال پرويز:

ـ ولكننا كنا قريبين جداً منه.

فقال محمد:

ـ ما يعني قريبين؟ متى جلسنا نستمع إلى مكاشفات أحدنا الآخر؟ كل ما هنالك أننا نجتمع كي نتحدث ونضحك. المشكلة في الأمر أنه لم يبق منه أي أثر أو خبر.

قال پرويز:

ـ عندما كان يتكلم إلي صباحاً لم آخذه جدياً أصلاً، ظننته ـ كما هو شأنه دائماً ـ تسلط عليه المزاح.

قال محمد:

ـ ولكن ما هذه القارورة التي وجدنا في جرار منضدته؟ واضح أنه كانت لديه مثل هذه الخيالات، قارورة لومينال ملأى.

قال پرويز:

ـ ولكنها لم تُمس.

قال محمد:

ـ صحيح، ولكن ما أدراك أنها لم تكن زجاجتين أو ثلاثاً؟ أمتأكد أنت؟

قال پرويز:

ـ كلا.

نهض محمد وفيما هو يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً، قال:

ـ لم يبق مكان لم نتلفن له.

قال پرويز:

ـ ولا يمكن التفتيش في المدينة كلها.

قال محمد:

ـ لو كنت أدري أنه لم يخرج من المدينة أفكنت أقوم بهذا العمل؟

وقال پرويز:

ـ إنني لأدوخ حيرة.

قال محمد:

ـ ما الذي يمكن كتابته لأبيه وأمه؟ كيف يمكن إخبارهما؟

قال پرويز:

ـ إنني لا أدري أصلاً ما الذي يمكن فعله.

قال محمد:

ـ لو وقع أمر فلن أغفر لنفسي أبداً.

قال پرويز:

ـ ألست موافقاً على أن نخبر مراكز الشرطة؟

قال محمد:

ـ موافق على كل شيء.

مضى پرويز نحو التلفون وقال لمحمد:

ـ لا نعرف رقم المركز.

فقفز كاف فجأة إلى داخل الغرفة وصاح:

ـ تريدان رقم المركز؟

قفز پرويز ومحمد عن مكانيهما وبقيا واقفين مدة بلا حركة. فجأة هجم پرويز نحو كاف فتماسكا. وفيما كانا يتدحرجان على الأرض كان پرويز يوالي الصياح:

ـ الآن أعلمك، أقضي عليك، لأقدمن لك خدمة بحيث لا تعود تؤدي هذه المزح الحمارية.

وقال محمد لپرويز بصوت عال:

ـ لا يصير على هذا النحو، انتظر لنطبخ له حساء[1] بحيث يلتذ منه كثيراً.

سحب كاف، الذي كان يضحك بصوت عال، نفسه من تحت جسد پرويز الثقيل وركض نحو النافذة وقال:

ـ يا لكما من حمارين ، بأية سرعة تصدقان كل شيء!

قال محمد:

ـ لمَ لا نصدق؟

قال كاف:

ـ لماذا تصدقان؟

قال برويز:

ـ لماذا نصدق؟ عندما تتلفن وتزف هذا الخبر ، فإن من يسمع تأخذه الأفكار والتهيؤات ، وبعد هذا تغيب ساعات فكيف لا نصدق؟

قال محمد لپرويز:

ـ يجب أن نضربه ضرباً مبرحاً حتى يصير آدمياً .

قال كاف:

ـ حقكما أنتما أن تُضربا ، ما الذي أوقعتماه ببيتي وأشيائي ، لن أستطيع ترتيبه إلى ما قبل أسابيع .

قال محمد:

ـ إلى جهنم إن لم تستطع .

قال كاف:

ـ عمّ كنتما تبحثان؟ فأنا لست ذبابة كي أختفي داخل الكتب!

قال پرويز:

ـ كنا نبحث عن وصيتك يا سيدي .

قال كاف:

ـ لقد كنت تقول إن من يريد أن يقوم بهذا العمل لا يكتب شيئاً.

قال پرويز:

ـ ولهذا السبب ظننّا أنك أوقعت على رأسك بلاء.

قال كاف:

ـ لقد فرحت حقاً بهذا الحرص والاهتمام اللذين صدرا عنكما، عندما رأيتكما قلقين حائرين بسببي كأنني عدت من العالم الآخر ورحت أنظر إلى أصدقائي الأوفياء الطيبين فلم تعد الفرحة تسعني.

قال محمد:

ـ طيب؟

قال كاف:

ـ ومن أجل هذا الوفاء ذاته، صممت أن أقيم حفلة ممتازة الليلة، موافقان؟

قال پرويز:

ـ يجب أن تُغرَّم أكثر من ذلك بكثير.

قال كاف:

ـ إذن فهيا ننطلق.

قال محمد:

ـ فلنجمع ونلملم هذه الفوضى.

قال كاف:

- اتركاه، ليس عملُ الآن.

عندما خرجوا من الغرفة، كان المساء قد حلّ وبرد آخر الخريف يرقى السلالم.

(٤)

في آخر الليل، مهما فعل محمد وپرويز فإن كاف لم يكن مستعداً للنهوض عن المائدة وكان يظهر شهوة طاغية للشرب. قال محمد، الذي نفد صبره:

- أفليس المفروض أن نذهب إلى العمل صباحاً؟

قال كاف:

- إذا كان غدي طيباً مثل اليوم فلا.

قال محمد:

- ما كانت طيبته اليوم؟

فسأل كاف:

- ما الذي كان غير الطيب فيه؟

قال پرويز:

- غير تلك اللعبة السخيفة التي أهلكتنا فيها لم يقع حادث آخر.

قال كاف:

- ألم يكن ثمة شيء غير هذا؟

قال پرويز:

ـ أي شيء آخر؟

قال كاف:

ـ ألم تريا الشمس اليوم؟ ألم تريا السماء؟ أفلم تريا أنه كان في الدنيا شيء جيد أيضاً؟

قال محمد:

ـ كف عن التباله، كان ذلك الشيء فيك لا في الدنيا.

قال كاف:

ـ ولا يزال موجوداً، لا يزال يتحرك.

قال پرويز:

ـ لو قمنا فذهبنا إلى البيت يكون جيداً.

قال كاف:

ـ أريد أن أشرب.

قال محمد:

ـ إنهم يغلقون المقهى، ينتظروننا.

ـ حسناً جداً، نشتري الشراب ونأخذ فنشربه في البيت.

عندما نهضوا أخذ كاف زجاجة شراب أخرى وخرجوا من المقهى. كانت ليلة باردة، انطلقوا في الطريق دون أن يفتحوا شفة. عندما بلغوا باب منزل كاف، قال محمد:

ـ إننا ذاهبان الآن إلى البيت ، فاصعد أنت ولا تعاود الشراب .

قال كاف:

ـ أنتما لا تشربان؟

قال محمد:

ـ كلا ، بعد .

قال كاف:

ـ جيد جداً .

وودع ورقى السلالم صافراً ، قال محمد لپرويز:

ـ تبدل على نحو ما .

فقال پرويز:

ـ أي نحو؟

قال محمد:

ـ لا أدري ، شيء سيئ نشط ، فيه شيء .

(٥)

نقف كاف مفتاح النور واجتاز فوضى الغرفة فجلس على السرير . كان دافئاً خفيفاً ومرتاحاً . نظر لحظات ، بدون اهتمام ، إلى الجدار المقابل ، ثم نهض وتناول كأساً عن الرف وَذهب فجلس وراء المنضدة ، فتح غطاء الزجاجة وملأ الكأس ، وعندما وضع الزجاجة على المنضدة رأى زجاجة اللومينال التي كانا

تركاها حاضرة جاهزة أمام عينيه. نظر مدة، ثم فتح غطاء الزجاجة وأفرغ الأقراص في الكأس وجلس ينتظر انحلال الأقراص ببطء وانعجانها، ثم خلط - بقلم رصاص كان على المنضدة - محتويات الكأس، وبدون أن يلتقط أنفاسه أفرغها جميعاً في نَفَس واحد في معدته. وضع الكأس الفارغة جنب زجاجة الشراب على المنضدة، وراح يضحك بصوت عال.

الحـواشـي

(١) طبخ حساء كثير السمن ، أو يلتذ منه المخاطب ، أو الغائب ، كناية عن رسم خطة مؤذية .

هُوشَنْكَ كَلشيري

ولد هُوشنكَ كَلشيري سنة ١٩٣٧ في أصفهان. احترف التدريس وأصدر في سنة ١٩٦٨ أول مجموعاته القصصية باسم «مثل هميشه»[١] التي دلت على أنه من أنصار أسلوب ابن مدينته، الكاتب بهرام صادقي. قبل ذلك كان بالطبع يكتبِ الشعر أيضاً ولكن موفقيته في كتابة القصة تكون سبباً في أن يضع كتابة الشعر جانباً إلى الأبد. ثم أصدر بعد ذلك رواية «شازده احتجاب»[٢] التي وسع فيها تجديدات كتابه الأول ومنحه رسمية كونه تجربة لأسلوب خاص في دائرة اللغة الفارسية، الأسلوب الذي يُعرف في الغرب بـ«الجريان السائل للذهن». وقد صُنع من تلك الرواية في الوقت نفسه فيلم سينمائي زاد شهرة الكتاب وكاتبه.

إن شازده احتجاب رواية ذهنية وكابوسية للمتبقي الأخير من طبقة أشراف ينتظر، وقد تعب من عبء الجور والظلم والجريمة لسنوات طوال، زواله القطعي.

أصدر بعد ذلك روايتي «كريستين وكيد» و«بره كَمشده راعي»[٣]، اللتين لم تحظيا، بالطبع، بنجاح روايته الأولى.

روايتا «آينه هاي در دار»[٤] و«جن نامه»[٥] هما روايتاه التاليتان، صدرت الثانية منهما خارج البلاد. ومن أعماله الأخرى أيضاً «نمازخانه كوچك من»[٦]، «دست تاريك، دست روشن»[٧] وسيناريو «دوازده رخ»[٨].

كان فعالاً جداً دائماً في إدارة المنشورات الأدبية ودروس كتابة القصة، وقد ترك أثر أسلوبه وتعليماته في جيل من الكتّاب.

كان في العقد أو العقدين الأخيرين من حياته من الوجوه الفعالة في النضال ضد الرقابة وجاهد من أجل بعث «مركز كتّاب إيران». وفقد الأدب الإيراني المعاصر، بوفاته غير المتوقعة في صيف سنة ٢٠٠٠، واحداً من وجوهه الأصلية.

* * *

انتُخبت قصة «رسام باغان» من مجموعته «يد مظلمة، يد مضيئة»، وهي قصة كاتب يلتجئ - بمعية امرأته وطفليه وإثنين من أقرباء زوجته - من أجل الفرار من القصف الصاروخي لطهران (في حرب إيران والعراق)، بضعة أيام في قرية منقطعة. وهناك يحرز الكشف القطعي لتقابل الواقع والخيال. إن الواقع والخيال ظاهرتان مستقلتان تماماً، وربما كان حدسنا فقط هو ما يصورهما منفكين! ربما كان «الخيال» واقعاً آخر، وربما هو يتمتع بقطيعة يمكن، بمعزل عن الزمان والمكان، أن تتجلى في شكل منحصر بتجربة آلاف الناس. هل يتمتع المبدعون، سواء كانوا رسامين أم كتاب قصة أو مؤلفين موسيقيين، بخيال مشترك لا يفهمه الناس الآخرون أو لا يأخذونه بالحسبان؟ ربما كانت ذكرى التعليق هذه التي تحمل الفنان في جو مختلف و«لم يصر له حكم العادة» على مشاهدة شيء يكون موجوداً في لحظة فقط ولا يوجد بعدها، مثل ديك ينقر الأرض، أو يكون على الجدار ولا يوجد غيره أي شيء غير صفحة بيضاء ماصّة. وسر الخلق هو هذا فقط.

الحواشي

(١) كما هو دائماً.

(٢) الأمير احتجاب ـ ستصدر بترجمتي عن المجلس الأعلى للثقافة في مصر.

(٣) حَمَل الراعي الضال.

(٤) المرايا ذوات الأبواب ـ ستصدر بترجمتي وباسم «مرايا الذات» عن المجلس الأعلى للثقافة في مصر.

(٥) مكتوب (أو كتاب) الجن.

(٦) مصلاي الصغير.

(٧) يد مظلمة، يد مضيئة.

(٨) إثنا عشر رُخّاً.

رسام باغان

هوشنك كَلشيري

كنا ستة نفر: أنا وزوجتي وطفلين وخال الأطفال وزوجته، مهري، التي كانت حاملاً في شهرها السابع. كنا ذاهبين نحو «ألموت»(1). عندما أصاب الصاروخ المبنى ذا الثلاثة الطوابق الذي لم يعد موجوداً، فوقنا بثلاثة أزقة، قررنا الانطلاق. كانت زوجتي پري، التي اسمها پريچهر ولكنني كنت أدعوها بانو، قد رتبت كل الأمور، وأخذت إجازة بلا أجر وأعلمت الخال. عندما وصلت لم يكن عليّ إلا أن أنقل الأثاث إلى باب الحديقة، وأساعد ـ عند مجيء الخال وزوجته ـ على شده فوق قاعدة الأمتعة في سيارتهم الـ(لاندروفر). أنا أكتب، وهذا أمر معروف، أكتب القصة. مضى زمن لم أكن أكتب فيه شيئاً. أتصور بضع سنوات. سأقول السبب فيما بعد. كما أن ما أكتبه هو تقرير عن أحوالي الشخصية. إن الخال مهندس مدني، ولكنه يعمل في شركة تجارية. يعرف اللغة الإنكليزية ويدير علاقاتها الخارجية. ومهري رسامة، ترسم لنفسها أشياء وتكدسها فوق بعضها. إننا نقول فقط إنها رسامة. كانت قد جلبت إحدى لوحاتها هدية لبيتنا الجديد علقناها في جدار غرفة الضيوف. موضوعها كوخ، هي تقول، إذ لا نستطيع نحن أن نرى غير بابه نصف المفتوح. والباقي مجرد ألوان متراكمة مخلوطة كأننا نرى، زعماً، كوخاً من وراء عاصفة. كان ابننا بابك في الثانية عشرة من عمره تلك السنة، ولكن ابنتنا، صنم، كانت في العاشرة فقط. ولها حبة على خدها الأيسر تمنح وجهها، حسب قول بانو،

ملاحة. پري موظفة في شركة النفط، وأنا أكتب فقط. أو، الأفضل، كنت أكتب ومن أجل المصاريف والنفقات أعطي دروساً من الصبح حتى الظهر. لست معلماً على نحو رسمي، ومع ذلك أدرِّس في معهد، وفي الساعة الواحدة أيضاً - هذه عادتي - أغفو كي أقوم بعد ذلك فأكتب شيئاً وقلت سابقاً إنني لم أكتب منذ سنة. وأريد الآن أن أكتب الأشياء الموجودة.

بعد الظهر تجاوزنا كرج، وعلى مقربة من قزوين[٢] استدرنا نحو ألموت. إلى هناك كنت أقود وكان الخال نائماً في مؤخرة السيارة. كان قال أن نوقظه عندما نصل «معلم كلايه». لم أمض سريعاً، لأنني كنت أظن أن مهري تطرح حملها، ولكن عندما جلس الخال وراء المقود، مضى بأقصى سرعة. قال: ينبغي أن نجتاز المضيق قبل أن يحل الليل، وإلا سنضطر أن ننام الليلة في الفندق.

فكرنا أن من الأفضل أن تجلس مهري في المقدمة، حيث حركة السيارة أقل. كان الخال يقول: إذا كان طفلي فأنا واثق من أنه لن يسقط بهذه الهزات.

عندما بدأ الطريق الترابي، تقيأت مهري مرة أو اثنتين، ولكن ذلك انقضى على خير. كانت الأشجار قد تبرعمت، ولكن طبقة رقيقة من الجليد استقرت فوقها. كانت مهري تقول:

- ليت ممكناً أن نتوقف في مكان ما كي أرسم تخطيطاً.

قال المهندس: عندما نجتاز المضيق، فسنتوقف أينما تريدين.

وصلنا المغرب إلى المضيق. كان ضباب، يعني أنه على يسارنا كان الضباب يقف معلقاً فوق واد لم نكن نراه. وإلى يميننا كانت حافة مملوءة جليداً. كنا نتوقف أحياناً ونلتصق بالحافة كي تأتي سيارة، سمعنا صوت بوقها، وتتجاوزنا.

لم تكن بانو تنبس بحرف، ولكنني كنت أفهم من يدها المتشبثة بالميل الأوسط أنها كانت تفكر بعمق الوادي. عندما انجلى سهل رودبار[٣] الأخضر من وراء الضباب، تنفست بصوت عال وتركت الميل. قال الخال:

ـ طيب، عبرنا، يمكننا الآن أن نتوقف جنب النهر ونأكل شيئاً.

انفجرت مهري فجأة بالبكاء، كانت تقول:

ـ كم هو جميل! إنني لا أصدق.

توقف إلى جانب الجسر ولم تتح لنا الفرصة إلا أن يشرب كل واحد منا شاياً. دخنت أنا سيجارة أيضاً، لأنني لو كنت دخنت داخل السيارة لكانت مهري سيصيبها الغثيان، أو ربما بانو ـ كي لا أدخن كثيراً ـ زعمت ذلك من نفسها. كان الطفلان قد ذهبا إلى جانب النهر وانحنت مهري عند رأس الجسر كي ترى، كما قالت، الماء كيف يصير عندما يصطدم بأسس الجسر. عندما انطلقنا كان الوقت مساء فكنا مضطرين إلى المضي ببطء، كي لا نعبر لوحة جادة باغان. كان بابك وصنم يقرآن اللوحات قبل وصولنا. كانت مهري تقول:

ـ إذا ما أراد الطفل أن يأتي ابن سبعة أشهر، ماذا نفعل؟

قال الخال:

ـ في باغان حتماً هناك أحد، كما أنك رأيت معلم كلايه، فيها مستوصف.

أخيراً، وصلنا عند منتصف الليل إلى وسط ميدان القرية. ذهب خال الأطفال ليعود مع محمد، الذي قال إنه أخو موزع المرطبات في شركتهم. كان نعساناً، ويوالي الاعتذار بأن بيتهم لا يليق بنا. صعدنا زقاقاً ضيقاً ووصلنا أخيراً أمام طريق سلالم حديد يصل إلى غرفتين. لم يكن ثمة أحد في الغرفتين، ولكن كان معلوماً ـ من طفل ابن خمس سنوات أو ست يقف أمام المدخل ـ أن

محمد خدابنده اضطر أن ينقل زوجته وأطفاله، والنوم يغالبهم، إلى مكان ما كي نتمكن من النوم. لا أتذكر ما أكلنا. كانت بانو تقول:

ـ كنت قد أعددت كباباً شامياً، أكلناه في السيارة.

طيب، ربما. أنا كنت دائخاً من حاجتي للنوم. لأنني كنت استيقظت مبكراً في الصباح ولم أتمكن أن أغفو في السيارة، لكثرة ما تكلم الخال عن صفاء صاحبه الباغاني هذا.

نمنا ليلاً في مكان ما وعندما استيقظت، وجدتني وحيداً. مقابلي، فوق المستوقد، رأيت تخطيطاً مائياً لجسر تصورته الجسر الذي على رودبار نفسه. لم يكن له إطار، وقد ثبتوه على الجدار بمسمار عريض الرأس. عندما وصلت مدخل الغرفة انتبهت للتو أن بيوت القرية أقيمت على صدر جبل، وكما في ماسوله[٤] كانت باحة كل بيت سطح البيت الواقع أسفله. كان ميدانها في الأدنى، ومن هذا الارتفاع كانت سيارة خال الأطفال بائتة جنب سيارة أو سيارتي ركاب وحافلة صغيرة. وبعد ذلك لم أفهم ما جرى. كأنني سقطت في ذلك الضباب المعلق على الوادي نفسه. لم يكن دواراً، لا، كانت حالي جيدة ولكنني كنت أدرك أنني لست أنا. كان الميدان لايزال موجوداً، وكان للبيوت ذلك الأصيص المنصوب في الحلقة المثبتة بالسياج؛ ولكن ذلك كان مثل ذكرى بعيدة وكنت أنا أخاف في كل آن أن أصطدم بزاوية حادة لصخرة كنت أظنها لابد تنتظرني في الأدنى. لم يدم هذا، حقاً، طويل وقت. عندما صحوت على نفسي وجدتني متشبثاً بأميال السياج وأدركت للتو أن الزهر في الأصيص هو زهر إبرة الراعي مازالت برعمتان منه لم تتفتحا.

لم أكلم بانو، ولكنني عند الغداء سألت خال الأطفال: أبحثت لترى إن كان هنا طبيب أم لا؟

قال: لو كان طفلي فهو لن يتحرك من مكانه قبل أن يصير وزنه خمسة كيلو غرامات.

كانت بانو ومهري قد ذهبتا إلى أعلى بيت من جهتنا، كانتا تقولان:

ـ ثمة نبع لا يستطيع المرء أن يرفع منه عشر حصوات.

قلت لبانو: «أين محمد هذا؟».

قالت: «هناك تحت، تحت هذه الغرفة بالضبط. في بيت أبي زوجته.

لم أتكلم بعد. ولكنني نزلت إلى أدنى بعد الظهر بذريعة شراء لحم وحبوب وسجاير. كان البقال يقول: ثمة مستوصف، وطبيب هندي يأتي مرتين في الأسبوع فقط، ولكن هنا يأخذون المرضى في الأغلب إلى قزوين. وكان عندنا إلى قبل بضع سنوات طبيبة نساء توفيت.

صرفت النظر عن خير الطبيب الهندي. ظننت أن الدم تخثر في إحدى شعيرات رأسي الدموية ثم عبر. ولقد صممت أن أذهب في طهران ـ عندما نعود ـ إلى متخصص لأرى كم سنة من العمر أمامي. عندما عدت لم أذهب، لم تكن ثمة حاجة. وإنني أدري الآن أيضاً بأن تلك لم تكن جلطة. ومع ذلك فليس هذا هو السبب في أنني أكتب هذا.

واشتريت من البقال بضعة دفاتر وقلم حبر جاف أو إثنين. فكرت أن أبدأ منذ الغد، بالبقاء صبح كل يوم بذريعة الصداع، فأكتب شيئاً.

في الليل عندما كنا نتعشى داخل الغرفة ـ كانت بانو قد طبخت ـ لم تظهر مهري. قال خال الأطفال:

ـ لا خوف عليها.

فجأة ظهرت، حاسرة الرأس مكشوفة الوجه وبلباس النوم إياه. قال خال الأطفال:

ـ أفلم أقل ضعي شيئاً على رأسك؟

أدارت يداً في الهـواء، كما عندما نريد أن نبعد ذبابــة عن وجوهــنا، ثم قالت:

ـ رسم أحدهم ما رأيتُ.

قال الخال: «ماذا؟»

فقالت:

ـ تعال انظر بنفسك. هذا المنظر ذاته الذي رأيتُه في الطريق وفكرت أن من المناسب أن أرسمه.

لا أدري كيف وقع نظرها على تلك اللوحة المائية فوق المستوقد. قالت:

ـ هنا أيضاً يوجد واحد.

ربما انتبهت للوحة من حركة رأسي. قالت:

ـ لمن تعود هذه؟

كانت لوحة غرفتهم أيضاً قاعدة الجسر إياها التي، كما كانت مهري تقول بالضبط، تُرى من فوق الجسر. لم يأت محمد ليلاً، وعندما ذهب الخال يطلبه، قالوا إنه ذهب إلى المدينة. نام الطفلان مبكرين مساء، وأشعلنا نحن، أعني أنا والخــال، الخشــب داخل مسـتوقد الباحة ورحنا نهذر حتى منتصف الليل. قال أولاً:

ـ أصاب صاروخ ليلة أمس أطراف محطة آلستوم الكهربائية.

قلت:

ـ لقد جئنا إلى هنا كي لا نفكر في هذا بعد.

ثم تحدث عن شركتهم، وغير ذلك، وعن أخي محمد هذا الذي كان مازحاً وكفوءاً طبعاً. وانجر الكلام أخيراً إلى النساء أيضاً فقال إنه يخاف أن تسبب لنا مهري بأعمالها هذه مشكلات.

فسألت:

ـ ما الذي جرى؟

قال:

ـ لقد شغلتها هذه اللوحة المائية حقاً، إنها تظن أن أحدهم رسم منذ وقت بعيد ما رأته هي عصر أمس بأشكال الأمواج نفسها، وحتى لطخة الغيم التي كانت رأتها في الماء.

فقلت:

ـ طيب، ربما نظر أحدهم في الساعة عينها من هذا الفصل ذاته من هذا المكان إياه إلى الماء.

فقال:

ـ أنا أيضاً قلت هذا، ولكنها قالت جواباً علي: «عندما نظرت لم تكن لطخة الغيم هذه هنا حيث هي الآن؛ فكرت أن من الأفضل أن أرسمها جنب ظل أساس الجسر بالضبط». ولهذا السبب تظن أن أحداً فكر في مكان ما مثلها، أينما يكون رأى الغيمة، أن من الأفضل أن يرسمها وكأنها متكئة على الحافة، كأن الغيمة مثلاً تنظر من علٍ إلى شكل الأمواج.

قلت: «هذا يروح. في الأول كل من يبدأ، يزهق من تقابل الواقعية والخيال هذا».

فسأل: «لم تصب حتى الآن بأمثال هذه المشكلات؟».

قلت: «دعني أرَ، أقالت لك يري شيئاً؟».

فقال: «أشارت على نحو ما، ولكنك أنت أيضاً تقول إنك لا تستطيع الكتابة منذ زمن».

قلت: «يحدث أحياناً».

قال: «يعني أيستغرق هذا كل هذه المدة؟».

فقلت إنني كتبت أشياء كلها لم يكتمل. ثم قلت أيضاً إنني كنت أفكر ذات يوم أنه يمكن تغيير شيء بالكتابة، ولكنني أفهم الآن أن العمل الفني لا يؤثر حتى في صاحبه، فما بالك بالمجتمع. أظن لهذا السبب أن مسألة الاستخدام الاجتماعي للفن مقولة طويلة الأمد لا يمكنها ـ إن لم تخلط بالكتابات السياسية ـ أن تكون مواصَلَةً للعمل.

حسناً، قلنا كلاماً آخر أيضاً، غير مهم. كنت أخفي - في الأكثر - عقمي وراء هذا الكلام. انتبهنا فجأة أن مهري قد جاءت إلى الإيوان، وقالت:

- لا يواتيني النوم.

ذهب الخال فجلبها، وكانت قد لفت حولها بطانية. سألت مهري:

- ما كنتما تقولان؟

فقال الخال أشياء.

قالت: كنت أسمع.

ثم سألتني: ليست الكتابة كالولادة كأن يكون المرء مضطراً مثلاً في لحظة بالذات أن يكتب؟

فقلت: يتحقق مثل هذا الوضع أحياناً، ولكن الحقيقة أنه ليس للحاصل أية علاقة بوليد الإنسان، بحيث يقول امرؤ هذا هو الموجود.

قالت: إذن، فإن لم يكن فيه إجبار، فلماذا يحمل الإنسان نفسه عنتاً حتى يترك بضع لوحات؟

ثم تحدثت عن اللوحة المائية التي في غرفتهم، قالت: إن هذا الشخص، كائناً من كان، رسمها من دون إحساس بأي ألم أو حتى ضغط، كما لو أن اليد ترسم من ذاتها.

وفي اليوم التالي أيضاً ذهبتْ مع خال الأطفال كي تحصل على مقوًّى زعماً. وجدت - متعجبة - أنه يوجد، وحتى أنواع أنابيب الزيت وقماش الرسم. كما وجدا قائماً ثلاثياً أيضاً. بعد نوم العصر رأيتها ترسم في هذا الإيوان شيئاً ما. كانت تستخرج تخطيط غصن تبرعم من بين لون الأرضية، عندما سقطت الفرشاة من يدها، فخطفت رأسها وقالت:

- ماذا جرى؟

رأيت أن رأسها انحنى فوق القماش وأن شيئاً تشبثت يده بالهواء فأمسكته. كأنني كنت أدري أن هذا الوضع سيحل، حتى أنني - وأتذكر ذلك - عندما صحوت جلست مدة نائماً - صاحياً، أنتظر متى يأتي صاروخ فيسقط في الأنحاء.

لم تصب مهري بشيء. عندما جاءت بانو، ذهبتُ لرؤيتها. ثم ظهر خال الأطفال. كان مقرراً أن يأخذها في اليوم التالي إلى قزوين. في صباح اليوم التالي قالت مهري إنها بخير وإن كل شيء على ما يرام وقد زال دوارها.

جاء محمد أيضاً وقال: سمعت أنه منذ ليلة أمس لم يضربوا طهران بصاروخ.

ولم نسمع نحن أيضاً صوت صفارة إنذار من الراديو. تقرر أن يسأل الخال؛ فإن كان ذلك صحيحاً ننطلق بعد الظهر. في الحقيقة لم أكن أريد أن نعود بهذه السرعة، ما قبل الظهر عندما كنت أجلس في ذلك الإيوان كانت ذكرى ذلك التعليق - كما عندما تنفتح في النوم فجأة ثغرة تحت قدم المرء - تجبرني على كتابة أشياء، أكتب في الأغلب قطعة عديمة اللون من ذكرى بعيدة ثم أتركها لحظات مثل الآن إذ أستطيع أن أكتب بفراغ بال. ذهبت مع بابك وصنم إلى فوق، نبحث عن النبع الذي ذكروه لنا. بقيت بانو عند مهري. كانت صنم تقول إنها رأت صباح أمس في الميدان هذا السيد نفسه الذي رأته ذلك اليوم جالساً عند النبع، يبري بسكين صيدٍ عوداً.

لم يكن ثمة أحد عند النبع. شربنا ماء وحمل كل منا بضع حصوات من قعر النبع، وقبل أن تصل إلى خمس حصوات أو ست رفعنا أيدينا. من هنا كانت القرية كلها تُرى. كانت بيوت القرية قد ارتفعت في دائرة، ناقصة بالطبع، من صدر الجبل. كانت البيوت هنا فوق خالية في الأغلب، أو مهدمة أصلاً. درنا وهبطنا من طرف القرية الآخر. كان الخال في الميدان، قال:

- ننتظر اليوم فنرى ما يجري.

على الغداء قالت مهري إنها تكلمت مع محمد كي تشتري منهم اللوحة، فقال محمد إن ظلَّ أساس الجسر جزء من جهاز زوجته، وإن هذه تخص أخاه، الذي يجب أن يقرر هو.

قالت مهري: «إن زوجة محمد كانت تقول: توجد واحدة منها في أغلب الغرف هنا، وما من أحد يشتريها كي يبيعها فيما بعد مثلاً».

في مقهى قرية باغان أيضاً كانت هناك واحدة. نسيت أن أقول لمهري، لكنني متأكد من وجودها. هذه السنة عندما ذهبت، رأيتها. وفي المدينة أيضاً كنت أرى أحياناً تخطيطاً مائياً انتقل من يد إلى يد، وقد علق الآن في زاوية ما، بعيداً عن نظر الضيف أو حتى صاحب البيت، على الجدار. وما كانوا يفكرون فيه قبل أن أذكره.

في تلك السنة عدنا أخيراً في العشرين من فروردين[٥]. ولكننا لم نكن قد وصلنا (كرج)[٦] بعد عندما رأينا السيارات تأتي، واحدة ملتصقة بالأخرى، من طهران.

لم أكن أريد أن أقول هذا، ولم أكن أريد أن أتحدث عن مهري التي عندها الآن طفلان، واحدة في السنة الثالثة وواحد في الشهر السادس، حتى عن نفسي لم أكن أريد أن أقول، صرت أفكر في تلك السنوات وذكرى قرية باغان فقط عندما وجدت على أوراقي تلك الحال المعلقة بين الأرض والسماء. كان المهندس يقول: إن مهدي خدابنده، موزع المرطبات عندهم، لا يتذكر أنه رأى لوحة في تلك الغرفة. كان قد قال:

ـ عندما أذهب هذه المرة سأجلبها للسيدة.

عندما سمع بابك أنني وخاله نتحدث عن باغان تذكر للتو أن صياد النبع قال سلّم لي على فلان، يقصد عليّ.

قلت للخال:

ـ أريد أن أذهب بضعة أيام إلى ألموت، وإن تيسّر أمر بباغان أيضاً.

فقال:

ـ إذن أرجوك لا تدع مهري تسمع، لأنها ستخرج روحي أن: ماذا صار من تلك اللوحة التي قال مهدي إنه سيجلبها.

في اليوم التالي، انطلقت مع أحد الأصدقاء. عندما رجعنا من ألموت بقينا ليلتين في باغان. إن رحمت مصور، وكان يذهب من الصباح إلى المساء كي يلتقط صوراً من كل زاوية ومكان. بقيتُ في اليوم الأول في هذا الإيوان ذاته.

كنت أدري أن أحداً كان ينظر إلي من مكان ما، فلم أكن أقدر أن أكتب.

مساء قال رحمت:

ـ «رأيته». فقلت:

ـ «من؟»، قال:

ـ ذاك الذي يرسم هذه اللوحات.

لم أصدق، ولكن عندما أراني أين يقع بيته، فكرت أنه لابد أن يكون أمامنا باستقامة كي يستطيع أن يرانا. انطلقت مساء، وبيدي مصباح يعمل على البطارية، كي أراه. لم يكن في بيته أحد. عنده غرفتان بُني إيوانهما على عمودين حجريين. كانت الستائر مسدلة، ولكن مصباح الغرفة الأولى، التي يبدو أنها كانت مشغله، كان مضاء. جلست وقتاً قريباً من هناك. كانت همهمة القرية تصل إلى ذلك الارتفاع وكانت المصابيح تعقد حلقة، مثل بتلات زهرة كبيرة، حول الميدان وراكبة فوق الكتف أيضاً إلى الخط الأدنى تحت هذه الشرفة.

سمعت في صباح اليوم التالي في الميدان من إلياس، صاحب حانوت قرطاسية القرية، أن «حضرته» ـ وهو الضمير الذي يستخدمه بدلاً من اسم الرسام ـ نادراً ما يهبط في العادة، ولابد أنه كان ليلة أمس أيضاً هابطاً، لأنه يستيقظ مبكراً صباحاً ويرسم حتى الغروب.

رأيته بعد الظهر. قال رحمت:

ـ موجود، لم يسمح بأن أصوره. قال: «أنت تعرف، نحن القرويين خرافاتيون».

وعندما قال رحمت: ماذا عنك؟ كان قال: «أنا لا شأن لي بالناس».

رأيته، من السلالم الحجرية التي كنت أرقاها، واقفاً في إيوانه ينظر إلى مكان ما بالناظور. وعندما وصلت حيا أحدنا الآخر وسأل عن حاله، فجامل قائلاً: «تفضل!». قلت: «عسى ألا أكون مزاحماً؟» قال:

ـ بل بالعكس، أنت مُراحِم.

رقيت السلم الحديد الذي كان أشبه بالدرابزون. كان شيخاً طويل القامة

قد حشر ساقي بنطلونه، المثبت بحبل، في جزمته البراقة، وهو يقف الآن قبالة حامل ثلاثي الأرجل، يلصق عليه ورقة.

قلت: «كنت ماراً من هذه الناحية، فقلت لأحيي».

قال: «أرجوك أن تقول كلامك بصراحة، إنك تلاحظ أنني لم أسمع منذ عشرين سنة أمثال هذه المجاملات».

أشار إلى كرسي خيزران على الجانب الآخر من القائم، وقال:

ـ إن كنت متعباً يمكنك أن تجلس عليه.

عندما كنت أمر من ورائه، وجدت أنه كان ينظم المستطيل المنصوب لسياج الفيرندا. كان يقوم على أساس، ويبدو أنه يمكن إدارته على ذلك الأساس ويمكن رؤية مكان واحد في كل مرة، من داخل إطار هذا المستطيل. قال:

ـ الشاي على السماور، إن أردت يمكنك أن تصب لنفسك.

كانت الغرفة الأولى شيئاً مثل مرسم مملوء بلوحات مستطيلة متكئة على الجدار أو مركومة داخل رفين وفوق منضدة خشب مستديرة على أطرافها الأربعة أربعة كراسيّ قابلة للطي. وكان فيها باب أيضاً يتجه نحو الجبل ربما كان لمطبخ. وفي الغرفة الأخرى لم يكن غير سرير مفرد وبضعة كتب وضعت فوق بعضها على طاولة منخفضة جنب السرير. وكان راديوه أيضاً فوق الطاولة نفسها وسماوره النفطي على مقعد رباعي الأرجل جنب النافذة متجهاً نحو الصخرة السوداء. لم أجد غير كأس واحدة. كان لها يد. عندما استدرت والشاي في يدي، وجدته لايزال يعبث بالمستطيل المتجه إلى القرية. أمسكه أخيراً في مكان ما وبدأ يشد برغيّه.

كان له ستون سنة ونيف من العمر، وربما أكثر. كانت غضون عنقه تجعله يبدو أكبر سناً، ولكن عندما أتذكر انتصاب قامة ذاك وذلك الشعر البلوطي المنثور فوق كتفيه كشعر الدراويش، أظنه في حدود الخمسين. قلت:

ـ رأيت واحدة أو اثنتين من لوحاتك في طهران.

فقال: «ربما كانت من عمل شخص آخر».

قلت: «لماذا لا تريد أن تقيم معرضاً، وتعرضها».

فقال: «إنك لم تأت إلى هنا كي تكتب عني؟».

فقلت: «لست أدري».

قال:

- مضى عليّ في أول مرداد[7] من هذه السنة اثنتان وعشرون سنة وأنا أعيش داخل هذا البناء. كل من يريد، يأخذ من هذه وإن أراد يجلب بدلاً عنها شيئاً، إن فلاحي هنا يجلبون قنداً وشاياً، وأحياناً حتى أكياس أرز، وأولئك الذين صاروا الآن سكان مدن يقدمون لي الورق والأصباغ، وفي بعض الأحيان يضعون حتى المال في ظرف. في تلك السنوات كنت أذهب إلى الريفيرا و... لا أدري.. مقهى نادري وفردوسي وحتى سلمان، ألهو مع الأصدقاء وأشرب، نقيم معارض، نتغيب و.. لا أدري.. لا يواتينا النوم ليلاً من كثرة الحسد. ذات سنة عندما جئت مع زوجتي هنا كي أرسم - زعماً - شيئاً، انشددنا فبقينا. أنا شخصياً موجود، وراض أيضاً لأن الأطفال - بناتي - كبروا وعندهم من الثروة ما يجعلهم لا تتعلق أبصارهم بيدي. وليس ثمة في حياتي شخص آخر كي تحملني توقعاته على أن أضع توقيعي تحت هذه وأعين لها قيمة.

ثم تحدث أيضاً عن زوجته، وقال:

- كانت طبيبة أمراض نسائية، وعندما توفيت دفنّاها في هذه المقبرة الواقعة في أول باغان.

على ذلك النحو تكلم وتكلم، ولست متأكداً مما إذا كان قال دقيقاً هذا الكلام الذي كتبته. وفيما كان يتحدث كان يتفرج بالناظور على المنظر المقابل. قال:

- إن عملي يشبه الآن أن نغلق اليوم الباب الذي فتحناه بالأمس؛ وربما بالعكس.

وفي الآخر جاء أيضاً، أخذ الكأس من يدي، وسأل:

- أتشرب مزيداً من الشاي؟

قلت:

ـ ليكن، فيما بعد.

قال:

ـ عندي بضعة كؤوس. بعضها تركه أمس مسافر لقاء منظر المساء هنا الذي رسمته عن النبع.

لا أدري لماذا ارتجفت. ثم قلت عن نفسي إن يدي وقلبي لا يهويان العمل.

قال:

ـ يحدث أحياناً.

ثم تحدثنا بعد ذلك عن الفرق بين هذين العملين اللذين نمارسهما نحن الإثنين. قال:

ـ مازلت أقرأ. هنا، يصير البعض طالب جامعة، وعندما يأتي ماراً، يجلب كتباً عندما أقرؤها أعطيها لإلياس كي يفعل بها ما يشاء.

أخرج منديلاً من جيب بنطلونه وتمخط، وقال:

ـ أرجو المعذرة.

وأخيراً نهض وذهب كي يرسم شيئاً. كنت أجلس في مكاني وأنظر إلى الميدان وأرى من زاوية عيني أيضاً أنه يغير ثانية اتجاه مستطيله وإذا بي أرى فجأة جنب حاشية الطريق الممتد إلى الميدان ديكاً ينقر الأرض، ثم، وفجأة لم يعد هناك، أو ربما أنا لم أكن، وكانت هناك ـ بدلاً من الحاشية التبن ـ طينية في الأسفل والجنبات على الجدار وذلك الديك ـ حفرة مستطيلة بيضاء كأنها تمتص من هذا الجانب هواء الزقاق والميدان. نهضت مرتعباً وذهبت لأرى ما يرسم. لم تعد الورقة الآن بيضاء. عندما رسم الحاشية وبضع الجنبات اليابسة تلك، رسم الديك على الجدار. كان يعمل سريعاً، وبكل ضربة فرشاة يرفع رأسه وينظر إلى المستطيل نحو الزاوية إياها. كنت كأنني لاأزال أقف معلقاً بين الأرض والسماء، كنت قد حبست نفَسي، كي لا يعرف أنني أنظر من وراء ظهره لأرى ما كان يرسم. عندما نظف الفرشاة بمنديل، تنفس كلانا الصعداء.

نظرت، كانت تلك الزاوية الفراغية الماصّة لاتزال فاغرة فمها، وإذا بي أجده يخلع الورقة عن القائم ويؤطرها بالمستطيل المواجه للميدان. نظرت، لم يعد المستطيل الأبيض الماصّ موجوداً، وكان الديك الآن على الجدار، رافعاً عنقه، كما رسمه هو. ثم لما جلست وأغمضت عيني كي أتذكر ما رأيت، سمعت صوت صياحه.

كان هذا هو ما رأيت، أو ذلك الشيء الذي أستطيع الآن أن أكتبه، الآن إذ - كما يقول خال الأولاد - مات الرسام الباغاني ودفنوه جنب زوجته في تلك المقبرة إياها على طريق باغان.

١٩٩٣

الحواشي

(١) قلعة تقع قرب مدينة قزوين. كانت أولى معاقل الإسماعيليين.

(٢) قضاء يقع على بعد نحو ستين كيلومتراً شمال غربي طهران.

(٣) قضاء في محافظة كَيلان؛ شمالي إيران.

(٤) مدينة أخرى في محافظة كَيلان، اشتهرت بمعمارها الموصوف هنا، وصارت معلماً سياحياً بسببه.

(٥) ٩ نيسان.

(٦) قضاء على بعد نحو أربعين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من طهران.

(٧) ٢٣ تموز.

كَلي تَرَقي

ولدت كَلي تَرَقّي في طهران سنة ١٩٣٩. تتمتع عائلتها بمركز ثقافي ممتاز نسبياً، فقد كان أبوها مؤسس صحيفتين مهمتين في زمانه: «ترقّي» و«آسياى جوان»[١]، كانتا تعتبران مروجّتين للعقائد الجديدة. ترسل في شبابها، لمواصلة الدراسة، إلى أمريكا. تدرس هناك الفلسفة وتعود سنة ١٩٦٠ إلى إيران، وفي سنة ١٩٦٩ تنشر أول مجموعة قصصية لها بعنوان «من هم چه كَوارا هستم»[٢]، وتصدر لها بعد ذلك رواية بعنوان «خواب زمستاني»[٣] وثلاث مجموعات قصصية أيضاً.

إنها تسكن طهران، ولكنها تقضي نصف أوقاتها في باريس.

* * *

تعالج قصة «شجرة الكمثرى» ـ التي نشرت أول مرة في مجموعة «جايي ديكَر» القصصية سنة ٢٠٠٠ ـ عدم موفقية كاتب مفكر، وصل الآن في آخر عقود عمره إلى هذا الإيمان المؤلم: إن منبع كل أفكاره قد جفّ وإن الطلبة الذين ينتظرون نافدي الصبر مؤلّف الأستاذ التالي ينتظرون عبثاً. يرى أنه كتب عشرات الكتب ومئات المقالات السياسية والاجتماعية والفلسفية، تكلم عمراً كاملاً، كان على المسارح، وسط الحلبات، في الصفحات الأدبية للجرائد، حاضراً في الإذاعات ودورات العمل، وكانت الكتابة والحديث جزءاً أساسياً من حياته الفكرية. والآن؟

إن مواجهته لصحراء تفكيره وتخيله يصير سبباً لعكوفه على نقد ماضيه وأنه

ربما كانت كل تلك الفعاليات نشأت عن ميله إلى عرض ذاته وإثبات وجوده، وعندئذ يفكر في التواضع وصبر العنكبوت الذي كان قد وضع، على عتبة البلوغ، من دون أي ادعاء، أجمل شباك الدنيا أمام ناظريه. يذكّره مرور الماضي الآن بذكريات العشق المضطربة، عشق بريء لفتاة شابة اسمها «ميم» كانت تلبس حذاء قماشياً، تجلس على بطانية مربعة التخطيط تقرأ كتاباً وكانت كالغلمان مؤذية وشريرة، لها شعر قصير مجعد، عنق نحيل، صدر مستو، ساقان مُعظمتان، عينان سوداوان وواسعتان وقحتان، وفم واسع وأسنان بيض ولا يشبع كاتبنا المفكر من التفرج عليها.

عندما يصل الكاتب إلى كشف عجزه في الكتابة يكون قد التجأ - وهو يبحث عن نقطة حميمة - إلى بستان أجداده، وهنا بالذات يطلب منه البستاني المزاحم علاج شجرة كمثرى؛ شجرى لا تثمر هذه السنة - على نحو غير متوقع - أي حمل أو ثمر، كأنما هذه الشجرة تعبير واضح لعجز الكاتب في الكتابة. وأخيراً يصل البستاني إلى هذه النتيجة، وهي أنه ما من علاج للشجرة غير قطعها، ولكن العمدة يتقدم - في مسرحية معدة سلفاً - شفيعاً وينقذ حياة الشجرة.

أبقيت فرصة بعد لإنقاذ حياة الكاتب الذي جف نبع إبداعه؟ إنه يسأل نفسه «عمَّ أكتب؟ عن حب انتهى، أهداف سياسية ديماغوجية، الرفاق، حزب متلاشٍ، الحيلة التي ركبت رأسي؟» إنه يقع في السجن بعد الثورة بسبب هذه النشاطات ويصل حتى إلى حافة الإعدام، لكن الجدير بالانتباه أن الشاكين منه كانوا فلاحي القرية العليا، أولئك المحرومين الذي لابد أنه ركض طوال عمره وكافح عبثاً من أجل إنقاذهم من براثن الفقر والجهل.

وقد أُنتج فيلم سينمائي عن هذه القصة بالاسم نفسه.

الحواشي

(١) آسيا الفتاة .
(٢) أنا أيضاً چه غيفارا .
(٣) السبات الشتوي .

شجرة الكمثرى

كَلي تَرقّي

حملت كل أشجار بستان (دماوند) ثماراً عدا شجرة الكمثرى ـ شجرة الكمثرى الساخرة المغرورة ـ هذه الحقيقة الفاضحة كان البستاني الشيخ السمج يوصلها صباح كل يوم، عند ري أشجار البستان، بحزن وغضب، إلى أذني. عندما أفتح عيني أجده واقفاً وراء نافذة غرفتي ينتظر ولا يفهم أن المصير المغموم للنباتات البلهاء وصحة أو سقم الخضرة والنجيل والعلف لا ربط له بي (بي أنا الكاتب والفيلسوف)، ولا ينتبه إلى أن حواسي في مكان آخر، مكان وراء أحداث الأرض الصغرى والحوادث اليومية التافهة.

لا أعيره التفاتاً. أقول لنفسي إنني ينبغي أن أتم هذه السنة، أخيراً، هذا الكتاب المطلسم الملعون. ينبغي. وأكافح كي أصف الحروف الثلاثة المتناثرة لهذه الـ«يجب» إلى جانب بعضها وأنقل معناها الصحيح إلى ذهني. يجب أن أبدأ بالكتابة. هذا كل ما هنالك. انتهى. ليس عندي أي عذر أو ذريعة. في هذا البستان المنعزل ما من إنسان يتلف وقتي بالثرثرة والحديث والنقاش، وما من زيارات، لا شرب وطرب ودَقّ ورقص، لا امرأة وأطفال، لا شيء غير وقت وفير وشمس مشعة وصمت وهدوء وسهول خضراء وسماء زرقاء (كل الإمكانات المفيدة للتخيل والتفكير والإبداع والخلق)، كل شيء عدا هذا البستاني المزاحم الذي ينبغي أن أحدد منذ الآن تكليفي معه وأجعله يفهم أن السيد المحترم (السيد السابق) جاء من أجل أداء عمل مهم وحيوي إلى هذه المخروبة وأن كتابة عمله الخالد ذات أهمية وقيمة له ولعائلته وموطنه ـ وربما حتى الدنيا.

ـ سيدي العزيز، عندي موضوع بخصوص شجرة الكمثرى هذه.

أجلس وراء المنضدة.

ـ سيد... ي ي ي ي العزيز.

انكتم. منضدة قراضة ومقلقلة. لا يهم. القصد هو الكتابة. وخلق العمل الفني يمكن أن يتم على الأرض، على الشجرة، نوماً على البطن، استلقاء على الظهر، وقوفاً على ساق واحدة، مقلوباً على الرأس، في أي مكان وأي وضع. أعني العمل الحقيقي الذي يأتي من صميم القلب، من مركز الروح.

الأوراق البيض ـ إضمامتان سميكتان تحوي كل منهما خمسمائة ورقة ـ واللوازم الضرورية للكتابة أضعها جنب آلة الطباعة. وأصف على المنضدة الأقلام الرصاص، قصبات الخط، المماحي، المباري، المنفضة، الولاعة (يجب ألا أنسى شيئاً؛ فالقيام والذهاب وجلب هذا الشيء وذاك يصيب العمل، وتتابع أفكاري، بسوء) وزجاجة الماء، أصفها جميعاً على المنضدة. أنا مستعد. عندما أشرع في الكتابة لن أنهض بعدئذ. سأكتب دفعة واحدة خمسين صفحة. جملاً طويلة، متصلة، موزونة، مثل شلال جارٍ، سلسلة، محكمة، دافّة، جليلة. عن أي شيء؟ سؤال جيد. ليس له جواب في الوقت الحاضر. عن لا شيء. كيف أقول؟

يقرع البستاني العجوز، بتحية مترددة وضحكة حذرة، على زجاج النافذة. رأسه مخفض. خجل. يفرك يديه ببعضهما. يلقي نظرة فضولية إلى داخل الغرفة. يرى أن السيد يجلس ـ من دون اهتمام، من دون ذرة اهتمام وحماس وهيجان، بنظرة خالية من أي نوع من أنواع التفكير والتخيل وحتى الشعور ـ مواجهاً الجدار ويبقى يحدق إلى نقطة غير معلومة في الفضاء. يقول:

ـ المعذرة. أحالك جيدة؟ اعذرني كثيراً. إن كان ممكناً، ألق نظرة على شجرة الكمثرى هذه.

أحسب مع نفسي أنني كنت إن كتبت في الساعة صفحة وعملت عشر ساعات في اليوم تصير عشر صفحات في اليوم. في أسبوع سبعين صفحة.

شهر واحد آخر الصيف وثلاثة أشهر الخريف ـ لو اشتغلت مثل آدمي ـ إلى أول الشتاء فقد كتبت نحو ألف صفحة وعندي جلدان من المقوى مزينان بالذهب جاهزان. كل جلد كيلوان. إذا ما كتبت إلى السنة القادمة أكون قد كتبت ألف صفحة أخرى.

ينبغي أن أجد كلاماً جديداً أقوله. كلاماً أؤمن به. مثل تلك الأيام، كالزمان الذي كنت أريد فيه أن أغير الدنيا. أغير مدينتي، زقاقي، ذاتي.

ـ «يا سيّـ. . . العز. . .»، همساً، مقطّعاً، بخوف وخجل.

كلا. ما لم أجب هذا البستاني، لن أجد هدوءاً. كيف يمكن التفكير بأفكار كبرى مع وجود آخر مزاحم؟ من حيث أنا جالس، أقول بصوت عال:

ـ أبي العزيز. نعم. جناب مَشْدْ[1] حسن.

يسعل. يقول:

ـ مشد حسين. غلامك.

ـ جناب مشد حسين (مشد أكبر. مشد علي. مشد غلام. كائناً من كنت)، اللعنة على أبي شجرة الكمثرى وكل ما هو نبات وزرع (وكل بستاني عجوز مزاحم).

وأطفأت بغيظ وعبوس عقب سيجارتي. صرت عصبياً والعصبية تؤخر عملي. أي عمل؟ الكتابة، كالتنفس، كالنظر، والإرادة. مثل أن تكون. بهذا اليسر. حادث ضروري، طبيعي، ممكن. عمل يفور ـ أو كان يفور ـ من داخلي. نوع من الحاجة الحياتية، نوع من وحام، مرض، إدمان.

ـ سيدي العزيز.

ـ سم أفعى وسيدي العزيز!

العمل الذي كان يسيراً عليّ وتبدل الآن، دفعة واحدة، من دون سبب بيّن، سبب قابل للقبول والتفسير، إلى نزع مؤلم، إلى تخبط عديم النتيجة، خفق أخرق في حوض عميق، مع الركض في النوم، تسمُّر على نقطة ثابتة. لا أستطيع أن أكتب. اعتراف مرير. هذا هو الموجود، ولا أريد أن أكتب.

اعتراف أكثر مرارة. وإذا ما أردت أن أكتب ـ إذا ـ لا أدري عمَّ أكتب. انتهى كلامي ووصلت مغرفتي إلى قعر القدر. تمر الأيام كالبرق والريح. سأصير في الستين عن قريب. ابتداء الانحدار. لم أصل مكاناً بعد. لم أثبت شيئاً بعد. ينبغي أن أعلق نفسي بفكر مؤسوس، بهدف كبير، بوعد حتى كاذب.

يسأل تلاميذي: «أيها الأستاذ المحترم، ماذا ينبغي أن يُفعل؟».

أقول اصبروا. أعطوا مهلة حتى ينتهي كتابي الجديد. إن آخر كلامي ـ كلامي السياسي الفلسفي العرفاني ـ مكتوب في هذا الكتاب. تحمّلوا.

ليس لدى تلاميذي وقت ولا طاقة على الصبر. لا يريدون أقوالاً مكررة، ويحسون أن قبعة كبيرة وغير مرئية مستقرة فوق رؤوسهم[٢]. يريدون كلاماً جديداً، كلاماً صحيحاً، مستقيماً، خلواً من الألفاظ الملونة والأحكام المطلقة. ومن أين وكيف أعثر على مثل هذا الكلام المحال؟ مثل هذا الفكر البكر البنّاء؟

أستعرض ماضيَّ. أرى أنني كتبت عشرات الكتب ومئات المقالات السياسية والاجتماعية والفلسفية. تكلمت عمراً بأكمله. عن معتقداتي ـ صحيحة أو غير صحيحة ـ دافعت بصميمية وبساطة (بسيطة إلى حد البلاهة) ـ خطبة وراء خطبة ـ وربما زائدة أيضاً. كنت على المسرح، كان لي حضور وسط الحلبة، على الصفحات الأدبية للجرائد، في الراديوهات، في اللقاءات، وكانت الكتابة والقول جزءاً أساسياً من حياتي الفكرية، والآن؟ كيف أفسر هذا الانطفاء والنسيان؟ من أين جاء هذا الملل الهادئ والرخوة المستمرة، هذا الكسل الثقيل وعدم الاهتمام المنوِّم، هذا الميل للصمت والانزواء، وكيف استقرت في روحي؟ تعمقت في روحي وذهني ولولات جسدية وضربانات عاشقة، آمال كبيرة محبة للبشر، أهداف سياسية، التزامات، إيمانات، تطلعات اجتماعية وعلمية وثقافية، توهمات خادعة حولي وحول الآخرين وميل إلى التظاهر وإثبات الوجود، وغاب عن بالي الحاجة إلى الحضور في صدر الأحداث. حلّت فيَّ روح باردة ومطفأة وابتعدت نظرتي عن الأحداث اليومية. ربما الشيخوخة والحاجة إلى الاستراحة والمكث. ربما التعب والأفول. ربما اليأس.

كان يأتي صوت كلام. صوت أقدام على حصباء. أنظر. إن البستان، وراء هذه النافذة الصغيرة نصف المفتوحة، مملوء بالصخب والحركة والفوران. مملوء بالضجة والضربان. مملوء بالادعاءات النباتية. شجرة الكمثرى ابنة الحرام، الحمراء الخضراء الريانة النشطة، بتمخطرها وتراقصها الدائمين، المفعمة بغرور الشباب (خاصة الشباب)، مع الأغصان المفتوحة المغرورة، تقف قبالتي ولسبب غير معقول تثير حفيظتي. الشجرة البلهاء المغرورة! أعاند. حسداً؟ ربما. مهزلة. أدري. مهما كان، فإن شيئاً معذِّباً يتعبني بغنجها المؤذي وتفتحها الجذاب.

- «سيدي العزيز» - للمرة المئة.

جلب البستاني العجوز هذه المرة عمدة القرية أبيض اللحية، معه. وقفا عند النافذة يتسارّان. أتظاهر بأني لا أراهما. أدعك ورقة. أرميها أرضاً. آخذ ورقة أخرى. أشرع في الكتابة. أتظاهر بالقراءة. غارق في الفكر. القلم بيدي. اليد نصف معلقة في الهواء. اليد الأخرى بلا عمل. أحد أصابعها في زاوية الفم. على الخد. على الصدغ. أكتب. جملاً غير مترابطة. أخطط.

حواسي عند العجوزين وراء النافذة. ماذا يريدان من روحي؟ أنعس. أتثاءب. أنا جائع.

من الذي يحكم علي بالكتابة؟

يحكم بالالتزام؟

يحكم بالقول والقول الكثير، بصوت عال، أعلى من الآخرين؟

يتدخل العمدة. سعلة. همهمة. احتمالاً شتيمة هامسة. يتقدم. يزيد فتحة النافذة نصف المفتوحة انفتاحاً. أراقبه من زاوية العين. يمد رأسه ويحدق، بعين واحدة - عين صغيرة متطلعة - إلي، أنا المشغول كثيراً بالكتابة والتخطيط. يدق على زجاجة النافذة. يهمس شيئاً في أذن البستاني (ما معناه: عسى ألا يكون السيد أصم)، ويوصل سلامه بالصراخ إلى أذني. لا. ابتليت على نحو سيئ. ليسا بتاركين. أهز رأسي وألقي قلمي بغيظ وآهة طويلة، على المنضدة، بحيث يتطاير رماد سيجارتي إلى الأطراف.

ليت ممكناً الشفاء من هذا المرض غير القابل للعلاج، مرض أن «يصير المرء أحداً ما»، وعدم الصيرورة مهماً في زمن قصير. أو أنه لا حاجة به إلى هذه الرؤية، لا حاجة إلى الانعكاس، إلى التكثير، إلى الانتشار، انتشاره هو.

أقف عند النافذة. إن السماء، في الجانب الآخر من هذه الغرفة، وراء هذه الجدران الجصية السميكة، على ذلك الجانب من رأسي المحدود وأفكاري القاصرة، أوسع وأبهى ولها لون متواضع، بدون بقعة ناشزة أو خط غير منسجم، عديم الوزن، عديم الحاجة، مطفأ. كما لو أن ثمة، وراء خط الأفق الرفيع، حياة أخرى ممتدة وذرات من جنس مجهول في حال انبساط وتركب. في الأقل حسب تقديري، أنا المحصور بين هذه الجدران الأربعة، العاجز عن الكتابة، عن إيجاد كلام أقوله، عن التعلق بعقيدة راسخة، عن الإيمان المطلق، أو في الأقل عن العشق، الوقوع في العشق، الرؤيا.

كان العجوزان ينتظران. كلاهما وشغلهما صريحان واقعيان. لم تثمر شجرة الكمثرى وهذه المسألة مرتبطة بالتربة والأرض، وليس لها علاقة بالشعر والفلسفة وعالم الغيب.

ـ أعندكما شغل؟

ـ اسودّ وجهانا. زاحمناك. كان القصد عرض التحية. حالك، إن شاء الله، جيدة؟ حال السيدة الوالدة؟..

ـ نعم.

ـ إن القصد من المزاحمة هو أنك مطلع على..

ألخص كلامهما: شجرة الكمثرى الخبيثة، من دون إنذار مسبق، من دون أي سبب، لم تثمر هذه السنة، وجناب مشد حسين يعتبر هذا العمل غير المعقول وهذا الصمت المخزي من شجرة الكمثرى إهانة لا تغتفر للحيته البيضاء وحرمة البستان الأخضر. ما الذي وقع وأي قسم من العمل معيب؟ لا يفهم و«عدم الفهم» هذا يعذبه. إنه يعرف المنطق الصريح والواضح للنباتات، وهو خبير بزعلها وشكواها ودلالها وغنجها. لم يكن ثمة عمل لم يفعله لهذه التحفة الغالية. رواها

ـ يقسم على ذلك وتتدحرج دمعة في قعر عينه ـ شذب غصونها الزائدة، جمع التراب الزائد والشوك والعلف الوحشي عن ترابها وكنسه، سمّدها ـ سماداً إنسانياً فاخراً ـ تكلم إليها، نصحها، توسل إليها: خادمكِ، عبدكِ، صغيركِ، وإلخ ذلك مما توصل إليه عقله. دللها وقربها. حتى تظاهر بالجهل وضحك بلا سبب. لم يبالها مدة. تركها لوحدها لعلها تعقل، لكنها لم تعقل. جن البستاني العجوز، اشتعل غضباً، صاح، سبّها شاتماً آباءها وأجدادها وركل جسدها التافه عديم الفائدة، بصق على وجهها عديم الحياء وبقي حائراً أن: ما علتها وما الذي ينبغي فعله؟ وكان يسأل نفسه ذلك ويسأل عمدة القرية المجرّب ويسألني أنا لا بوصفي صاحب البستان فقط، وإنما لأني رجل فاضل عالم ويجب أن أدرك كل أحداث العالم والعلوم وأسرارهما.

أقول: «يا أبي العزيز، اذهب تعال غداً».

يقول: «مصير البستان بين يديك. أنت من ينبغي أن يصدر الحكم».

ـ حكم؟

يوضح العمدة: «ثمة مراسم ينبغي أن تشارك فيها».

أقول: «إذن فاتركا الأمر إلى ما بعد. إلى الأسبوع القادم».

يلزمان الصمت. ليسا راضيين. لا يفهمان لماذا مالك البستان المحترم عديم الاهتمام بارد إلى هذا الحد. مرتخ سائب هكذا. (وعديم الغيرة).

يقول البستاني:

ـ الأشجار الأخرى تتعلم أيضاً. النباتات تقلد إحداها الأخرى.

ثم، كما لو لكسب فؤادي ـ فؤادي الحجر ـ يضيف بلهجة ذات دالّة وضحكة أبوية:

ـ أنت تذكر كم كنت تولي شجرة الكمثرى هذه حباً واهتماماً (لا أذكر) وكم مرة نبهتني أن بستان دماوند يفتقد اللطف والصفاء من دون هذه الشجرة (أنا قلت هذه الترهات؟) وأن المرحوم أباك ـ عليه الرحمة ـ خلع عليّ وأنعم

مرات (كذب محض) وأنت بالذات، عندما كنت طفلاً، أتذكر ذلك الصيف الأخير، كان تحت شجرة الكمثرى هذه إياها أن قلت لي. . .

يضحك العمدة. يتحرك صف أسنان بيض داخل فمه. يقول:

ـ كنت دائماً تفكر في الشجرة. أذكر ذلك جيداً. ذات يوم حملك الحمار وأخذت حتى الساقية العليا.

يظهر بستان الطفولة، تظهر دماوند الصغر، باهتة شاحبة اللون، مثل تصوير خيالي، بطيئاً بطيئاً، من انتهاء ذهني المكدر المغبر. وراء الأشجار الخضراء يقف طفل نحيل وقريباً منه، على بطانية، مربعة النقش، تجلس فتاة شابة تقرأ كتاباً.

ـ نحن نعتقد أن شجرة الكمثرى يجب أن تؤدَّب.

الطفل يحدق إلى الشابة. يرن صوت ضربان قلبه العاشق في قعر أذني. وراء أجفاني تتعلق الظلال والصور ببعضها، مثل تصاوير تساقطت فوق بعضها بعضاً. تمر أمام ناظري وجوه مشوهة، نصف معروفة.

يتلقى البستاني نظرتي النعسى وسكوتي على أنهما علامة قبول. يتقدم بضع خطى. يفرك إحدى يديه بالأخرى. ينحني ويجمع ورقتين أو ثلاثاً ساقطة على الأرض. يضعها على المنضدة حذاء الجدار. مكتوبات المالك مهمة. مهمة جداً.

الصيف الأخير؟

لا أسمع بقية كلامه. تنقف يد غير مرئية زاوية قلبي وحاشيته الهامدتين. تدور الخواطر الغائمة والمشوشة في انتهاء رأسي. أنا على مبعدة آلاف وآلاف الفراسخ عن هذا الصيف الأخير. أبدية. يركض شخص ما وراء أجفاني. يترنم شخص ما في نهاية أذني بنشيد ما. تستقر بقية حلم قديم ـ نتفة ـ متناثرة ـ في ثنايا أجفاني. الصيف الأخير!

هذا الـ«أخير» يتعلق بحياة سابقة ويشير إلى زمان آخر، زمان ذهب من الذاكرة. غائب، مضى، مثل كسر الظروف تحت الأرض، قطعة قطعة، تستقر إلى جانب إحداها الأخرى وتمر الصور الشوهاء، الملونة، البيضاء، السوداء، المغبرة، من أمام ناظري.

أرى أناساً جالسين في الإيوان، حول سفرة الطعام، على الأرض. الوجوه يعلوها الغبار وهي غير واضحة المعالم. أفواه تنفتح وتنغلق من دون صوت. انحنى رأسٌ. غمست يدٌ قطعة خبز في كاسة لبن. استقر ضباب كثيف على البستان وفوق الأجسام. ضباب النسيان. وجه واحد فقط يدلّ عليَّ حياً، واضحاً، وملموساً. ينظر إلي. من نهاية الظلمة، من قعر تلك الهوة البعيدة، يتقدم بطيئاً ويبقى ثابتاً على مبعدة قدمين مني. يتوجع قلبي من حس انقباض غريب. يترنم صوت عذب في قعر أذني.

يكلمني العمدة. أنظر إليه وتعبر نظرتي، غير مبالية، من حاشية وجهه، فتجلس فوق يديه وتعود مرة أخرى إلى وجهه. تنزلق لحظة ـ غير مطمئنة ومترددة ـ على عينيه ثم تصفن عليه متحيرة، وحتى مغمورة بالسرور.

ـ تذكر تلك السنة...

ـ لا. أية سنة؟

ـ كانت السنة الأخيرة. كنتَ ذهبت عند شجرة الجوز. كنت اختفيت. مهما نادينا لم تكن لتجيب. ما شاء الله، كنت صبياً شيطاناً.

ـ صحيح. أتذكر. يا لشدة الصفعة التي تلقيتها من أبي.

ـ أوشكت أن تقلبني من رأس الشجرة. من قدر ما صعدت انكسر الغصن تحت رجلي..

إنني أعرف هذا العمدة أبيض الشعر. أتذكر. في ذلك الوقت، لم يكن عمدة. كما أنه لم يكن بهذا الشكل. لقد صنع منه (ومني؟) مضيُّ السنوات شخصاً آخر. تقلص بالماء. اندعك ولم يبق من مهابته الريفية وهيكله الغابي أثر. عندما كنت طفلاً كنت أحسب له حساباً. كانت عيناه وحاجباه ولحيته وقميصه سوداء، وصوته المشروخ المخيف يحمل كلاب الصحراء على العواء. كان بستانيّ بستانِ دماوند والحاكم المطلق لكل أشجار القرية. صنع منه مرور الزمان موجوداً أبيض، موجوداً قطنياً، منفوخاً، له لحية فضية وشعر أجوف ومتقصم، شبيه بكبة ثلج. كانت عينه عديمة اللون المليئة بالماء، مثل كريّة زجاجية تحت

النور الأصفر الذي غطى نصف وجهه، ملأى بصور وتلاوين ممحوة وظلال قديمة، وفي عمقها الشفاف يتماوج راسب ملون لخواطر الماضي. يفتح بضغط نعسان أجفانه المرطوبة، وأرى، ثانية ومن خلال ذلك الشق الضيق، على ذلك البعد، الأيام المعروفة والأصياف الواضحة لطفولتي، متقطعة، مثل حلم ناقص ومكرر. تدفع النظرة الممتدة والملأى بالكلام للعمدة أبيض الشعر، مثل نَفَس طويل، ذرور روحي وغبارها، وتُدير أصوات بستان دماوند، طيور الليل، الهمهمات الريفية الغامضة، الخشخشة المنعسة للعلف الطويل والتصويت الرتيب للبوم النواح على شجرة الصفصاف، مع التساقط اللذيذ لماء الساقية في ترعة البستان الكبيرة والضحكات العذبة لذلك الوجه الواحد - ذلك الوجه المحبوب، في أذني ورأسي. إن دماوند الطفولة، بجبلها الأبيض وحقول قمحها الذهبية، أكثر إغواء من فراش الطفولة الدافئ ومن كسل الطفولة، تمتصني وتعلق الدقائق المجذوبة والذكريات المضطربة للعشق - أول عشق - مثل أشباح صاحية من نوم ألف سنة، يقظة وحاضرة، وترقص داخل جسدي المحترم الموقر المشروط، جسدي المتعَب والشائخ.

أنا في الثانية عشرة وأنا عاشق اثنتي عشرة مرة مرفوعة إلى مئة مرة - أكثر من حد تحمل قلبي وروحي الصغيرين. أنا دائخ. نائم. أحمق. أخرق ومغشوش ومبهوت. أنا لست أنا (وهذا أفضل)، أنا أنا الدائمي. أضحك بلا سبب - من تلك الضحكات الرخوة عديمة المعنى الباردة التي تثير الاضطراب في قلوب الكبار، وصرت متحججاً عديم الصبر مهموماً. صرت قبيحاً طويلاً مقلقلاً. وجهي مغطى بالطفح وشعري نفر - أسوأ من علف وحشي - من أطراف رأسي. وتبدل صوتي أيضاً، صار صدئاً ومثيراً للقشعريرة. مع ذلك، مع النحول والأرق وانعدام الاشتهاء، مع وجود الخوف والارتعاشات المجهولة والغصص غير المعروفة، مع قدميّ اللتين نمتا فجأة على نحو مخيف (أصابع طويلة) وجسدي الذي يفغ رائحة عرق حاد (رائحة البلوغ)، ومع الوجود غير المتناهي للاضطراب الحسي والفكري والمخاوف الشديدة بلا حدود، المبهمة، وما لا

حد له من بلاوي ونكبات، فقد كنت سعيداً سعيداً. اتخذت قرارين كبيرين: أريد أن أصير كاتباً. وربما شاعراً. ثم أنني أقسمت أن أبقى وفياً لـ«ميم»، عشقي الكبير والأبدي. مادمت حياً، إلى آخر يوم، آخر دقيقة، حتى بعد الموت، في الدنيا الأخرى، في الجنة، في الجحيم، أينما كنت.

ليتني أكبر على نحو أسرع. ليت الزمان لم يكن يراوح إلى هذا القدر. لم يكن إلى هذا الحد بطيئاً يجرجر نفسه (كم كنت أحمق!) وأبلغ العشرين أو الثلاثين، أو الأربعين، أسرع، سن الرجال مهم ومعتبر؛ وتنظر إليّ «ميم»، باحترام وتحبيذ، تقرأ أشعاري وتتلقى كلام قلبي جدياً.

يفتح العمدة باب الغرفة وأنطلق أنا، مثل ناس مسرنمين، وراءه. كان الشيوخ يتكلمون سريعاً. يدلونني على أشجار الفواكه.

ـ المرحوم أبوك كانت له محبة خاصة لشجرة التوت..

ـ السيدة الوالدة كانت لا ترتاح للكاكي. كانت قد أصدرت أمرها بأن نقطع شجرة الكاكي.

ـ الشتاء الماضي حل برد سيئ. فاجأنا. تفطرت جدران الحوض. كنت جنابك في أوروبا.

ثمة صخرة مسطحة، صافية وكبيرة، للجلوس، تحت الصفصافة.

يقول العمدة:

ـ سقطت مرة من فوق الشجرة. اصطدم رأسك بهذه الصخرة، انكسر.

يأتي العجوزان، مثل رسولي الزمان، من دنيا الماضي ويجلبان لي رسالة من «ميم». ماذا حصل فنسيت؟ كيف انصرم نصف قرن ونسيت أن «ميم» لاتزال تنتظرني؟ كنا جالسين على هذه الصخرة ذاتها. كما لو كان أمس، قبل ساعة فقط.

«ميم» تكبرني بخمس سنوات وهي بمفردها ذات كيان. تجالس الكبار وتماشيهم وتفتح أمها الحمقاء دائماً كلام زواجها من رجال دارسين وأنا أدري ـ متأكد ـ أقسم أن «ميم» لن تصير أبداً زوجة لأي منهم. محال. وأدري أن ما

من رجل عاقل ذي شعور سيتزوجها لأنها مخيفة سوداء سيئة الأخلاق متكبرة ومجنونة. لأنها تفكر مثلي وهي مثلي شاعرة وفنانة وذات خيال. كالأولاد، الأولاد الوقحين الأشرار. لها شعر قصير أجعد، عنق نحيل، صدر أمسح، ساقان مُعْظمتان، عينان سوداوان وواسعتان وقحتان، فم واسع وأسنان بيض، يدان صغيرتان وأصابع طفولية (أنا عاشقها). هذه البنت أو الغلام الشرير لا تغسل يدها ووجهها إلا بمشقة، فما بالك بالزينة والدلال! تلبس بنطالاً طويلاً وحذاءين قماش أبيضين، ولا أكلُّ من التفرج عليها. لا ترى عيناي غيرها، وأحلامي مملوءة بدقائق خيالية معها. كلما جلبت لها شيئاً (هي متمددة على بطانية، تحت الأشجار، تقرأ كتاباً)، أمرر يدي من فوق رأسها، أمسح أناملي بذؤابات شعرها ويجعل هذا التماس المخيف المبهج - ثانية فقط، لحظة - وجهي أحمر معوجاً (الذي تراه «ميم») ويصيب بطني بالقرقرة المصوتة (التي تسمعها «ميم»)، وتحدق إلي بابتسامة مؤذية ونظرة معذّبة - ملأى بالغمز والاستهزاء والذم.

لايزال الشيخان منتظرين. أنظارهما صافنة على فمي. يجب أن أقول شيئاً. ينبغي أن أبرز وجودي. مهما يكن فأنا مالك هذا البستان وصاحبه.

- نعم. شجرة الكمثرى. ينبغي معاقبتها. طيب، افعلا ذلك.

يقول العمدة:

- أنت من يجب أن يهمس الكلمات الأولى في أذن الشجرة.

أحاول الحفاظ على متانتي وبرودتي. أريد أن أكون بمفردي. أريد أن أفكر بـ«ميم» وبالماضي. أوضح لهما بابتسامة مقسورة أنني هربت من ضجة المدينة وهذر الناس الزائد، جئت إلى هنا كي أعمل وأن شغلي - إن لم يكونا مطلعين - هو الكتابة، سك الحروف: كتاب، قلم. أتفهمان؟

لا يفهمان، لكنهما يلزمان الصمت احتراماً وتواضعاً، صمتاً لا يدوم أكثر من لحظة واحدة ويكرران، ثانية، معاً:

- لا يجوز ترك هذه الشجرة لحالها.

أقول:

ـ أبي العزيز، أيها الآدمي المضبوط، سلِّم هذه الشجرة التافهة كي يقتلعوها من جذرها ويقتلعوا المسألة كلها.

ـ هذه الشجرة غاضبة. زعلانة. غير راضية.

أقول في قلبي: «لتأكل خراء»، وألقي نظرة عجلى على ساعة معصمي (التي يصادف أن تكون نائمة على العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة). أملأ ساعتي. ألصقها بأذني وأريد بكل هذه الأعمال أن أجعل هذين الشخصين، ونفسي أكثر من الجميع، نفهم أن الوقت يمر، أن الزمن لا يتيح فرصة، أن الحياة من جانبي في حالة عبور، أنني تخلفت عن الحوادث والأفكار والفرص وأنني، كالسلحفاة العجوز، أتسكع في حاشية التاريخ.

يبلغ أذان الظهر أذني. على هذا النحو ينصرم الوقت. هكذا بعد خمس سنوات (في الحقيقة: ست سنوات وشهرين) لم أتم بعد فصلاً واحداً من كتابي. لو أنني كتبت حتى أربعين صفحة فإن ذلك نتيجة مللي وتكراري كلامي السابق ـ سرقة من أعمالي وسرقة من أعمال الآخرين.

عمل. عمل. عمل. الوقت من ذهب والموت كامن في الخلف. كل نفس أتنفسه يقابل قفزة في الزمان، يساوي صفحة من كتابي. أنا سيئ الخلق وأدري أنني سأوقع مصيبة برأس هذه الآلة الحديدية عديمة الشعور، التي لا تساعدني على الكتابة. كل ورقة أُدخلها فيها تبقى بيضاء وخالية. ولو كنت أكتب سطراً فليس فيه فائدة. عديم المعنى. نتيجة للتظاهر وعدم الاقتصاد التام. أقرر أن أكتب بقلم الرصاص. ربما كان تماس أصابعي يضرب نقفة على قلبي المثلج ورأسي المنجمد. وإن سكتُّ بعض الوقت؟ إن لم أكتب؟ إن تركت وأوليت الأرض والزمان ظهري ولم أعمل شيئاً قط؟ ما وجه إجباري، لمن أنا مدين؟ أولاً لنفسي ـ لهذه الذات المتعددة المنتشرة الكبيرة، التي لا تستطيع أن ترفع بصرها عن تصويرها الملون المملوء بهرجاً وبريقاً، المتعود على الحضور والتفتح والقول،

والمحتاج إلى الكشف والعرض. مدين للآخرين الذين لا يكفّون أيديهم عن رأسي وهم ينتظرون بنفاد صبر آخر أعمالي الأدبية.

يسألون: «متى ينتهي؟».

ـ سريعاً.

ـ ما عنوانه.

ـ لا أدري.

ـ عن ماذا؟

ألزم الصمت، فيزيد سكوتي الفلسفي هذا أهمية عملي.

ـ لماذا استغرق كل هذه السنوات؟

أتمنى أن أقول الحق، ولكنني لا أجرؤ. كيف أعترف أنه بعد كل هذه السنوات كان كل هذا الكلام والوعود ـ لا تموتي يا معزاة، سيأتيك الربيع[٣] ـ والتظاهر الفارغ والادعاء، كان حاصل جهودي الأدبية ـ الفلسفية ـ الاجتماعية كانت لا شيء، عبثاً. لم يعد عندي كلام للقول، ولا ميل للسماع. كما لا أحس إحساس تأسف أو ندم. لو أنني أكون مع نفسي، فأنا بخير. ولكن الآخرين لا يقبلون، ولا يكفّون عني. إنهم ينتظرون مني الإبداع والتحرك والالتزام ويضربون رجلي بمسطرة قضائهم، وأحياناً أيضاً رأسي. ينبغي أن أبقى ما كنته: معتقد وملتزم، بإرادة تعود إلى الشعور والقدرة، لبناء دنيا أفضل وإنسان أسمى، من أجل إقامة مدينة فاضلة وتكوين أحكام التاريخ وترسيخ الأخلاق والقيم الراقية وتثبيت الحق والحقيقة والكشف والصعود، وفي النهاية: السقوط.

أقول:

ـ أيها الأصدقاء الأعزاء اتـ. ـت ت ت تركوني. أنا ـ الموجود الصغير الذي كلي تقصير ـ كائناً من كنت (لقبوني بأي لقب تشاؤون: أديب ـ فيلسوف ـ مكافح ـ عارف)، فقد قلت ما عندي. كتبت عشرات الكتب ومئات المقالات. اشتغلت أكثر من قدرتي وإحساسي. انقضى النصف الأكبر من

عمري بالبحث والمراودة (وأحياناً مطارحة الغرام) والحضور في المحافل الداخلية والخارجية، بالمشاركة مع الجمع، بالأحداث المحلية والعالمية، في الراديوهات، التلفزيونات، الجرائد، المؤتمرات، الاجتماعات الموسعة، الولائم - واليوم إذ ابيضّ شعر رأسي وبرز بطني ووقع اسمي على الألسن، وينبغي أن أكون بلغت نقطة الأوج والتفتح، على العكس، لا إحساس عندي وغطاء الرأس القديم ذاك يثقل، مجدداً، رأسي. كما لا إيمان عندي بما كنت قلته، وكل معتقداتي قد انهارت، كما خيوط جوفاء. ربما أكون من الداخل مريضاً، ربما كان المرض في خارجي شائعاً. ربما كان نهاية ألفية وبداية عصر ظلام. ربما. وكيف أقول هذا لتلاميذي؟ لهذه الأرواح الفتية التي تبحث عن كلام صادق ومطلق، بعشق وصدق، وتفر أوراقَ كتب سميكة، بشوق بريء.

يسألون:

- أيها الأستاذ الجليل، الانقياد للغرب أسوأ أم الانقياد للشرق؟ إصابة العقل أم إصابة الجهل؟ انضراب الملك أم انضراب القمر؟

يقولون:

- تحدثت في كتابك الأول عن العشق - العشق الأبدي - وعن أصالة الحس والتخيل والفن. في الكتب التالية - لسنوات طويلة - دافعت عن البنية التحتية للاقتصاد وحقانية التاريخ وحرية الإنسان وحقوق العمال والكادحين. ثم، لزمتَ الصمت. قالوا إنك أصبت بمرض الأعصاب. حتى أنه أشيع أنهم ألقوا القبض عليك وكلام آخر. مهما كان فقد تسبب في أن تغير اتجاهك وفكرك. ظهرت مرة أخرى وفهمنا أنك اتجهت إلى العرفان والإشراق وظهر نوع من التعقيد في قولك (نوع من الدوار السيئ).

يقولون:

- يا سيد (إنهم عصبيون وساخطون)، إما أنك لا تدري ما تريد وأن وضعك غير محدد مع نفسك ومع العالم، وإما أنك تتلاعب بنا.

وأنا، مغموماً مطأطأ الرأس، ولكن بظاهر فلسفي، أشير إلى آخر كتاب

أكتــبه (كتاب أدري أنه لن يُكتب قط) وأفهم أوجه القضية، بسكوت مبهم وذي معنى.

أعود إلى غرفتي. أغلق الباب والنافذة. أذهب إلى المغسلة وألقي ماء على رأسي ووجهي. نبعت لحيتي وانتفخ ما تحت عينيّ. أرى في المرآة تصويراً باهتاً لرجل مسن له شبه بعيد بي، ووراء ذهني المضطرب، وراء كتبي المنجزة وغير المنجزة وحشد الناس والكلام وفي ثنايا الحوادث والذكريات المتناثرة، أرى ولداً في الثانية عشرة جلس على رأس شجرة عالية وقد تسمرت عيناه على ذراتٍ دوارةٍ للنور في الهواء.

إن ملجأي ـ الفرار من مواعظ الكبار ونصائحهم والفرار من يد «ميم» ـ على أعلى شجرة في البستان. لا تبلغني يد أحد. أنظر من ذلك الارتفاع إلى الأفراد المحترمين والمسنين في عائلتي ويضطرب فؤادي. أنا والفتاة التي اخترتها من قماش آخر. مال؟ قيء. أبداً. نحن فنانون ـ وأنا و«ميم» عندنا برامج أخرى لحياتنا ومستقبلنا. تقرأ «ميم» ذات يوم كتاباً. تدخن سيجارة (وتعطيني أيضاً)، وأنا أقرأ كتاباتي للطيور، للموجودات السماوية والناس الخياليين، وأكلم نفسي. كتبت اسم «ميم» الكامل على كف يدي. أمسح يدي بوجهي وشفتي وجسدي ويذوب قلبي خوفاً ولذة، من إحساس نوع من البهجة الموجعة ـ مثل العبث بجرح تيبّس أو الضغط على سن مجروحة ومقلقلة. ثم، خوفاً من الفضيحة، أمسح اسمها بلساني ويؤدي الطعم الحامض المر الذي ينزل من بلعومي إلى أن يدور رأسي. أمي لا تحب «ميم» وتقول لي بصوت آمر، مملوء بالقضاء واللوم: «لا يكونن لك شأن بهذه البنت»، وبنظرة تفصل ما بين الجيد والرديء وملأى بالأحكام الأخلاقية تنظر إلى «ميم» من زاوية عينها. أدري أن الناس المعقولين والمحتاطين في العائلة لا يحبون «ميمـ» ـي المحبوبة لأنها رفست العادات الدائمية والرسوم الرائجة ولأن أعمالها وكلامها تختلف عن أعمال الجميع وأقوالهم. إنها تريد أن تذهب إلى أوروبا وتصير ممثلة مسرح. تريد أن تكون حرة وتقول لي إنها لن تتزوج أبداً أبداً أبداً. تدري أنني أريد أن أصير شاعراً أو كاتباً، وفهمت

أنني أعشقها. تعيرني كتبها. تسحب خدي بلطف (أسوأ عندي من ألف شتيمة) وفي بعض الأحيان - عندما تكون قد أصدرت لي ألفي أمر وفرمان وجعلت الجميع مطيعين كالغلمان - تمسك شعري وتشده (بحيث أذوب لذة وسروراً)، أو تضرب نقفة شديدة وموجعة على أرنبة أنفي (محبة الخالة الدبة)[٤] ثم، عندما يحترق فؤادها كثيراً علي، تزرّ أزرار قميصي وتلاعب خدي بظاهر كفها.

بعد الظهر ينام الجميع، حتى «ميم». الجميع عداي. ينام أهل القرية أيضاً فيخيم سكوت موسوس وخاص على البستان. الأشجار صاحية وأسمع أصوات تنفسها الخفي. والزواحف غير المرئية صاحية أيضاً وهي تتلوى بين العلف. صيف حار، وشمس ما بعد الظهر تنغرز إلى نقي العظام. تنام «ميم» في غرفة الجلوس - محل السفرة - فوق ملاءة موردة، على بطنها، وجهها إلى الجدار. زحفت الوسادة من تحت رأسها، ألقت شرشفاً أبيض فوقها تجمّع وتجعّد تحت بدنها. رجلاها عاريتان (كانت تمشي النهار كله وحذاؤها في يدها في جدول مملوء ماء في آخر البستان) وقد التصقت ورقة مبتلة بساقها. تُبعد أحياناً، بيدها النعسى والعصبية، ذبابة سمجة عن وجهها أو تحك، بغيظ طفولي، محل بقة مزاحمة على عنقها. بينها وبين واحدة من عجائز العائلة ثقيلات النوم - التي نامت في الجانب الآخر من الغرفة - مسافة عدة أمتار. لن يعترض أحد على تمددي في تلك المساحة الخالية. تمدد الكبار في الغرف الأخرى، متجاورين فيما بينهم، نائمين. باب الغرفة مفتوح. على رؤوس الأصابع، بلا صوت، أدخل. أقف. أنفاس «ميم» ثقيلة ومرتبة. أزحف إلى أمام. أتمدد على بطني، بعيداً عن «ميم»، فوق السجادة، بدون ملاءة ووسادة وشرشف. لا أتحرك. ثمة من يمشي في الإيوان. يمر بنا. أتظاهر بالنوم. تستدير «ميم». تنام في مواجهتي. تتناول زاوية الوسادة فتسحبها إلى تحت رأسها. ثمة ذبابة مستقرة على جبينها. تتلوى ذبابة على عقبها. تتلوى. تحس حرارة. تعرّق ظاهر شفتها، ثنايا شفتيها نصف مفتوحة وقد ظهرت رؤوس أسنانها ذات البياض العجيب. لها أهداب طويلة

وحاجبان رفيعان، هلالان بنيا اللون على امتداد عينيها المغمضتين. العجوز عميقة النوم تكلم نفسها. تجلس وتندهش.

تدير رأسها وتنظر إلي وإلى «ميم». جفونها مفتوحة، ولكن نظرتها فارغة. تضع رأسها مرة أخرى على الوسادة ويرتفع شخيرها. أمد يدي بطيئاً، بخوف وتردد، نحو «ميم»، يداً مضطربة راجفة لا تصلها قط، تبعد عنها متراً - فاصلة أبدية - وتبقى هناك، عاجزة عن الحركة، عن الوصول إلى تلك الأمنية المطلقة، ذلك المطلوب الدائمي البعيد عن متناول اليد، ذلك الوعد المستحيل.

تنقلب «ميم» وتنام مولية إياي ظهرها. لو أنها صحت ورأتني أنام قربها، حتى على بعد بضعة أمتار، فستصير سيئة الخلق وعصبية. كلما التصقت بها كالقراد ومضيت وراءها، تتجاوزني وتصرخ عليّ. أنهض. أجيء إلى الإيوان. أجلس على السلالم. في أدنى الإيوان، ينام السيد خاكسار، على سرير خشب تحت مروحة سيئة الصوت قراضة وقد ارتفع شخيره في الهواء. حذاءا «ميم» القماش على السلم، حذاءان أبيضان بشرائط، مملوءان طيناً وتراباً. أضع يدي ببطء، بجرأة ملذة لصبي بالغ، في فردة حذائها - دافئة ومرطوبة وطازجة، وتفوح برائحة جسدها. يستقر إحساس غريب منمِّل مسبب للارتخاء في كف يدي ويسري - بطيئاً بطيئاً - في بدني كله. كأنني عائم على ماء فاتر راكد، وينطبق جفناي على أخويهما، في إغفاءة عابرة.

في آخر الصيف تذهب «ميم» باللؤم الخاص بها، من دون توديع، وتأخذ معها دفتر أشعاري المائعة وذكرياتي السرية. ولا تعيدها لي أبداً. تتبدل دماوند دفعة واحدة إلى مكان خال وبارد، وأنا - شأني شأن الأطفال المرضى - ليس عندي طاقة ولا صبر على اللعب مع الأولاد أبناء سني. في آخر البستان، أتسكع وحدي وأحفر اسم «ميم» على جذوع الأشجار. أرى نفسي جالساً على ذروة شجرة عظيمة، ولا أجيب مهما نادوا علي. أحب قلق الكبار. إن شكر الله البستاني، هذا الشيخ أبيض الشعر الذي صار اليوم عمدة القرية المحترم ويقف وراء النافذة محدقاً إلي، هو الشخص الوحيد الذي يعرف بمخبأي.

يطلب مني بلسان طيب أن أنزل. لا أباليه. يصرخ عليّ ويهددني. من دون فائدة. مع أن لساني انحبس خوفاً ـ خوفاً من عراك أبي ومعاقبته ـ أخفي نفسي أكثر بين الغصون. يعدني شكر الله البستاني أنني إن نزلت فسيجلب لي أحرن حمير القرية، وأصدق أنا الحمار. عندما تبلغ قدمي الأرض أفهم أن غطاء رأس كبيراً غطى رأسي، وأن هذا الغطاء سيلاحق وقع خطاي منذ الآن، مثل ظل المصير المغموم.

أحلم الليل كله بـ«ميم» ـ حلماً مضطرباً متناثراً ـ أنا مرتبك. كنت أظنني نسيتها ولم أكن أدري على أي قرب مني تنام، في قعر عيني، داخل أمعائي، وراء جفوني العاشقة أبداً. إن دماوند مفعمة بحضورها غير المرئي، بضربان قلبها اللعوب وهمهمات بدنها غير المستقر، مفعمة برائحة حذاءيها القماش ويديها المصبوغتين بالحبر.

كانت تقف جنب الساقية تنظر ـ بعينين منكرتين مستطلعتين ـ إلى عنكبوت صغير كان قد حاك خيمة رقيقة من نسيجه المرتعش. أردت أن أضع رجلي عليها وإذا بها تصرخ بي. دفعتني. كان، في عيني، عنكبوت قبيح أسود، له نسيج من لا شيء.

قالت: «أيها الطفل الحمار، أنت أعمى. لا ترى».

فقلت: «أنا شاعر»، وأخذت وضعاً، وضعاً طفولياً.

هزئت مني. أمسكت أنفي وفتلته. فتلته بشدة. كانت لئيمة. عندما تصير عصبية، ما كانت ترحم.

قالت: «هذا العنكبوت أشعر منك. انظر أية شبكة حاك، بلا ضجة، من دون ادعاء. شاعر مجهول، ليست صورته على صفحات الجرائد. أتفهم؟».

لا. ما كنت أفهم. كنت أريد أن ينشروا أشعاري وأن تكون صورتي في الجرائد. كنت أريد أن أصير معروفاً ومشهوراً وأن يقول الناس هذا هو فلان ويبدون إعجابهم بي.

الوقت قريب السحر. أقف لصق النفاذة. سنوات وأنا لا علم لي بطلوع

الشمس وغروبها. كانت السماء صافية ومن دون ذرة غيم. يفغ الجو رائحة أيام الطفولة، رائحة أنفاس خفيفة عديمة التجربة.

- أيها السيد العزيز.

- واي.

- السلام عليكم.

- إي.

- تفضل إلى الخارج. تفضل بالمجيء إلى البستان.

جاءا لقطع شجرة الكمثرى. لا مفر أمامي غير المشاركة في هذه المراسم السخيفة. في الأقل، يتركانني عندئذ ولن يعودا يزاحمانني. أخرج. جاء العمدة أيضاً. وجاء ثلاثة نفر أو أربعة آخرون. نتحلق حول شجرة الكمثرى. الشجرة السمجة المزاحمة. أنا سعيد لأنهم يقطعونها فأرتاح من شرها. يقف البستاني، والطبر في يده، مستعداً. يتكلم إلى الشجرة. يحقرها ويهينها. يرفس جذعها عديم الفائدة، يريها الطبر. ويلعنها الآخرون ويدعون عليها أيضاً. يقولون جميعاً، معاً، وهم يتجهون نحو الشجرة، أشياء همساً لا أسمعها جيداً، ولكنني أظن أنها تنطوي على إظهار التأسف والحيرة من حماقة الشجرة ولجاجتها.

يطلب البستاني رأيي.

أي رأي؟ أقول:

- «اقطعوا وانهوها»، وخلّصوني أنا أيضاً وكفّوا عني. ضاعت ثلاثة أيام من وقتي النادر الثمين ولم أقم بعمل. لم أكتب حتى سطراً واحداً.

ينظر العمدة، مبهوتاً وغير مصدّق، إلي. إن المالك ليس أصم فقط، بل أعمى وعديم الشعور أيضاً!

يمسح البستاني شفرة الطبر على جذع الشجرة. يطيل الأمر. ضقت وضاقت الشجرة ذرعاً. إن مراسم قطع رأس الشجرة مقرونة بالتعذيب.

يرفع البستاني الطبر عالياً.

يقول:

ـ أيتها الشجرة، لقد تصرفت خلافاً لقانون البستان وتستحقين الموت.

ويدير الطبر فوق رأسه. هو قريب من الضرب وقطع عنق الشجرة عندما يمسك العمدة معصمه في الهــواء. ويرسل الآخرون، المرافقون، الصلوات إلى النبي.

يتدخل العمدة. يكلم الشجرة. يتشفع. يرهن لحيته. عن لسان الشجرة يعطيني، ويعطي البستان والبستاني، قولاً بأن هذه الشجرة ستنزل عن حمار الشيطان(*) وأنها، من أجل التعويض عن سوء سلوكها، ستهبنا ـ نحن ومجتمع النباتات ـ في السنة القادمة كمثرى أكبر حجماً، ومرة أخرى يبعثون الصلوات ويتشفع المرافقون أيضاً ويجعلون الشجرة خجلة نادمة ومنكوبة، ثم يبتعدون بصراخ وضجيج وضحك وحبور.

أبقى وشجرة الكمثرى المطأطئة ـ كلانا مبهوت ومتفكر جداً.

أسألها يا حضرة الشجرة، فيما بيننا، ما القصد من هذا العناد والصمت؟ مريضة؟ لو كنت سالمة فلم لا تثمرين؟ إن كان عمرك انتهى وصرت عجوزاً فلماذا أوراقك خضر وجذعك حي؟ على من تحتالين، على نفسك أم على هذا البستاني العجوز، سيئ الطالع؟

أعود إلى غرفتي. يدق التلفون. لا أجيب. كائناً من يكون، يريد أن يعلم كم صفحة كتبت وكم اشتغلت وإلى أي حد وجدت الأفكار الخاصة والمفاهيم الجديدة طريقاً إلى ذهني المبارك.

أضع ورقة في الآلة الكاتبة. أكتب: الميل للعقل ومحاربة العقل. الإصابة بالغرب أم الإصابة بالشرق؟ أسحب الورقة. أدعكها. ألقيها أرضاً. ذلك الكلام المكرر إياه. لا صبر عندي. أتمنى أن أكتب رسالة إلى «ميم»، من تلك الرسائل التي كان المفروض أن أكتبها. يكون الشتاء قد حل عندما تزورنا «ميم» مع أمها. نزل ثلج ثقيل و«ميم» تلبس جزمتين جلداً. احمرت أرنبة أنفها من البرد ولأسنانها عجيبةُ البياض برقُها الدائم ذاك. قرأت ملاحظاتي، اعترافاتي

الغرامية. أنا مريض. نائم ويدور في جسدي النحيل الخزي والغصة والحمى. يتركنا الكبار لوحدنا. تنظر إلي «ميم» وتضحك. أغمض عينيّ.

لا علم عندي بأن هذه آخر مرة أراها فيها. كفّا يدي يحرقانني ويبدو لي أن اسمها قد وُشم على كل جسدي. تقول لي إنها مسافرة إلى أوروبا. فلن يكون ثمة، إذن، صيف. يجب ألا أبكي. أبداً. أصك أسناني. حلقومي مخنوق. تصوت أذناي. أنا منقوع عرقاً. البكاء في فمي، في أنفي، وراء أجفاني، في ثنايا أهدابي. أسحب الملاءة إلى ما فوق وجهي. أنا محموم ويبدو لي أنني حلمت بكل شيء: بستان دماوند و«ميم». يدور هذيان كبير وراء جفوني، وأنا - في آن واحد - حاضر في كل أيام الصيف الماضي. يصطدم نَفَس دافئ وطيب الرائحة بوجهي. وجه «ميم» قريب من وجهي، على الطرف الثاني من الملاءة. تحك أرنبة أنفي بلسانها ثم، كما هو دأبها دائماً، على سبيل نوع من الصداقة وعلامة على العشق (أنا الذي افترضت أمام نفسي العشق)، تأخذ أرنبة أنفي بين أصبعيها وتضغطها خفيفاً، وقبل الذهاب، قبل الاختفاء الأبدي، تقبّل عينيَّ - عيني المبللتين الساخنتين الباكيتين - وإنني أدري أن تقبيل العين يسبب البعد فيعتصر قلبي. يأتي صوت انغلاق باب. صوت قدم مسرعة، مثل نوع من الهروب. الهذيان والحلم والحمى، مثل موجة عظيمة، تتدحرج فوقي ويظهر بحر أسود، مواج، باعث على الاضطراب، قبالة عيني. أتشبث. أنا تحت المياه، المياه المظلمة، المياه الحارة العجوز. ربما كنتُ متُّ. ربما كنت تحت الأرض، وعلى الجانب الآخر من بستان دماوند والشمس والسماء. أحس أن جسدي تمزق وأن أعضاء بدني تعوم منفصلة عن بعضها. أرنبة أنفي فقط هي التي احتفظت، كما كانت، بواقعيتها الجسدية واحتفظت في ذاكرتها بضغط أصابع «ميم».

تأتي رسائلها من خارج الحدود. كانت قد تركت فن التمثيل. تدرس التاريخ والأدب. كانت سنّانا قد تقاربتا. كنت في الثانية والعشرين. يمكن أن نتكلم كثيراً. أو نفكر في الكثير. كان مفروضاً أن أذهب إليها، إلا أن ذلك لم

يتحـــقق. وكان مفروضاً أن تأتي فنذهب إلى دماوند، لكن ذلك لم يتحقق. لم يـــكن هذا مهماً. يمكن الانتظـــار، وكنت متأكداً من نفـــسي. اطمئناناً بلا معنى.

الأوراق بيض ماتزال. عمّ أكتب؟ عن عشق انتهى، آمال ديماغوجية سياسية، الرفاق، حزب متلاشٍ، مخادع والطاقية التي دخل فيها رأسي؟ أتناول أول كتاب كتبته وأفر أوراقه بحيرة وحسرة. مجموعة أشعار غرامية - مهداة إلى «ميم». أرى نفسي: نحيلاً ولكن حسن القوام، رأس مملوء شَعراً (منذ متى بدأ الصلع؟) صدر بارز - ألعب الرياضة بانتظام - بطن غائص (وبروز البطن؟ أظنه كان بعد ولادة الأولاد أو تلك المرحلة من الأكل الزائد والشرب؟). كتاب وراء واجهات المكتبات. أمر كل يوم بكل المكتبات فتجعل قراءة اسمي - كبيراً، بحروف خضراء - قلبي يخفق وتنطبق أجفاني على بعضها من حس الغرور. لاأزال عاشقاً وهذا العشق، هذه الحرارة والاضطراب انجرّا إلى طريق جديد وصارا يدوران حول معشوق أكثر عالمية. ظهرت «ميم» أبدية، «ميم» مفقودة، في قالب أكبر وتحولت إلى رفيق أسود الشارب وكادح. أركض وراء رفاق جدد - رفاق سياسيين - قدماً لقدم معهم، من صميم الفؤاد، أهتف بالشعارات بإيمان راسخ، أصيح، أقرأ أناشيد حزبية، أدق تصوير ماركس ولينين على جدار غرفتي ولايزال قلبي يدق بالشدة والحدة ذاتهما. تبقى رسائل «ميم» بلا جواب. ليس مهماً. صارت «ميم» جزءاً من الحزب، من الرفيق ستالين وبقية الرفاق الحميمين. لقد امتصني الحزب الفتان، أكثر من حذاء «ميم» القماش، إلى داخله. أحسني داخل بيتي ووطني الحقيقيين. أصدق كل ما أسمعه. أنفذ كل أمر يصدره. أسافر إلى حيثما يقول. من الشمال إلى الجنوب، من الشرق إلى الغرب. أوزع الجريدة. أتحدث إلى العمال والفلاحين، خطبة بعد خطبة. ليس وضعي جيداً. لا مال عندي. جائع. مريض. أدري أنني مطارد. إنهم يطاردون الجميع. يصلني خبر اكتشافهم آثار خطاي. لا أفهم. عاشق. انسحرت وتسحّرت. أفضل سني حياتي. أضحك اليوم على حمرنتي ولكن

قلبي وروحي كانا آنئذ تحت تصرف إيماني السياسي وكانت حياة تجري في عروقي بكل حرارتها وشدتها، وكانت الكتابة أمراً سهلاً. كتاباً وراء كتاب. مقالة وراء مقالة. كلام، كلام، كلام، الكلمات، الحروف. كنت وسط ميدان الكفــاح، فوق قمة النصــر والافتخار. بين البشر والمصير الذي كان في قبضتي.

وبعد؟

ما من بعد. الـ«بعد» هو تلك الطاقية القديمة التي كانت نزلت على رأسي. لم أكن أدري بمن وبماذا أتوسل. كنت معلقاً بين الأرض والسماء وكان تحت قدمي خالياً. لو أنني كنت أجبت على رسائل «ميم» لكان كل شيء قد تغير، في الأقل: مصيري. كنت أريد أن أقوم بكل أعمالي وأذهب إليها عندما تتاح الفرصة. كنت أريد أولاً أن أغير الدنيا. أكتب كتبي. ألخبط الأسامي والأشكال. أصير رابحاً ثم، أذهب - مملوء اليدين - إلى «ميم». لم أكن أدري أن العشــق لا ينتظر البشر، ويشطب خط البطلان على المتحسبين والجبناء ومحبي الوجاهة.

كنت في السجن عندما بلغني خبر اصطدام سيارة «ميم» ووفاتها. كان ذلك في السنة الثانية للثورة.

يسأل طلابي:

- وكنت تؤمن بهذه الثورة؟

- نعم.

- أصحيح أنك قدمت استقالتك؟ تمترست؟ كتبت مقالات؟ هتفت بالشعارات؟

- نعم.

- عم يدور كتابك الأخير؟

كنا أربعة نفر في زنزانة صغيرة بلا نافذة، ملتصقين ببعض. سيعدموننا نحن الأربعة. كان فلاحو القرية العليا (أنا مرتاب حتى بمشد حسين ومشد

شكر الله العزيزين) قد شكوني. أعدوا لي إضبارة سميكة. وكان أولئك النفر الثلاثة الآخرون محكومين بالإعدام. كان أحدهم يعرف «ميم». كانا قريبين. سمعت خبر وفاة «ميم» منه، منه هو الذي كان على وشك الرحيل.

أغلق النافذة. ألملم أغراضي. أعود صباح الغد. أضع أوراقي جانباً. أغطي الآلة الكاتبة. آكل شيئاً. أتمدد إلى بداية المغرب. لا خبر من البستاني والعمدة. أدخل البستان.

أول المساء، ليلة ساطعة شفافة. القمر فوق البستان يسطع. للعنب، العنب حديث النضج، تحت نور السماء القمري تلألؤ مذهل. الكرز الأحمر الريان يتغامز. شجرة التفاح أنشط منها في أي وقت آخر وقد انثنت أغصانها من الوسط من كثرة الحمل وثقل الفواكه الممتلئة، حتى لهي على وشك أن تنكسر. أينما نظرت أرى شجرة ملونة مثل أميرة تقف، بيدها مرآة، غارقة في النظر إلى نفسها وتكرر ذلك السؤال الأساسي الأبدي: «يا مرآة، قولي من هي أجمل امرأة في الدنيا؟ الأجمل - الأفضل - الأكبر - الأكثر فناً - الأغنى - الأقوى؟» البستان مملوء بالنبض والهمس والترنم، مفعم بضجة حياة مغرورة. مدت الأشجار المنتضرة السعيدة غصونها الملأى نحوي ونحو الدنيا - كلها عدا شجرة الكمثرى التي وقفت - ببدن صامت ويدين خاليتين بين كل تلك الولولة والرشد والنمو، غير مبالية بملامة هذا وذاك. أنظر إليها - هذه المرة بعينين باحثتين ومتطلعتين، مثل شيخ - جالسة في خلوة، متواضعة وحليمة. في خضم كل هذا القيل والقال الخادع، كل هذا التجلي والاستعراض، في بازار البضائع والعرض والتفرج، تقف صامتة ولحضورها البسيط عدم احتياج الإنسان المجهول. كان شكر الله البستاني يجلب لنا في كل صيف سلة ملأى بكمثرى هي زينة المجالس وينظر ملتذاً مغروراً إلى تمطق أفواهنا البلاّعة. والآن، طوت حسناء البستان وطاووسه ذهبي الريش جناحيها وريشها وذيلها، أدخلت رأسها في ترسها ولزمت صمت الإهمال إزاء وخز لسان الآخرين وإهاناتهم. أمسح جذعها المرطوب والحي والأخاديد العتيقة والأشنات اللينة المستقرة على قشرتها، بلطف، بيدي.

هذه الشجرة ذكية، وتجيب على تماس أصابعي المتعبة المرتجفة، الأصابع الملوثة بالحبر، المصفرة من دخان السجائر، المعقدة المخشوشنة من ضغط الأقلام المتعددة. إن لهذه الشجرة كلاماً سرياً، وهي تناجي نفسها وأنا أحس خفق حياتها الداخلية. كأنما بهذه الشجرة كانت أمي تشد حبل الغسيل وتحت ظل أوراقها اللذيذ تفرش «ميم» بطانيتها ذات المربعات وتقرأ كتابها. على بدن هذه الشجرة الجليلة رسمت أختي صورة قلب مصاب بسهم، بسكينها الجيبية الحادة، وحفرت أنا عليها اسم «ميم» وكتب أخي سطراً للذكرى وأظن أن عمتي العزيزة كانت تشد بأغصان هذه الشجرة كل ليلة ناموسيتها ويصلي أبي في جوارها ويصوب الأطفال الصغار محبو اللعب سهامهم الخشب على جذعها وأنا أصعد، حافياً، متلصصاً، أغصانها وأنظر من ذلك الرأس، من ذلك الارتفاع العظيم، إلى الدنيا وإلى «ميم». إن هذه الشجرة تعرفني وتتذكر كل أيام طفولتي. ألف يديّ بجسارة أكثر حول جذعها. . إنها تفوح برائحتها، رائحة جذع مملوء تجارب غنية ودقائق معطرة وغراميات وآلام قديمة. عطور كل الناس الذين ناموا ذات يوم تحت أغصانها، بالإضافة إلى رائحة أخرى، رائحة متفاوتة عن كل روائح العالم، رائحة مدغدغة وموسوسة، رائحة حذائي «ميم» القماش. أجلس. أتكئ على هذه الرفيقة الخضراء، هذه العجوز الحكيمة. أمدد ساقيّ. أخلع حذائيّ. أفهم لتوي كم أنا تعب وأي طريق طويل قطعت ساقطاً ناهضاً، بالمخالب والأسنان، لاهثاً، مسرعاً، متقدماً الجميع. تتسكع «ميم» جنبي ويأتي صوت ضحكتها الحلوة من وراء. كان الناس يظهرون، مرة ثانية، باهتين ومن دون خطوط وجه مشخصة، من الأطراف. يغوصون فيما بينهم. يتوحدون مع بعضهم. يبتعدون عن بعضهم وينتشرون في الفضاء كالغبار، يدورون في جو البستان نصف المعتم. تنظر «ميم» إلي. نحن في الحقل. يهطل المطر. نركض. انتقع قميص «ميم» ماءً، فالتصق ببدنها وأظن أن «ميم» علقت على غصن هذه الشجرة ملابسها المبللة. ربما. تمر أربعون سنة على ذلك التاريخ - على أول خفقة عشق تلك - أربعون سنة طويلة، ملأى بالأحداث، ملأى

بالذرى والهُوَى، أربعون سنة عمل ـ عمل ـ عمل ـ عمل، أربعون سنة كلام ـ كلام ـ كلام، بحث ـ شعار ـ شعر، فرضية وراء فرضية، حكم وراء حكم، أربعون سنة رجاء وسطوع وولادة وحاضر في الساعة دائماً، في التاريخ، في المجالس والمحافل، في الأحداث اليومية، في واقع اليوم وفي اليومية، في صوت الطبل وصور إسرافيل، في الأنظار، منعكسة، منتشرة.

شجرة الكمثرى واقفة وظهرها إلي، وقد ألقت أغصانها الصبورة مظلة، بأبوة، فوق رأسي. يقول البستاني العجوز إن هذه الشجرة ستثمر مجدداً. ربما، في وقت مناسب. في الوقت الصحيح. زمت شفتيها حالياً. كأنها جلست تتفرج على الدنيا وقد منحت نفسها فرصة النظر.

أتمدد على الأرض. يا للذة. سقط حمل ثقيل عن كتفي. أتنفس. أنظر. السماء ملأى بالنجوم. تمضي نظراتي إلى أبعد قمر نوراني، وتسعى حدود ذهني أن تتفحص معنى اللانهاية ـ لانهاية المجرات، لانهاية الفضاء، لانهاية الوجود والزمان الذي ليس له ابتداء ولا انتهاء.

«أيها الأستاذ العزيز، لك التبريك والمواساة. كتابك الأخير تحفة. أصحيح أنك رُشحت لجائزة نوبل؟ نشرت صورتك في المجلات الإفرنجية. الوطن يفتخر بك. كم كان الوقت الذي أخرجت فيه أموالك إلى الخارج مناسباً. أصحيح أن ابنك استشهد وابنتك تنام في مستشفى الأمراض العصبية؟ ما دافعك؟ ما الذي جرى بحيث استقلت من حزب توده(٦)؟ ألاتزال تؤمن بالعرفان؟ ما سر موفقيتك؟».

يأتي صوت خشخشة العلف الطويل. «ميم» عائمة بين النجوم. يصيح طائر في البعيد. أنا ما بين النوم واليقظة. إن الضغط العتيق الذي كان على قلبي ليل نهار، مثل ضباب الصباح، ينهض شيئاً فشيئاً عن صدري ويختفي. يستقر حس بسيط وسالم في روحي ويسري هدوء شجرة الكمثرى وصمتها إلي أيضاً. ذات ليلة، في ساعة فراغ ما، فرصة موقتة للوجود والنظر، خلو من الاضطراب والخوف والقلق، خلو من الحساب والكتاب والميزان والقياس

والمقاس، تكفيني. تزحف «ميم» في داخلي. تخمشني. تداعبني وتذهب. إن السماء من الفراغ والصفاء والكمال، من الانسجام والخفة، بحيث يخرج التعب، ذرة ذرة، من باطن قدمي وأصابعي ـ التعب القديم، الموروث. أنا سعيد، بخير. نشط فرح. أين أنا؟ لست في أي مكان. منتصف الليل أم قريباً من السحر؟ لا أدري. كأنني جالس في مكث خال بين دقيقتي صخب، بين لانهاية الماضي ولانهاية الغد. ابتعدت نظرتي عن الأجسام والأشياء، عن الأشجار والشجيرات والبستان والبستاني، عن بني آدم وصخبهم، عن البريق والأبواق، عن الكلام ومكبرات الصوت وعن ذاتي ـ أنا العالم المثقف الفنان ـ وراحت تحدق إلى ولد صغير جلس على أعلى شجرة في العالم وراحت عينه تحدق إلى عنكبوت صبور يحرك شبكة رقيقة بهدوء وبلا صوت.

الحواشي

(١) مخفف مشهدي، أي زائر (مشهد)، حيث قبر الإمام الثامن للشيعة الإثني عشرية، وهو لقب يقترب من لقب «حاج».

(٢) وجود قبعة، أو بالأحرى غطاء رأس، فوق الرأس، كناية عن الحيلة أو «المقلب»، وإذا ما نزل الغطاء ودخل فيه الرأس كله، أو وصل إلى العنق، فمعنى ذلك كبر الحيلة وتعقيدها.

(٣) قارن مع ما عندنا: لا تمت يا حمار..

(٤) يُضرب في الفارسية المثل بصداقة الدب، أو محبة الخالة الدبة، للتعبير عما تؤدي إليه الصداقة، وحتى مجرد المعاشرة البسيطة، بين طرفين غير متكافئين.

(٥) ركوب حمار الشيطان كناية عن العناد.

(٦) حزب الجماهير، أو حزب الشعب ـ وهو الحزب الشيوعي الإيراني.

محمود دولت آبادي

ولد محمود دولت آبادي سنة ١٩٤٠ في قرية قريبة من سبزوار[1]. يقضي طفولته في القرية، ثم يصل من هناك إلى سبزوار وأخيراً إلى طهران. يكون فقر العائلة مانعاً في سبيل دراسته المنتظمة والمستمرة. يجرب حرفاً مختلفة ويشتغل أخيراً في تدريس المسرح، ويمثل أدواراً في مسرحيات متعددة.

يُنبئ صدور أول مجموعة قصصية له سنة ١٩٦٨ عن ظهور كاتب مقتدر. تكون دقة نظره، قدرة مشاهدته وبراعته في استخدام لسان الناس العاديين مادة خلقه قصص تُكتب وتنشر تباعاً.

في سنة ١٩٧٤ يعتقل، ويقع في السجن لمدة سنتين.

إن روايات «جاي خالي سلوچ»[2]، «كليدر (عشرة مجلدات)»، من أهم أعماله. و«روزگار سپرى شده مردم سالخورده[3] (ثلاثة مجلدات)»، و«سلوك»[4] هما آخر عملين صدرا له. وفي حين أن (العهد المنقضي لناس مسنّين) عمل في السيرة الذاتية، فإن (السلوك) حديث نفس، عصارة مريرة ومظلمة، ما يحسه الإنسان المثقف الإيراني من عصر ما في فمه.

* * *

قصة «رجل» التي صدرت سنة ١٩٧٤، قصة قصيرة طويلة نسبياً عن تحول فتى مراهق إلى رجل. هذه الكتابة، كبقية أعمال دولت آبادي، قصة الفقر، ولكنها ليست قصة نكبة. وهذا يقع في جهة معاكسة تماماً لكتابات كاتب مثل چوبك، التي يمكن فيها إحساس رائحة القذارة والنجاسة. عندما يتحدث دولت آبادي عن الناس العاديين، أو قعر المجتمع، فإن نظرته نظرة مثالية، وحتى

ملحمية. في هذه القصة يسبب اختلاف الأب والأم وعدم اتفاقهما أزمة، وذات ليلة عندما يعود الفتى «ذو القدر» إلى البيت، لا يجد خبراً عن الأب ولا عن الأم، في حين يرى أخته وأخاه الأصغرين يبكيان.

الأم هي بالطبع لاأبالية، وثمة في حياتها رجل. ولدى ذو القدر عن أحد هؤلاء الرجال ذكرى بعيدة ومؤلمة في خاطره. كانت أمه تأخذ يده، ويذهبان معاً عند الرجل؛ الرجل الذي له عينان واسعتان وشاربان أصفران.

يذهب ذو القدر تلك الليلة في جولة ليلية، وفي انتظار غد جديد وعجيب يحدث تحول فيه. يقطع أمله في أمه وأبيه معاً، يشمّر عن أكمامه كي يربي أخته وأخاه. على هذا النحو تصل حياة المداراة، على رغم كل المشكلات، إلى انتظام وتستمر الحياة الاجتماعية لشعب ما.

الحواشي

(١) مدينة تقع غربي مشهد .

(٢) مكان سلوچ الخالي ـ وقد صدرت بترجمتي عن دار المدى ، دمشق ، سنة ٢٠٠٢ .

(٣) العهد المنقضي لناس مسنّين .

(٤) السلوك .

رجـــل

محمود دولت آبادي

كان طعـم البنجر المسلوق نصف الساخن مايزال على لسان ذو القدر . قبل لحظة ، وقـف قرب عربة بابا سحر ، واشترى بنجـراً بثلاثين شاهي وأكله حتى آخر ذرة ، وهاهو يتجه إلى البيت . مرّ من قرب سقيفة الحجّارين ، ومد خطوه - في طريق كل ليلة - في زقاق الغجر . كان لهذا الزقاق اسم آخر ، ولكن لما كان ثمة نزل مسافرين قديم داخل الزقاق ، ولما كان الغجر - من أولئك الذين يصنعون نعـال الخيل والكماشـات وأسياخ الكباب وكاسرات القنـد وسكاكين المطبخ - يقيمون داخل النزل ، سمي الزقاق بزقاق الغجر .

وكان ذو القدر ، وأخته ماهرو ، وأخوه الأصغر جمال يعيشون أيضاً داخل هذا النزل ، ويقضون نهاراته ولياليهم في أحد بيوته معوجة الجدران . وكان أبوهم چراغ علي ، وأمهم آتش أيضاً - يعني - موجودين معهم . ولكن أيّ وجود!

اليـوم أمطرت السماء منذ الصباح ولا يـزال الزقاق مبتلاً . وكانت السحب الملأى فوق الرؤوس ماتزال تنزّ رطوبتها . ومن المزاريب كانت تسّاقط بين آونة وأخـرى قطرة ماء . وكان نـور مصابيح الكهرباء معتماً ، وكمـا لو كان يلفّها البخار . من وراء رأس ذو القدر ، كانت ضجة الباعة الدوّارين تُسمع من الميدان ومجموعة الشوارع التي تحيط بأطرافه الأربعة . كان الليل في نصفه الأول بعد .

عندما رفع ذو القدر رأسه كان قد وصل باب النزل . ولكن قبل أن يمدّ رجله إلى البـاب ، لفت انتباهه صوتُ أبيه النوّاح ، وأوقفه في مكانه . كان صوت أبيه قـد صار كصـوت نوع من الحيوان . حيوان لا يعرفـه ذو القدر . أو هكذا يبدو

لـه. اقترب ذو القدر مـن بابا ووقف قريباً منه. كان چـراغ علي يقرفص قرب أس المنزل المرطوب، وقد وضع رأسه على ركبتيه، وأثناء نواحه كانت تندّ عنه أصوات مبهمة وغريبة. لم يكن الجو شديد البرودة، ولكن ذو القدر كان يرى أن أبـاه يرتجف. نادى أباه. رفـع چراغ علي رأسه ونظر إلى ذو القدر. صارت عينا الرجل تشبهان دهليزاً مظلماً. أراد ذو القدر أن يسأله ماذا جرى ولماذا يجلس هنا؟ ولكن أباه خفض رأسه وناح. جلس ذو القدر عند قدميه وسأل:

ـ الآن، لمَ لا تريد أن تنهض فنذهب إلى البيت؟

مرة أخرى لم يجب بابا. فكر ذو القدر أن حادثاً لابد قد وقع، فنهض واجتاز باب النزل راكضاً إلى باب بيتهم. كان أخوه وأخته يجلسان أيضاً عند أدنى الجدار، وكان واضحاً أنهما أتمّا بكاءهما. سأل ذو القدر:

ـ لماذا يجلس بابا هناك ويكلم نفسه؟

لم ينبس جمال. وكانت ماهرو ساكتة أيضاً. انتهر ذو القدر أخته وأخاه:

ـ هل اقتلعوا لسانيكما؟ أقول لماذا يجلس بابا هناك ويكلم نفسه، ها؟

انفجرت ماهرو وجمال بالبكاء معاً، وقال أحدهما:

ـ عراك. مرة أخرى عراك.

قالت ماهرو:

ـ آتش تناولت الكاسة ورمتها على رأس بابا، ثم وضعت چادرها[1] على رأسها وخرجت من الباب.

ـ مرة أخرى! غص ذو القدر. لم يكن يدري ماذا ينبغي أن يفعل. ما الذي يمكنه أن يفعل؟ «لماذا صار هكذا؟ لماذا صار هكذا؟».

مهما ضغط ذو القدر على دماغه، لم يكن ليستطيع أن يفهم لماذا صار هكذا. لقد كانا، چراغ علي وآتش، مثل عدوين عداء دم. لم تكن ثمة ولا ليلة واحدة ينامان فيها بلا عراك. لم يكن أحدهما يطيق رؤية الآخر. لماذا صار هكذا؟ لماذا صار هكذا؟

كان ذو القدر قد أولى الجدار ظهره، كان مطأطأ الرأس وذهنه يدور حول

هذه المسائل ويبحث لنفسه عن جواب، ولكنه كلما ازداد بحثاً قلّ عثوراً. وكان هذا هو السبب في تغضن جبهته أكثر وازدياد انقباض قلبه. ولكن ما الحيلة؟ كان أمراً واقعاً. مرة أخرى تركت الأم البيت والأطفال وراحت. ولكن أين راحت؟ لم يكن قلب ذو القدر يهوى التفكير في ذلك. كلما فكر فيه يحل على خاطره رجل له عينان كبيرتان زرقاوان وجاحظتان. رجل يلبس جزمة طويلة الساق، مطاطية، ويضع على رأسه قبعة لباد[٢]، وله شاربان أصفران متدليان. رجل طويل القامة لباسه مليء بقطرات وخطوط الدم. دم الخراف، دم الأبقار. تفغ رائحة الجلد من جسده. رجل كان أحد أسنانه الأمامية ذهبياً. رجل قوي. واحد يستطيع أن يضع أبا ذو القدر في واحد من كلوشَيْه[٣]. في تلك الأوقات، عندما لم يكن ذو القدر قد أكمل الخامسة من عمره بعد، كان يميل إليه. كان ضخماً للغاية. يبدو لناظري ذو القدر مثل أحد أبطال ستارة صور[٤] «المرشد[٥] نبي». له يدان كبيرتان، وكان يضع أصابعه الطويلة والدامية أحياناً تحت ذقن ذو القدر ويقول له «پيخ خ خ خ». كان يذهب مع آتش فيزورانه. يركبان من الميدان ويتجهان مباشرة إلى ميدان السكة الحديد. ينزلان هناك ثم يركبان مرة أخرى ويذهبان إلى المسلخ. هناك، كل شيء وكل مكان يعطي رائحة دم. وكانت الجدران والجدول[٦] والشارع، كل مكان، دامية.

في الجدول، كان الدم والماء والدمن والوحل مختلطة وثقيلة وبائخة تنساق وتذهب إلى اتجاه ما. وكان الخراف والرجال ـ الرجال اللابسون الـ«چوخا»[٧] والحاملون عصياً ـ يسدون الطريق. ومع ذلك، كانت آتش توصل نفسها إلى باب المسلخ وتجده، ذلك الرجل الضخم. ما أن تنقضي شربة ماء حتى يظهر السلاّخ. يتقدم كلوشاه طويلا الساقين. كانت قدمه الواحدة بحجم قدمي الرجال الآخرين. يمد خطاه مفتوحة ثابتة رجالية، وله على شفتيه ضحكة واسعة، بحيث تشع أسنانه الذهب في الشمس. كانت جبهته تعرق، والدم الجديد قد تطاير على لباسه، وسكينه ذات المقبض العظمي في حزامه:

ـ «طيب، الأخبار الجديدة؟».

دائماً يقول هذا . ثم يضع أصبعيه الكبيرتين تحت ذقن ذو القدر ، يقول «ييخ خ خ خ» ويرافقهما ، يجتاز الخراف والرجال ويتجه إلى دكان بائع الكبدة . في هذا المكان بالذات كان ذو القدر وأمه يأكلان شبعاً ملء بطن . لا خمسة أسياخ أو عشراً . يطلب شاحيدر أن يضعوا أربعين سيخ كبدة ، وقلباً وبيضات ، على المنقل . يلاعب هو الطعام ويدع آتش وطفلها يأكلان حتى الشبع . ثم يطلب أن يأتوهما بالشاي . يأتونهم بالشاي هناك . ثلاثة أقداح كبيرة . وفيما يكون ذو القدر مشغولاً بشرب الشاي ، يقرّب الآخران ، آتش وشاحيدر ، رأسيهما من بعض ويقومان بمناجاتهما ، وفي وقت العودة ، يضع شاحيدر رأس حيوان وبعض قطع اللحم والكبدة السوداء في كيس آتش الخشن ، يشد عنق الكيس ويرافقهما إلى مبتدأ خط السيارات ، ثم يعود من هناك إلى عمله . تعود آتش فرحة إلى البيت ، تقطع رأس الحيوان ، تطبخ قطعة منه لهم ، وتبيع الباقي للغجر ، ثم تذهب إلى الحمام . تعود من الحمام ، تمشط شعرها وسالفها ، وتمسح الأحمر على خدها وشفتيها . تغسل وجه حذائها ، تضع شادرها على رأسها وتخرج من الباب . في مثل هذه الأوقات حتى لو أن الأطفال اختنقوا بكاءاً وصياحاً ما كانت لتلتفت لترى وراء ظهرها . ولكن ذو القدر ما عاد يبكي . كان يتساءل فقط: «أين تذهب؟» .

ومايزال قلبه لا يريد أن يصدق . فهو يسأل نفسه:

ـ حقاً ، أين كانت تذهب؟

تراءى لذو القدر طريق ، هو أن يذهب إلى أبيه ، ويعود به ـ مهما كلف الأمر ـ إلى البيت ، ينيمه تحت الكرسي[٨] ، ويشاطره الهموم . فكّر أن يركض ، يذهب ، يصل ، يأخذ أباه من تحت إبطه ، يرفعه ، يرفعه متوسلاً ، يواسيه ، يأتي به إلى البيت ، يعد له شاياً ساخناً ، يفعل ما يقوده إلى النوم ، يذهب فيشتري له أقراصاً ، أو يذهب فيأخذ له حبة أفيون من الأوسطى نياز ، العجوز الغجري ، فيجلبها له ، يفتحها بالماء الحار الذي يعطيه له كي يشربه . يعرف أن روح أبيه مشدودة إلى هذا لا غير .

لم يكن بابا هناك. كان قد ذهب. كان المكان خالياً. وقف ذو القدر برهة هناك عاطلاً. لم يتفتق ذهنه عن شيء. أين يمكن أن يكون بابا ذهب؟ من أي جانب؟ في أي اتجاه؟ إلى المسجد؟ لا، إنه لم يكن رَوَّاح مساجد. مضى وقت طويل منذ أن ترك الصلاة. إلى الحلبة(٩)؟ لا، لم يعد في كيسه مال كي يدفع ثمن دخان الأفيون. كما أن علي جان لا يبيعه بالنسيئة. إذن فقد ضل في الأزقة؟ في هذا الجو البارد؟ هو الذي كان قبل لحظة يرتجف على ذلك النحو، ما شأنه بالأزقة المملوءة طيناً ووحلاً؟ عمَّ يبحث؟ لماذا؟ لابد أنه وضع جاكتته العتيقة على رأسه وراح يمشي، كمجنون هادئ، محاذياً للجدار، تصطك أسنانه ببعضها وتصوّت، يرتجف بدنه، يئن ويخرج من بلعومه صوتاً كصوت حيوان - حيوان لا يعرفه ذو القدر. يدخل الماء حذائيه، لابد أن يدخل الماء حذائيه. وماذا لو اتجه الجو إلى برد أشد؟ أفلا تتجمد رجلاه؟ لابد أنه كلما ضغط عليه البرد أكثر سيخرج أنينه من بلعومه بصوت أعلى. لابد أن أنينه سيصير أكثر إيجاعاً للقلب. مثل عويل الشحاذين المنفردين، في خلوة أزقة المساء. ولابد أن ظلفة باب ستفتح وتمتد يد امرأة عجوز، أمسكت چادرها بأسنانها بإحكام، بقطعة خبز ولحم مدقوق(١٠) بائتين، من شق الباب، فيتوقف أبوه چراغ علي، قرب باب البيت، خجلاً أولاً، ثم شاكاً، فيمد يده متردداً ويتناول الخبز واللحم البائتين من يد العجوز، ويمسح يده اليابسة الطويلة على أسفل جاكتته ويقول متمتماً: «ليبارك الله سُفرتك!».

- «ها؟ حتماً سيفعل هذا؟ أهو ممكن؟!».

سأل ذو القدر ذلك من نفسه. ولكنه لم يعط جواباً من عنده. إذن فقد عاد مضطراً إلى النزل، وذهب إلى بيتهم. وفي طريقه رأى الأوسطى نياز العجوز حنائي الشعر، لكنه نسي أن يسلّم. عندما تجاوزه، أدرك ذلك. سعل أوسطى نياز وزحف إلى جحره، وخطا ذو القدر أيضاً إلى البيت. أعد ناراً للكرسي، أجلس الطفلين تحت الكرسي، هدأهما، وجلس هو في زاوية ما واتكأ على

وسادة وغاص في الفكر وراح يصغي إلى أصوات السعال المقطوعة الممزقة للعجوز الغجري حنائي الشعر.

كانت ماهرو وجمال ينساقان بهدوء إلى النوم. كان جفنا ماهرو قد انطبقا، ووضع جمال رأسه على كتفه وأوشك أن يغفو تماماً. ولكن ذو القدر لا يواتيه النوم. لقد تعب جفناه، ولكن النوم لا يأتي. يأتي، يتسكع حول العينين، ولكنه لا يستقر فوق الجفنين. يلدغ ويهرب. يهرب ويؤذي الأهداب. كما لو رشّوا رملاً ناعماً بين حدقتي العينين. كان له نوع من حال أخرى. كان يشعر أن رأسه صار مليئاً بالرصاص. بدا له ثقيلاً وكبيراً. استقرت في رأسه أفكار لم يستطع فهمها. تؤذيه. ماذا يعني؟ ماذا يعني؟ كان أبوه منكسراً جداً. منكسراً جداً. ماذا جرى؟ أيمكن أن يطلق عليه اسم أب بعد؟ لماذا؟ يذهبان كلٌّ من طرف. ذهبا كلٌّ من طرف. لم يعودا هناك. كأنهما ليسا هناك. ضاعا. كما لو لم يكونا. كأنهما لم يكونا. كأنهما لم يكونا قط. أبداً. لم يبق من آتش في البيت غير زوج حواجب سود، عينين عسليتين، فم مملوء بأسنان بيض وخصلات شعر مجعد، زوج حذاء قرمزي وچادر أسود له استدارة تتركز على جناحيه. لم تبق في البيت، لم تبق في ذاكرة البيت. بقيت في خيال ذو القدر. لم تكن هذه الأشياء. كان أثرها. كظلال عابرة. ظلال نافرة. كصور ظل قطة على حافة سطح. لم تكن هذه موجودة. كانت خيالاً. الآن، أين كانت هي؟ أين كانت آتش؟ ينحشر بين هذين الإثنين - الليل والبرد - يندعك وينهرس؟ أكانت آتش الآن بين الليل والبرد؟ لا، فهي لم تكن مثل بابا، چراغ علي، خرقاء لا تعرف ماذا تفعل. كانت مثل طائر الحجل. في البرد أيضاً كانت دافئة. ولكن أين هي؟ تفو على هذا التفكير! لماذا كان هذا التفكير كالمشرط، حاضراً دائماً كي يعض روح ذو القدر؟ غرفة حارة، بخار السماور، كرسي، وآتش. لابد أنها ألقت چادرها، لابد أنها فكت أزرار ياقتها وتمددت. أين تمددت؟ على ذراع كبيرة بيضاء وصدر عريض فيه شعر أصفر أجعد نتأ من

ياقة فانيلة. على جسد يفغ دائماً رائحة دم وجلد وصوف. دم خروف وشاة طازج. رائحة مسلخ. رائحة آخرين. صراخ ثيران وجمال.

ـ «تفو على هذا التفكير!».

كم هو مؤذ! كم هو مؤذ! كلما فكر ذو القدر بأمه، فهذا أيضاً، هذه الأفكار أيضاً تلتصق بذهنه مثل أجنحة الذباب. تفو! لماذا يجب أصلاً أن يعطي المجال لمثل هذه الأفكار؟ هذه الأفكار تأتي من تلقاء ذاتها. تلتصق. هي سمجة. لا تراعي حال أحد. تأتي، تتخذ موضعاً، تلتصق وتختفي، وما أن تحاول أن تفكر في أمر حتى تحشر نفسها أيضاً. تلتف كالحبال بيديك ورجليك. كم هي سمجة! كم سمجة! تفو!

ـ «ماذا ينبغي أن نفعل الآن؟».

كان ذو القدر يلقي هذا السؤال على نفسه. كان يفكر: ما تكليفه الآن؟

كان يبدو أن جو البيت مرطوب. كان خانقاً. لم يستطع ذو القدر أن يبقى جالساً أكثر من هذا. نهض. نظر إلى أخته وأخيه مرة أخرى. كانا كلاهما نائمين. غطى ذو القدر وجهيهما وسوّى تحت رأسيهما. كانا، كلاهما، أصغر من ذو القدر. كان جمال في الخامسة أو السادسة مايزال، وماهرو لتوها ذهبت إلى المدرسة. وقد بقيا الآن على عاتق ذو القدر كلاهما، وهو يحس أنه أخوهما، وأمهما وأبوهما، في آن.

فتح الباب بهدوء، مدّ رجلاً في باحة النزل، وتوقف هناك لحظة. كان الليل والسكون يملآن كل مكان. كان الغجر قد ناموا وما عاد لهم صوت. ولكن كأن أصوات وقع مطارقهم على السنادين، أصوات شغل كاسرات القند والملاقط وسكاكين المطبخ وأسياخ الكباب، موجودة في الهواء وتدور. كما لو أن أصوات النهار ذهبت إلى السماء، ضاعت، وهاهي تتوجد الآن وتهبط. كما يأتي صوت أغنية «نجاة» أيضاً. إنه يغني دائماً وقت العمل. يغني غناء الأقاليم. يغني بشكل مقطوع الفؤاد. يجلس وراء جحر صنعه لنفسه من الصفيح واللبن، في زاوية النزل، وراء سندان مطرقته ويطرق الملاقط التي كان أخرجها

من الكانون في النهار السابق وكوّمها فوق بعض، ويصقلها. والآن أيضاً كان صوته في الهواء، وكذلك ضربات مطرقته. كانت العوائل الأخرى قد نامت أيضاً. وكان مصباح محل «علي جان» لتدخين الشيرة مطفأ أيضاً، وهمد صوت طيور «زاغي». لم يكن ينّد غير صوت السعال قاطع الأنفاس للأوسطى نياز، الشيخ حنائي الشعر، لماماً. كان ذو القدر يدري أنه مصاب بضيق النفس ويقضي الليالي صاحياً. في البدء، كان يخشاه، ولكنه تعرّف عليه قليلاً قليلاً. تعرّف عليه جيداً. إلى حد أنه صار عندما يراه يسلّم عليه.

ألقى ذو القدر - كما لو يخشى شيئاً - نظرة إلى هذا الجانب وذاك. كان يحيط بالنزل دور صغيرة. كل منها كوجار ثعلب. كان ذو القدر يرى دوماً أن الناس، عندما يريدون أن يدخلوا، يطوون أنفسهم. وفي تلك الأوقات يصيرون مثل شيء آخر غير البشر. لم يكن يعرف مثل ماذا. لكنه كان يدرك أنهم ليسوا كالبشر. أصلاً، أي شكل وقيافة ينبغي أن يكونوا للبشر؟ ولم يكن ذو القدر يدري هذا أيضاً بشكل صحيح. ذو القدر لا يعرف شيئاً على نحو صحيح. ولكنه يضطر دائماً إلى أن يفهم كل شيء. وهو أيضاً كان يريد ذلك. ومن أجل هذا، كان ذهنه وحواسه حاضرة حوله، على كل ما يدور حوله. كما لو أنه كان يريد أن يشق لبّ كل شيء، كل حادث وكل موضوع. يريد أن يفهمه جزءً جزءً. يعرفه. يريد أن يعرف كل شيء. ولكنه لم يكن يعرف طريقة معرفة كل شيء. ولهذا، فقد كان يدوخ أغلب الأحيان. كان صدغاه وعيناه تتوجع. كان يرتبك، فيهرب من الحال التي يصير فيها.

وسط حفيرة النزل أقيم تل من الصفيح الممزق والحديد الصدئ. وقرب كومة الحديد والصفيح المتهرئ، كان عربة أبي ذو القدر المخلّعة حائلة إلى السواد. إلى الوقت الذي لم يكن چراغ علي قد باع حصانه، كان يربط الحيوان في زريبة النزل، ويترك العربة خارج الباب، قرب الجدار؛ كان يجر الحصان من الزريبة صباحاً فصباح، ويشد - بمساعدة ذو القدر، العربة إلى الحصان، ويقول «بسم الله» ويخرج من باب المنزل. وأي حصان كان! أسود ومخيفاً. إن ذو

القدر، إذ يفكر فيه الآن يتذكر أنه صار في الأواخر مثل معزى. معزى تساقط شعرها: نتأت عظام كفليه. على خط ظهره بقي جرح قديم. عنقه محكوك يابس. أذناه متهدلتان. وصارت ركبتاه، لكثرة ما تزحلق، جرحاً؛ كما استقر على عينيه غبار كدر.

ذهب ذو القدر، بلا إرادة، نحو العربة. كانت العربة مكسورة، محطمة، وقد فقدت شكلها. كإنسان أطاحوه بضرب الهراوات. دار ذو القدر حول العربة، ثم وضع رجلاً على ركابها، رقاها وجلس في محل أبيه. في تلك الأوقات، كان چراغ علي يُجلس ذو القدر أيضاً إلى جانبه ويوصله إلى الميدان، حيث ينزله كي يذهب إلى المدرسة. كان ذو القدر يقفز في طرف الميدان عن الركاب، يحرف طريقه ثم يلتف مرة أخرى ومن تحت حافة قبعته ينظر إلى انصراف العربة ويصغي إلى وقع حوافر حصانهم. ولكن الآن كان مكان الحصان خالياً. كما لو لم يكن هناك قط. قبل هذا، كان ذو القدر يرى أباه، أحياناً، وقد جرجر خلفه شخصاً أو إثنين وهو يتقدم نحو النزل مثل من أصابتهم الرعشة. كانوا يجيئون مباشرة إلى العربة، ينظرون إليها قليلاً، يساومون وينصرفون. وفي اليوم التالي يأتي چراغ علي بأشخاص جدد إلى العربة فينغمس معهم في المساومة. ولكنه لم يتمكن بعد أن يبيع العربة.

جلس ذو القدر في المكان ذاته، محل أبيه، مثله، محدودباً مفكراً مع نفسه. أفكاراً لم تطرأ على رأسه حتى الليلة وحتى الساعة. كان يتملكه نوع من تشتت الخواطر. تشتت الأفكار. قلما صار هكذا قبلاً. كان دائماً ينام في الليالي ويستيقظ في الأصباح فيخرج من المنزل. حتى الوقت الذي كان فيه من أولاد المدارس كان يذهب إلى المدرسة، ومنذ أن أنهى المدرسة، كان يسلك طريق الشوارع ويروح يتسكع لنفسه حول عربات الباعة الدوارين وفي ميدان الخضروات فيساعد هذا وذاك ويتقاضى لقاء ذلك بعض الفاكهة والخضروات يعود بها إلى البيت. وإن حصل أحياناً على نقود يضعها في الحصالة كي يشتري لعيده حذاء وقميصاً. مهما يكن، كان نهاراً وكان ليلاً دائميين واعتياديين له.

لم يُرعش قلبه «غداً» قط. كان وجود بابا وأمه، برغم كل خلافهما، بالنسبة له حماية وسنداً. كان يحس أن عنده أحداً، عنده ناساً. أما تدفئ له «الكرسي»، تخيط تمزُّق ملابسه، وتدعو عليه. وأبا ينتفخ ثائراً أمامه، يخزره، يفحش له في القول. وأحياناً أيضاً يضع في يده قطعة «قرانين»[١١]. ولكن لليلة شكلاً آخر. غير شكل الليالي السابقة. وكما لو أن «الغد» كان شيئاً جديداً وعجيباً لابد أن يأتي. كان الغد عريضاً وأكبر. وكان هو وحيداً وأكثر وحدة. كان يحس أن أشياء قد انفصلت عنه. وأنه هو أيضاً انفصل عن أشياء. كما لو خلعوا عنه قباء. البرد. البرد. كان يحس ضغط البرد ازداد وهو يزداد لحظة فلحظة. ماذا سيصير غداً؟ كيف هو الغد؟ ما هو الغد؟ ألا يختلف لونه ورائحته عن كل غد آخر؟ ألن ينظر إليه غداً هؤلاء الناس المحيطون به أنفسهم بعين أخرى؟ كيف سيستيقظ أخوه وأخته من النوم غداً؟ كيف يأكلان الخبز والشاي؟ ماذا يفعلان؟ كانت تلك جميعاً أسئلة بالنسبة لذي القدر، ولم يكن يجد لنفسه جواباً، كما لو أن عليه هو نفسه أن يرتب كل شيء.

قطع صوت صفق باب النزل أفكاره، خلعه من مكانه وجعله يلتفت نحو الباب بلا إرادة. انفتح الباب الصغير الخاص بالناس[١٢]، ووضعت امرأة قدمها في الدهليز. فكر ذو القدر أنها لابد أن تكون من الغجر. ولكن لا، كانت أمه، قامة طويلة في چادر أسود. ماذا تفعل هنا في هذا الوقت من الليل؟ لابد أنها جاءت تطل عليهم. أخفى ذو القدر نفسه بهدوء وراء العربة كي لا تراه أمه، ولكن آتش لم تنظر حتى للعربة؛ مضت مباشرة إلى بيتهم، فتحت الباب، دخلت الغرفة، وأغلقت الباب وراءها. قال ذو القدر لنفسه «ماذا تفعل الآن؟». وكان ينتظر لكي يتجه إلى البيت على صوت أمه ويتظاهر بأنه كان في الخارج.

خرجت الأم، نادت على ذو القدر. أراد ذو القدر أن يمضي نحوها ولكنه لم يقدر. ما كانت قدماه لتتقدمان. بقي. بقي بلا جواب وأخفى نفسه أكثر. نادته آتش أيضاً. مرة، مرتين، عدة مرات. ولكن في كل مرة أخفى ذو القدر نفسه أكثر إلى أن عادت أمه صامتة إلى البيت وأغلقت الباب.

ماذا كانت تفعل الآن؟ لا بد أنها تذهب فتجلس إلى جانب الطفلين وتدللهما؟ تمسح بيدها على شعرهما، تتطلع فيهما، تتحمل همّهما، ترتعش شفتاها وتترطب عيناها. لابد أنها تحدثهما في نومهما هامسة. تبث همومها. تقول: لا حيلة بيدي. كان يجب أن أبقى خارجاً حتى الآن. ما كنت أستطيع أن أفعل شيئاً آخر. كان لابد أن أبقى. ثم، لابد أنها تعض شفتيها بأسنانها، ويخفق طرفا أنفها من البكاء الصامت. ثم، لابد أنها ستؤرث لنفسها سيجارة، تمسكها بين أصابعها الطويلة، توكئ عقب رأسها بالجدار وتملأ ما فوق رأسها بحلقات الدخان، ودون أن تدري ماذا ترى تنظر في زاوية ما. ولكن لا. لا. إنها لا ينبغي أن تحمل غمّ أخي ذو القدر وأخته. لا ينبغي أن تمسح رأسيهما وآذانهما. لا ينبغي أن تنظر إليهما بمحبة. لا ينبغي. لا ينبغي. أما بكاؤها فلتأخذه إلى قبر أبيها! لم تعد عيناها طاهرتين، لم تعد يداها طاهرتين، ليس نفَسها طاهراً، بكاؤها ليس طاهراً. لا ينبغي أن تمسح بيدها خد ماهرو. لا ينبغي أن ترفع خصلات جمال عن جبينه. لا ينبغي أن تقبّل فوق عيونهما. لا ينبغي أن تقرص فخذ ماهرو. لا ينبغي أن تنقر رأس جمال. لا ينبغي أن يهبّ نفَسها على آذان الطفلين وعنقيهما. من يديها تفغ رائحة دم المسلخ الجديد، رائحة عرق جسد غريب. رائحة جسد رجل صوفُ صدره مفتول متشابك. ورمادي اللون. يفوح نفَسها برائحة نفسه. يفوح رائحة كبدة محروقة، رائحة صوف غير مغسول، رائحة المسلخ. ونظراتها كذلك أيضاً. لم تعد نظرات. القشعريرة. يقفّ شعر بدنك. وشفتاها. أووف. لابد أنهما امتصتا لا. لا. يجب ألا تجلس بعدُ عند أدنى «كرسي»[١٣] هذا البيت. يجب أن تذهب. يجب أن تذهب وتنجحر. باعثة خزي. عار. آخ. ليتها تخرج من الباب وتذهب فتنقبر.

أي حقد يحس ذو القدر في قلبه نحو أمه. لم يعد يريد أن يراها. لم يكن يريد أنه رآها قبل قليل. تصورْ أنه يخجل أيضاً أن تلتقي عيناه بعيني أمه. حتى التفكير في أمه يعذبه. يصيبه بالحصر. يريد ألا يرى وجه آتش أبداً بعد. ومع ذلك فقد كان في قعر فؤاده يحس لحالها حرقة. كان يحس غصة من

التفكير فيها ، حتى أنه كان يحس قلبه يريد أن يبكي من أجلها . ولكن ذو القدر اجتمعت عنده هاتان الحالتان . الانزعاج والمحبة . الطلب والنفور . كما لو أنه يبكي لأمه بعين ويغضب عليها بالعين الأخرى . وهذا ما يصيرٌ عذابه أكثر . كان قلبه مليئاً بالإبر .

لابد أن آتش أغفت . جاء ذو القدر متسللاً إلى خارج الباب وراح يصغي . لم يكن ثمة صوت . تصور أن خيالاته تلك أيضاً كانت غير صحيحة ، لأنه كان واضحاً أن أمه نائمة . أراد أن يذهب إلى البيت ، لكنه لم يذهب . لم يطاوعه قلبه . كان البرد يؤذيه . تحرك باتجاه باب النزل . فتح الباب بهدوء وخرج . كان صوت سعال الشيخ حنّائي اللحية الغجري يأتي من وراء ظهره . كان الزقاق خالياً . كان الليل في كل مكان . حتى المصابيح الكهربائية الكدرة كانت تتجنب نشر الضياء . بقي ذو القدر لحظة ثم انطلق .

قرب جدار الميدان ، كان باعة الخضر قد أعدوا ناراً . أقاموا ناراً في برميل معدني فارغ ، يعرفهم ذو القدر . وهم أيضاً كانوا يعرفون ذو القدر . مضى ذو القدر نحوهم وجلس جنب النار . كانا شخصين يتناوبان الليلة . والذي ذهب كان عمو تقي ، والذي جلس نائماً صاحياً على المقعد ، قرب النار ، وألقى معطفاً نصف عمر على كتفيه ، هو «علي الأقرع» . ولكنهم يسمونه «علي آقا»(١٤) . منذ وقت طويل كان ذو القدر يأتي ويساعد علي آقا على إفراغ الحمولات من السيارات . وكان علي الأقرع بالغ العصبية ولا يستقر لسانه بلا إقذاع لحظة واحدة . وكان ذو القدر متعوداً على إقذاعه وقت العمل . لم يكن منقبضاً . لأن ذلك يضر عمله .

ـ كيف حدث أنك غادرت البيت ليلاً؟

جلس ذو القدر جنب صفيحة النار ووضع يده فوق دفء الشعلة . فرك علي آقا عينيه بظاهر يده ونظر إلى ذو القدر:

ـ ها؟

لزم ذو القدر الصمت والنظر إلى النار. حرك علي آقا النار بقطعة خشب وقال:

ـ أول الليل رأيت أباك يتطوح ويذهب هابطاً!

وبقي ذو القدر صامتاً أيضاً. قال علي آقا:

ـ ورأيت أمك الآن أيضاً وهي تأتي. هنا بالضبط، في الميدان أنـ . . . نزلت.

مهما كان علي آقا يريد قوله كان ذو القدر يعرفه. ولم يكن يريد أن يعرف أكثره. صب علي آقا قدح شاي عتيق ووضعه أمامه وأطبق جفنيه الثقيلين. قال ذو القِدر:

ـ نم. سأبقى صاحياً.

كوّر علي آقا نفسه ونام قرب برميل النار. شرب ذو القدر شايه وزحف قريباً من الحرارة. كان النوم قد طار من عينه. أدار عينيه في الشارع الخالي، كان حارس وكلب يتسكعان في ذلك الطرف من الميدان، في ظل الجدار. أشاح ذو القدر بوجهه. كانت ليلة عميقة جداً وكانت خيالات ذو القدر بالغة السماجة. أصابه الذل والعصبية منها. ولكنه لم يكن ليجد منفذاً للخلاص منها أيضاً. أحاطت به كالذباب. ولكن إلى مَ تريد هذه الليلة أن تطول؟ حتى القيامة؟ لا، ستنتهي أخيراً. ينبغي أن تنتهي. كالدخان الأسود ومثل وسخ يلتصق بظاهر الكف، التصقت بروح ذو القدر. ينبغي أن يغسلها. ينبغي أن يبعدها عنه. لم تعد له طاقة أن يستعرض مرة أخرى تحت هذا المرجل الأسود فكره وخيالاته الناهشة. لا، لا حاصل من وراء ذلك. إذ ما ستكون النتيجة؟ كما لو أن المرء يلقي بمئة فرخ عقرب على روحه. من أجل ماذا؟ كي يسفع نفسه؟ لا. ينبغي أن يكمل الليلة. ينبغي الانتهاء من الليلة. انتهت. ولكنها كانت أطول ليالي عمر ذو القدر عمراً. كم كانت ممتدة وطويلة! دهليز أسود لا أول له ولا آخر. ولكن مشكاة وجدت فيه. فتح الفجر جبهته. تحرك الميدان. نهض علي آقا ورأى ذو القدر منحنياً مازال فوق رماد البرميل الحار. حك علي آقا مؤخر رأسه وقال:

ـ الآن نم أنت. المكان حار.

نهض ذو القدر، كان يحس عظامه تنغز. مط جسده وقال:

ـ لا. أروح للبيت. عندي شغل.

دلق علي آقا بضع برتقالات وتفاحات بائتة في كيس ورقي، وأعطاها بيد ذو القدر. أخذ ذو القدر الكيس ومضى نحو النزل. لم يبدأ الحجارون عملهم بعد. كان طين أرضية الزقاق ووحلها قد تجمدا وانعقدا. صحا الغجر فرادى وتركوا ظلفة واحدة من باب النزل مفتوحة. دخل ذو القدر الدهليز واتجه إلى بيتهم. عندما فتح الباب رأى أمه وقد عقدت بقجتها، وضعت چادرها على رأسها وهي تريد الخروج من البيت. عندما رأت آتش ابنها وقفت، استنفرت نحوه وقالت:

ـ أين كنت ليلاً؟

لم يأبه ذو القدر لكلامها. بل إنه حتى لم ينظر إلى أمه. مرّ من جانبها وذهب إلى جانب «الكرسي»، فجلس قريباً من أخته وأخيه. استدارت آتش نحوه. كانت عيناها تمطران دماً. صكت أسنانها وقالت:

ـ في أي جهنم كنت، حسن لك! سأذهب الآن ولن أعود كي أرى أشكالكم النحس.

قالت ذلك وخرجت صافقة ظلفة الباب وراءها. غطت ماهرو وجهها باللحاف وبكى جمال. نهض ذو القدر، أغلق الباب بإحكام ونهر أخاه:

ـ بلا بكاء!

سكت جمال وجلس ذو القدر على كرسي، وضع ساعديه على ركبتيه؛ وطأطأ رأسه. للحظة، لزموا الصمت جميعاً. فجأة نهض ذو القدر كالنمر ووقف وسط البيت.

ثم بدأ الخطو. لم تكن عنده إرادة كهذه، ولكنه كان يحس أنه يمد خطى أكبر من خطاه الاعتيادية. كان قد لزم جانب الدار، يروح ويجيء ويطحن أسنانه. ينبغي أن يطوي طريق ثلاث سنوات في ليلة واحدة. ينبغي أن يجتاز

الليلـة ألف ليلـة. مضغوطة. مضغوطـة. إلى أن يصير رجلاً أمامـه طريق ألف ليلة.

إلى الأمام منه، وقع نظره على صُدرة أبيه الصوفية التي كانت معلقة بالمسمار. نصف المعطف الفراء العتيق هذا، كان أبوه يلبسه ويجلس على عربته عندما ينزل الجليد. ولكنه الآن ممزق كثيراً. لا يقف على الجسد. فك ذو القدر الصدرة عن المسمار ووضعها، بلا إرادة، على كتفيه. جنب الباب، كانت في الجدار مرآة مكسورة. وقف أمام المرآة ونظر إلى نفسه. لكم كبر! كان يحس كتفيه وقد عرضتا، قامته وقد امتدت، وأنبت فوق شفته شعراً. لا، كان يحس شارباً رفيعاً تحت أنفه. حتى أنه يمكنه أن يُمِرّ عليه يداً. لا يتصور. أصلاً لم يكن ذلك تصوراً. لا ينبغي أن يكون تصوراً! التفت، نظر في ما حوله. بدا له أخته وأخوه أصغر مما مضى. أصغر كثيراً. كما لو أنهما صارا طفليه. وهو، كان يرى نفسه مثل جذع شجرة. شجرة في غابة، نمت إلى جانبه كل الأشجار الأخرى. وهذان الطفلان مثل فرخين، رآهما طائرين صغيرين جلسا على غصنه. أحس فجأة أنه يقف مكان أبيه ـ مثل الأيام التي كان فيها سالماً محكماً. رأى نفسه أكبر مما هو. ظن أنه دخل جلد أبيه، والآن عليه أن يحمل الحِمْل الذي بقي مطروحاً على الأرض. ذهب نحو الباب.

ـ لماذا لبست صدرة بابا؟

سألت ماهرو ذلك. استدار ذو القدر نحوها وقال:

ـ لم يعد هناك بابا.

ـ إنه لم يتركنا بعد.

ـ تركنا. هو أيضاً تركنا منذ وقت طويل.

ـ ماذا ينبغي أن نفعل الآن إذن؟

فقال ذو القدر:

ـ على مقربة من هنا، أدنى من المسجد، يوجد معمل لصنع البلور.

سأذهب إلى هناك. ألزق هناك حتى أحصل على عمل. وأنت أيضاً تذهبين إلى مدرستك.

كما لو أن ماهرو استمدت روحاً، خرجت من تحت الكرسي، وبدلاً من أي كلام قالت:

- ألا تأكل خبزاً وشاياً أعده لك؟

- اليوم لا. ينبغي أن أذهب مبكراً. ولكن غداً، لم لا؟

شد ذو القدر الصدرة على كتفيه وخرج من الباب. فقالت ماهرو وهي تعلك الكلمات:

- وماذا عني؟

أدار أخوها كتفه وقال لها:

- كم مرة يقولون الكلمة الواحدة؟

صمتت الأخت. أخرج ذو القدر قدماً من الباب وانطلق نحو باب النزل. كان الأوسطى نياز، الشيخ الغجري، قد زحف خارج بيته وهو الآن يتوضأ، وقد جاء چراغ علي بشخصين يتبعانه وهو يتجه بهما نحو عربته. عندما رأى چراغ علي ذو القدر، لم يباله. كما أن ذو القدر لم ينظر إلى أبيه أيضاً. حيا الشيخ الغجري وخرج من باب النزل. انطلق في الزقاق وجاهد كي يمد كل خطوة أطول من المألوف. خطوات كخطى رجل.

الحـواشـي

(١) غطاء رأس وجسد، خاص للنساء، هو العباءة الفارسية.

(٢) تكون هذه القبعة على هيئة طاقية، ويلبسها الفلاحون ومن سكن المدينة حديثاً منهم.

(٣) مثنى كلوش: حذاء خارجي، أو فوقاني، يُلبس لوقاية الحذاء الأصلي من الوسخ أو البلل.

(٤) ستائر عليها صور المشاهد التي يقوم القاصّ برواية أحداثها.

(٥) المرشد هو القاصّ، النقّال، الحكواتي.

(٦) جدول يُنشأ بين الشارع والرصيف لتصريف مياه الأمطار والجليد.

(٧) لباس يشبه الصديري، بكتافيتين مليئتين صلبتين، يُصنع من اللباد ويلبسه عادة الرعاة، وبالتالي المشتغلون بالحيوانات.

(٨) وسيلة تدفئة هي عبارة عن منقل - و ما يشبهه مما يسخّن بالنفط أو الغاز أو الكهرباء - يُغطى بلحاف أو بطانية، يجلس القوم حوله أو ينامون.

(٩) المقصود مضجع مدخني «شيرة» الأفيون، أي حثالته، التي يدخنها مدمنوها وهم ممددون أرضاً.

(١٠) لحم وحمص وبطاطا، تدقّ وتُهرس وتُخلط معاً، وتؤكل مع ثريد ماء اللحم.

(١١) مثنى «قِران»: وحدة نقد أُلغيت وبقي الناس يطلقون اسمها على الريال الحالي.

(١٢) تمييزاً له عن باب العربات والدواب.

(١٣) أدنى الكرسي، قريباً من باب الغرفة، هو محل جلوس ربة المنزل، حيث يسهل قيامها لأداء وتقديم الخدمات للآخرين.

(١٤) السيد علي.

غزاله علي زاده

ولدت غزاله علي زاده (عليزاده) سنة ١٩٤٥ في طهران، وفي ربيع سنة ١٩٩٦ شنقت نفسها، في غابات شمالي إيران قرب واحدة من أجمل قرى الدنيا، على شجَرة، فوضعت حداً لحياتها. قال الشهود إن الغصن الذي شدت إليه حبل الشنق كان قريباً من الأرض بحيث أن أصابع قدميها كانت تحتك بالأرض. يبدو أنها كانت قد اتخذت قرارها بأن تموت وماتت. إنها واحدة من قلة من الكتّاب والمثقفين الإيرانيين الذين يشكون في تركيب من الرومانسية والدرس من زمن غير مستجيب، ويئنون من تلفهم عبثاً. لقد كتبت في رسالة إلى صديقة: «لست ابنة هذا الزمن». طبيعي أن المرض الذي ابتليت به في أواخر عمرها أضاف إلى التهابات روحها وهيأ الأرضية أكثر من السابق لانتحارها.

كانت من جملة الكتاب الساعين ضمن هيأة من عشرة أشخاص أو خمسة عشر من أجل إلغاء الرقابة، وقد انتحرت في فترة كانت فيها تلك المجموعة من الكتاب واقعة تحت أشد ضغوط الشرطة السياسية. كنا ممنوعين حتى من التقاء أحدنا الآخر. بعد انتحارها ببضعة أيام قال لي الكاتب المعروف هوشنگ گلشيري: «كان موتها بالنسبة لنا مثل صفعة؛ منبهاً». في زمن يضيّقون ساحة الحياة إلى هذا الحد على الناس بحيث تصير الحياة أدنى من شأن الآدمي، ربما كان الموت إمكاناً يمكن، ويجب، التفكير فيه.

نشرت غزاله عليزاده، التي بدأت فعاليتها الأدبية بنشر قصص في مجلة «خوشه»[1] (كانت هذه المجلة تصدر برئاسة تحرير أحمد شاملو، الشاعر البارز، وقد بدأ جيل من كتاب القصة والشعراء فعاليتهم بالتعاون مع هذه المجلة)، أول مجموعاتها القصصية باسم «سفر نا گذشتني»[2] سنة ١٩٧٧.

وبعد ذلك نشرت قصتها الطويلة «بعداز تابستان»[٣]. ولكن أهم أعمالها كان رواية «خانه ادريسيها»[٤] الواقعة في جزأين، التي صدرت سنة ١٩٩١. ومن أعمالها الأخرى مجموعة قصص «چهار راه»[٥] ورواية «شبهاي تهران»[٦]. تعتبر العواطف الإنسانية عميقة الألوان، والعرفان الشرقي ونوع من الرومانسية الإيرانية من السمات البارزة لأعمالها.

* * *

تعالج قصة «سوچ» التي انتُخبت من مجموعة «مفرق الطرق»، بنظرة فلسفية وذكية، الحياة المملة العبثية وعديمة الهدف للطبقة الوسطى من المجتمع. تعالج عليزاده، الأستاذة حقاً في وصف النقاط المعنوية والسلوكية الظرفية لأبطال قصصها، في هذه القصة روابط شبكة من الناس المرتبطين ببعضهم، حيث يغرق بعضهم في الوحدة والحزن والبعض الآخر في الابتذال والعادة اليومية. فأحمد إيزدپناه، الذي انهزم في عشق حداثته، يرضى في العمر المتوسط أخيراً بينت بائرة متقدمة في السن هو متأكد من أنها لن تمنح حياته أي حماس. والدكتور شقايقي الذي استأثر بأجمل بنت في المدينة، لكونه محروماً من العشق، يمد يد الصداقة بعد سنوات نحو ابنة عمه، فيجابَه منها، بالطبع، بعدم الاهتمام. والأخوات مير بلوكي، اللائي هن جميعاً معلمات للرياضيات وقد ارتدين طول عمرهن جوارب سميكة سوداء، طبخن الحلوى وقمن بالتطريز، قامت الاثنتان الكبريان منهن بعد التقاعد بالسفر وتزوجت صغراهن، التي كانت مغرمة سراً بالدكتور شقايقي، من بائع الأنتيكات في المدينة.

والسؤال الأساسي هو عينه ذاك الذي يخطر على ذهن أحمد إيزدپناه: لماذا نأتي إلى الدنيا، نتألم، ونموت؟

الحواشي

(١) العنقود .

(٢) سفر غير قابل للعبور .

(٣) بعد الصيف .

(٤) بيت آل إدريس .

(٥) مفرق الطرق .

(٦) ليالي طهران .

سـوچ(*)

غزاله علي زاده

الفصل الأول

في أواخر شتاء سنة ألف وثلاثمائة وست وستين(1)، باع (أحمد إيزدپناه) دكانه لبيع العتيقات وأخذ غرفة كبيرة في الطابق الثالث من عمارة (پنما). نقل أثاث دكانه إلى هنا. كان غالباً بلا شغل. ابتدع أساليب: في وعاء ماء (نوربلين) المصنوع في القرن الماضي، كان يغلي القهوة، ويقدمها إلى الزبائن. وغطى أرضية الصالة بجوخ أخضر. في بعض الأحيان كان لا يذهب إلى البيت مساء، بل يتمدد على ديوان قديم. تحت بدنه النحيف كانت النوابض تئن. كان يستيقظ مبكراً صباحاً، ويغسل وجهه في مغسل مقعر فلزي، بالماء البارد. ويمسح طقمه البني المكرمش بفرشاة مرطوبة. وأمام مرآة بيضوية مؤطرة بإطار مشغول بالفضة، كان يمشط شعره الموخوط بالشيب إلى وراء. يجلس وراء منضدة من خشب جار الماء(2) ويشرب الشاي. عندما يكون الجو غائماً، كان يضيء المصباح المنضدي الياباني، ويتفرج على تصاوير البلابل والسرو والجبال، على الورق الأصفر الشمعي. يسحب الجارور إلى أمام ويُخرج مجلة مهترئة الأوراق، يرجع تاريخها إلى خمس عشرة سنة قبلاً، ويقرأ القصص المسلسلة، قصص ماركوپولو في إيران، ذئاب الأميرال، والعالم المعكوس.

(*) المعنى الوحيد المعطى لهذه الكلمة في «لغتنامه» للعلامة دهخدا، هو: الحرق أو الحرقة، ولكن ناقداً ايرانياً اعتبرها - واستعمالها في المتن يسوغ هذ الاعتبار- تعني العبث أو اللاشيء.

عند الظهر، كان أصدقاؤه القدامى يأتونه في ساعات العمل الإداري. يأكلون شطائر الدجاج ويشربون الكوكا كولا، يتحدثون في السياسة، يقفون عند النافذة يدخنون وقد احمرّوا انفعالاً. كان لهم جميعاً نساء وأبناء. كان (أمير هوشنكَ مستوفي) قد اشترى قبل سنة أرضاً في شارع دهقان المشجر. وكان المهندس (صدري)، معمار المدينة المشهور، قد رسم خارطة البيت وتقدّم العمل في البناء إلى مرحلة الأشغال التكميلية. وكان مستوفي دائم الحديث عن نوعية الحجر وأسعاره: الرخام والحجر الجيري[٣] والحجر السماقي[٤]. في مرحلة الدراسة الجامعية كان ينظم الشعر ويقرؤه بصوت طنان. ذات مرة اعتقلته الـ(ساواك)[٥] بسبب تحطيمه الزجاج، فراح ينظم الشعر السياسي بعد هذه الواقعة. وكان (بهمن تفضّلي) شجرة ميتة وقليل الكلام. كأنه مارس جميع الأعمال على مدى عمره ووجد أنه ما من جديد تحت الشمس. بعد سفرة إلى فرنسا، كان قد اشتغل في إدارة مسرح المدينة. وقد أُخرج مسرحيات لبرشت، فرانك أو كانور ومعطف غوغول، ولكن حماسه همد تدريجياً واكتفى منذ بضع سنوات بمركز معاون ثقافي. وكان (محسن نوّاب) مدرّس ثانوية، وكانت فتاة عبوس ثرية قد وقعت في شبكته. كان يبدل سيارته كل سنة. وفي خارج المدرسة يمضغ العلكة. كانت تسليته جمع حاملات المفاتيح وعلب الثقاب.

بعد انتهاء الغداء، كان الأصدقاء يذهبون للعمل. ويقوم إيزدپناه بجولة في الصالة، يمسح بيده على صدأ الثور أحادي القرن المستخرج من حفرية. كان قد بقي إلى تلك السن أعزب. كان الناس يقولون إنه لا رغبة عنده في المرأة. وكان الهذّارون يجرجرون هذه الشائعة إلى مسارب ضيقة. ولكن كان لامتناعه عن الزواج سبب بسيط: هزيمة غرامية في مرحلة الشباب. فقبل انتهاء دراسته الثانوية أغرم بـ(ليلي نبوي)، بنت عقيد الجندرمة نبوي. وكان العقيد الركن نبوي عم البنت. كانت ليلى فارعة القوام نحيلة الخصر جميلة اللون والمظهر. كانت تلبس في الأشتية جزمات شمواة بنية، وتلقي على رأسها شالاً سكري اللون محوك

باليد. كانت تدرس في ثانوية (الناموس). تعض التفاحة وتركض في الشارع. كان يقال إن عندها معجبين بعدد شعر رأسها. كان لقاء إيزدپناه الأول بليلي، في دكان بيع مثلجات (كَلبهار). كانت مجموعة من الفتيات يجلسن متلاصقات حول طاولة. كانت ليلي تضع ملعقة المثلج بين شفتيها وتمتص بلطف. وكان الذباب الربيعي الأخضر يلف حول الطاولة. وكانت شمس العصر تشع على عينيها العسليتين فتضيء الزغب الأشقر حول فكيها. كان بيتهم في شارع الثلاثين متراً ولهم منزل بارز، بسبب الطاووس الملون والعظيم المرسوم على الجدار بقطع القيشاني؛ كأنما كان ذلكَ ذوق العقيد. في أيام العطلات كان أحمد يقف مقابل البيت، يتكئ على شجرة حور[٦] وينظر إلى الطاووس. وكتب ذات يوم تحت رجلي الطائر، بقلم أحمر جاف: «في قلبي دوماً».

الفصل الثاني

خرج آخر المرضى. ألقى الدكتور (شقايقي) نظرة على الساعة، كانت الثامنة وخمس دقائق، غسل يديه بالصابون المطهر وجففهما.

كانت عيادة الدكتور في الطابق الأرضي في منزله، مضيئة وحديثة البناء، جدرانها صفراء وبلون الحليب بالقهوة. كانت غرفة الانتظار أوطأ بدرجة، وقد صفّت كراسي استراحة من جلد أبيض حولها. كان فيها زينات مبتكرة: مصابيح جدارية شمعية، طاولات خيزران، منافض سجاير ذوات أرجل على شكل زنابق.

أطفأ الدكتور المصباح المنضدي، فغاصت في الظلمة الزجاجة السوداء للمنضدة، قاموس طبي جلدي الغلاف، قلم - دواة مطليان وفاتحة مظروفات فولاذية تذكاراً من مرحلة النازيين. بعد توصية الآنسة السكرتيرة الحلوة، صعد السلالم. وقف خلف الباب الخشب، نفخ على الأوراق العريضة والخضراء للأصص الفخارية وأدار المفتاح في القفل.

كانت زوجته تجلس، مع ابنة عمها (پريچهر)، خلف طاولة مدورة، قرب النافذة، تلعبان الورق. اقترب الدكتور، على رؤوس الأصابع، منهما. كانت ليلي تلصق قشر خيار على وجهها. بمجرد أن رأت زوجها، ركضت إلى المغسلة ثم خرجت بعد لحظة بوجه مغسول وشفاف. كانت في الرابعة والأربعين. وقد استقرت بين حاجبيها غضنة صغيرة. كان جفناها الأسفلان قد تورما، ولكن عينيها العسليتين كانتا مضيئتين بحماس الحياة؛ وكانت رقة البشرة وبياضها دليلين على الاعتناء الدائم.

جلس الدكتور على الديوان، ورّق جريدة العصر، تثاءب وألقى بها على الطاولة. قال لپريچهر: «إنك تزدادين سمنة يوماً بعد يوم، فكري بنفسك!».

نهضت المرأة عن وراء الطاولة، وحدقت إلى الشارع المظلم: «عندما كنت نضرة طرية ونحيلة القوام وشابة، أي خير فعله الرجال لي؟ أريد الآن أن أحيا لنفسي». نظر إليها الطبيب متأسفاً من رأسها إلى قدميها: «افعلي ما ترينه في صالحك!» والتفت إلى ليلي: «العشاء جاهز؟».

صفت ليلي و(ننه) المائدة: سلطة بطاطا، حساء بصل وطبق لسان. الدكتور لا يتكلم على الطعام، كما أنه لا يشرب مرطباً أو ماء. تحدثت المرأتان بهمس عن أقراص الأعصاب، قلة النوم، وحمام البخار. كان باب الإيوان نصف مفتوح. دخلت قطة نمرية، أخرجتها ليلي بركلة وأغلقت الباب. حكت مرفقها: «في منتصف الربيع ظهرت الخنافس والبعوض».

وضع الدكتور خس السلطة على رأس الشوكة. راز المرأة: لقد وضع دخله الكبير على كتف ليلي بضع طبقات إضافية من اللحم. جفف شفتيه بمنديل المائدة، وذهب إلى زاوية الصالة. من بين الأشرطة رفع فيلم (إلسيد)، ووضعه في جهاز الفيديو. أرّث غليونه علامة (دنهل) المقوس، وانشغل بالمشاهدة. لم يكن جمال (صوفيا لورين) يجذبه كالسابق. قبل انتهاء الفيلم بساعة أطفأ الفيديو وتهيأ للنوم.

الفصل الثالث

قريباً من خمس وعشرين سنة، حظيت الأخوات (مير[٧] بلوكي) بشهرة في المدينة. كن، ثلاثتهن، معلمات. لا يفترقن إحداهن عن الأخرى في الزقاق والشارع. مع اختلاف ثلاث أو أربع سنوات في السن، كنّ متشابهات بشكل يلفت النظر. وكانت خصائصهن الظاهرة الجوارب السميكة السوداء، والأحذية الرجالية المستوية، الحواجب الكثة المعقودة وحب الشباب الذي كان يحافظ حتى منتصف العمر على طراوتهن عديمة اللون، إضافة إلى الوقار الذي لم يكن سببه واضحاً ولكنه صار أخيراً معترفاً به إلى حد أنه اعتبر فضيلة لهن. كنّ جميعاً يدرّسن الرياضيات. كن مجدّات جادات. في صفوفهن لم يكن يندّ عن الجدار صوت. قبل البلوغ فقدن أمهن. وغاص الأب، بعد موت الزوجة، في صَدَفته.

كان مير بلوكي صاحب محضر[٨]. مع شروق الشمس كان يذهب إلى العمل ويعود مساءً. كان بيتهم في شارع مهركَان، محكم وقديم له ثلاثة سقوف صفيح مائلة وبوبيات مشبكة. كانت أسماء البنات تبدأ بحرف الفاء: فهيمه، فرخنده وفريده. كانت كبراهنّ أستاذة في طبخ المعجنات، والثانية تحفة المطرزات. أما فريده، البنت الثالثة التي كانت تعرف في البيت بآخر العنقود، فقد كانت تعد نفسها أديبة وكان لها شأن في نظم الشعر.

كانت تقرأ غيباً ما لا يقل عن مائة وخمسين بيتاً من الأشعار الكاملة لمن تسميها بـ«السيدة پروين اعتصامي»[٩]. وفي الاحتفالات الثقافية ومراسم الاستقبال، كانت خطيبة دائمة.

لو أنها غابت في حفل ما، لسبب ما، كان الناس يتساءلون متهامسين: «إذن فأين فريده ميربلوكي؟». كانت ميالة إلى الكمال وتنطوي على رؤى. وكانت تعترف أحياناً لصديقاتها المقربات أنها وردة بلا عيب ولا يمكن لأحد أن يتكلم وراءها. كان بيت الأب وبستان في قرية (رحمت آباد)، سند كبريائها. ولكن

عندما كانت تجلس بعد ظهر أيام العطلات عند حافة النافذة، بكتاب مفتوح، وتنظر إلى الشارع المملوء أشجاراً والخالي من الناس، كان دمعها يساقط قطرة قطرة على أوراق ديوان (أنوري) أو (صائب)[10]. حتى متى ينبغي أن تتمشى في الغرف القابضة للروح وتشم روائح القطّاب وكعك الرز[11] من الفرن؟ أتصغي إلى مسارّات المربية؟ أترش النفتالين بين طيات صندوق أمها؟ أتأخذ عشاء أبيها إلى غرفته، وتحدق في الصمت إلى أكله؟

في العام الماضي تقاعدت الشقيقتان الأكبر. وبعد بضعة أشهر سافرتا بمدخراتهما المالية من أيام التدريس. في غيبة الأختين، صارت فريدة سيدة البيت. أقامت جلسة لقراءة الشعر مرة كل خمسة عشر يوماً، وصارت تذهب إلى الجلسات الأدبية الدورية، حتى أنه شوهد وجهها العبوس في دور السينما مرة أو مرتين. وذات ليلة أيضاً جاءها خاطب، تحت نظرة المربية المبهوتة: مدرب الرياضة في ثانوية (الشهيد ياسر مفتاح). جاء الرجل مع أخته وابنة عمه. كانت زوجته قد توفيت في السنة السابقة وكان عنده ابنان فتيّان. طردتهم فريدة بغضب وتحقير. في كل حياتها، كان رجل واحد قد أثار احترامها ومحبتها: (خسرو شقايقي). كانت فريدة طالبة في السنة الثانية بكلية العلوم، وخسرو في السنة الخامسة بالكلية الطبية: فتى لائق وجدي، أسود العينين والحاجبين أبيض الوجه. يعقد رباط عنق. يلبس أطقماً بألوان ناصعة، حمصي وحليبي - بني. لم يكن يبالي الفتيات. كان يقال إن أمه ألمانية. وقد انتفت الشائعات بعدئذ وفهم الناس أن المرأة الشقراء زرقاء العينين من أهل (رضائية)[12]. ذات يوم رأت الفتى عن كثب في محل لبيع الكتب. كانا كلاهما، بالمصادفة، يريدان الكتاب ذاته: «حد السيف». بعد هذا التقارن ابتسما وسمرت فريدة عينيها بالأرض. نسي خسرو قلمه الأبيض علامة (بنتل). أخذته فريدة، بعيداً عن عين البائع، فوضعته في جيبها. وفيما بعد، التقيا مرة أو اثنتين في صالات خطابة. مرّ الرجل من جانبها بدون اهتمام. حسبت فريدة أن الفتى يعاني من غمّ مرموز و«أن جراح الروح تتأكله ببطء في الانزواء وتبريه». بكيت لحاله سراً ودعت له. بعد

سنتين، بعد التخرج من الجامعة انصرفت فريدة إلى التدريس، وسافر خسرو شقايقي، لمواصلة دراسته، إلى بلجيكا.

الفصل الرابع

في أواسط أرديبهشت(١٣)، في منتصف نهار مشمس، كان أحمد ايزدپناه جالساً إلى منضدة كتابة. كان قد باع الثور أحادي القرن المستخرج من الأرض قبل ساعة، بسعر زهيد بسبب كونه ممنوعاً قانونا، فكان يحس غبناً.

رن جرس الباب المعلّق. ودخلت امرأة ترتدي الأسود.

عرفها أحمد بلا إبطاء. كانت فريده مير بلوكي. قام نصف قومة وحيا. كانت الشقيقات الثلاث يذكّرنه دائماً بمشيّعي الجنائز. جلست فريدة، وبعد مكث قالت: «اعذرني لمزاحمتي. كان غرضي أن أعرف إن كنت راغباً في شراء أشياء قديمة؟ أعطتني العنوان واحدة من الزميلات وقالت: يا آنسة مير بلوكي! أرسلك عند إنسان موثوق مائة بالمائة».

برقت عينا أحمد. كان الجميع يقولون إن لدى مير بلوكي صاحب المحضر مواد عتيقة أصلية في بيته، ويضيفون ضاحكين: من بينها بناته! أولى أحمد المرأة ظهره وضغط يده على فمه. بعد سعال مصطنع قال: «إن العتيقات هي الشيء الوحيد الذي يجتذبني، إن كنت بيّاعة فإنني سأشتري بكامل الميل».

خفضت فريدة رأسها: «عزمت منذ مدة أن أبدل ديكور غرفة الضيوف. إن فؤاد المرء لينقبض بين الأشياء القديمة. وعلى العكس من ذلك، فإن الموبيليا الجلدية البيضاء، مصابيح الجدران الشمعية، الطاولات الحصير والألوان الزاهية، كالليموني والحليبي - بني، تجعل المحيط ذا روح. أرغب من القلب في منافض سجائر على هيئة الزنبق. أرتاح لغطاء الأرضيات، لأنه قابل للغسل. في البيوت القديمة، يستعملون في الأغلب سجاداً كبيراً. وقد بطلت هذه الأشياء الآن».

وضع أحمد يداً على حاوية قند فضية وخطر له أن يعد القهوة. ولكنه صرف النظر فوراً: «نعم، لكل ذوقه. وما رأي السيد مير بلوكي؟».

شبكت فريدة أصابعها: «أبي صار عجوزاً جداً. أذنه ثقيلة. أغلق المحضر

وانصرف إلى الاستراحة في البيت منذ زمن. طلبت إجازته. تفضل بالقول، لا سمح الله: أنا شمس غاربة، تدبير المنزل بيدك، افعلي ما تشائين! أرأيت عيادة الدكتور شقايقي؟».

عقد أحمد حاجبيه: «لحسن الحظ، لا! لا أرتاح للأطباء، إنهم لا يفكرون بغير المال».

نقرت فريـدة قبضة مقعدها: «متأسفة! أتعتبر الأطباء الشرفاء أشخاصاً من هذا النوع؟».

نظر أحمد إلى الشارع. كانت سيارة (محسن نوّاب) تلفّ حول الموقف.

واصلت الفتاة متوسطة العمر: «إن عملهم يفرض عليهم ألا يكونوا عاطفيين. ولكنهم ليسوا غرباء عن العواطف الإنسانية. كنت أعرف طبيباً... (حدقت مدة إلى حذائيها المتهرئين) في جلساتنا الأدبية كان يتردد ثلاثة أطباء شعراء».

غرز أحمد قبضته في شعره: «متى أرى العتيقات؟».

«الأربعاء عطلة رسمية. في أية ساعة يتاح لك الوقت، شرّف كوخنا. تعرف أين يقع؟».

«أرجوك. قصركم العامر معروف للجميع».

نهضت فريدة: «أية ساعة إذن؟».

حك أحمد حنكه: سأصل إلى خدمتكم في العاشرة صباحاً».

فتحت فريدة الباب، فصارت وجهاً لوجه أمام نواب. عضت شفتها وخرجت على عجل.

الفصل الخامس

كان مغرب الجمعة والجو منقبض. كان الدكتور شقايقي يلعب مع پريچهر الورق. كانت ننه تجلس عند الباب وتكسر اللب. كانت ليلي قد قالت إنها ذاهبة خطفاً إلى بيت (طاهرة خانم[١٤]) الخياطة، لكن غيبتها استغرقت ساعتين. كان الدكتور يخسر لصالح پريچهر. كانت ابنة عم ليلي قد تزوجت مرتين

قبلاً. في الشهر الماضي بعد افتراقها عن زوجها الذي كانت تدعوه «ابن الحرام عديم اللياقة!»، حزمت الحقائب وجاءت إلى هنا مباشرة كي تجد الهدوء في محيط طفولتها وفتوتها المألوف. كانت في سن ليلي ولاتزال فيها، في رأي الدكتور، نضرة ومنظر. رفعت شعرها الشرابي الفاتح إلى أعلى ووجهت جبينها نحو البويب وقالت: «يا دكتور، أترى؟ تبقعت. من الشمس غير المناسبة هناك. أتعرف دواء لها؟».

جمع خسرو شقايقي الورق عن الطاولة ووضعه في العلبة، وغمز: «دواء واحد لا غيره».

وسّعت پريچهر عينيها: «ماذا؟».

وضع الدكتور غليونه في زاوية فمه، سحب الكبريت: «العشق! يا حلوة! عشق حقيقي!».

نهضت المرأة عن خلف الطاولة: «سمعت كثيراً من هذا الكلام».

داعب الدكتور الساعة الـ(رولكس) على معصمه: «كلامهم لم يكن جدياً. ولكنني إنسان صادق. پريچهر! أميل إليك، أريد أن أعقد عليك».

اتكأت پريچهر على الجدار: «ماذا عن ليلي إذن؟».

سحب الدكتور نفَساً من الغليون، نفخ كتلة الدخان المعطر نحو المرأة: «ليس عند ليلي شيء لي».

«ماذا تريد أن يكون عندها؟».

قطب الدكتور حاجبيه: «كما نقول نحن الرجال: الجاذبية النسائية (سمّر عينيه على سماء المغرب) ربما كنت أريدها في الأول. لا أدري أتذكرين؟ كان نصف شبان المدينة، صرعاها. وألقيت أنا بدوري ـ عناداً، مثل امرئ يريد أن يفوز في كل مسابقة ـ إلى الحلبة، فخطفتها من براثن الجميع. بعد مدة فطنت إلى خطأي. لسنا قريني بعض. كنت أجسد في أحلامي فتاة مليئة بالحماس دافئة، موجوداً لا يمكن التنبؤ بسلوكه، مثل سماء الربيع، (وحدق إلى عيني المرأة) ولماذا نذهب بعيداً، مثلك يا دميتي!».

عبست پريچهر: «أنا قابلة للتنبؤ! عندي بضع عادات سيئة. سرعان ما أفقد صبري. لست أهلاً للبقاء والرثاثة. (ابتسمت) الحياة قصيرة جداً».

صفق لها الدكتور: «أحسنت! كنت أريد أن أسمع هذا بالذات من لسانك. يا عديمة الوفاء تساهلي معي! ندور حول الدنيا مع بعض. تعبت من العيش الرتيب. أبذل كل ثروتي تحت قدميك المحبوبتين!».

دفعت المرأة يديها عميقاً داخل جيبي جاكتتها الليمونية، هزت رأسها ونشرت شعرها: «خسرو! إنني أعرف الرجال كما كف يدي، قل الحق! لكم امرأة قلت هذا الكلام حتى الآن؟».

مرر الدكتور أسلة لسانه على شفتيه: «مع أنك حاذقة، إلا أنك لم تعرفيني أنا. لو كنت تعلمين كم أنا شريف وصادق (تنفس عميقاً) وأسفا أن خرّبوا ذهنك!».

«لا اعتراض لدي. ولكن الرجال الصادقين الشرفاء يضيّقون خلقي. أينما ذهبت ثمة نموذج منهم. (وضعت يدها على عنقها). لا! وصلتُ إلى هنا. ستأتي زوجتك الآن».

أفرغ الدكتور رماد الغليون في منفضة السجاير ونهض عن مكانه: «آه أيتها الحسناء الظالمة! ستقتلينني أخيراً!».

ذهب إلى غرفة النوم وأغلق الباب. ألقى بملابس ليلي الرقيقة عن السرير برأس قدمه. زحف إلى تحت اللحاف وحدق إلى الغيوم الداكنة. فكر كم هي الحياة مملة. دردم هامساً: «نحن رضينا بالفضلات، والفضلات تتدلل علينا».

أغمض عينيه وانحدر إلى نوم عميق.

عادت ليلي قبل العشاء. أخرجت من الحقيبة علبة صغيرة وأرتها لابنة عمها: «مرهم لمسمار القدم، انظري! (فتحت غطاء العلبة) لونه أسود، تند عنه رائحة، ولكن طاهرة خانم تقول إنه يصنع المعجزات».

ذهبت پريچهر إلى المطبخ، أخذت لب خس، خرجت، وقالت وهي تمضغ: «سأرحل عن هنا غداً».

نهضت ليلي نصف نهوض: «بهذه السرعة؟» .

رفعت المرأة كتفيها: «طيب ، إنك تعرفينني! لست من أهل البقاء في مكان واحد . الحياة قصيرة جداً» .

أفلتت العلبة من بين أصابع ليلي: «فؤادي يحترق عليك . إنك تتلفين نفسك ، لم تتذوقي طعم حضن العائلة الدافئ! إنك وحيدة جداً! ليس إلى قربك رجل يكون عاشقاً لك ويمكنك أن تتكئي عليه!» .

سال الدمع من عينيها . أعطتها پريچهر منديلاً: «على كل حال ، أنا ذاهبة غداً» .

الفصل السادس

يوم الأربعاء ، الساعة العاشرة ، كانت فريدة مير بلوكي تنتظر إيزدپناه .

فتحت المربية الباب أمام الرجل ، ورازته من رأسه إلى قدميه . قالت فريدة من غرفة الاستقبال: «تفضل!» .

دخل أحمد الصالة ، كان الجو نصف معتم ، وقد صفت كراسي الراحة ، المنجدة بورد مخملي ، لصق الجدران . كان رفّان متجاوران مملوءين بالعتيقات: كوز ـ أرجيلة «ناصرية»[15] ، مصابيح سبعين سنة خالية ، لها زجاج كشفتي البعير أرجوانية اللون ومؤخرة زهرية ، صحون حلوى صدفية ، على هيئة ورق عنب ، بلون صدر الطيور والعقيق . التمعت عينا أحمد .

كان يريد أن يرى بلا إبطاء المجموعة القيّمة ، لكنه تمالك نفسه وجلس .

جلبت المربية الشاي والكعك . بعد ذهاب الأختين ما عاد ثمة من خبر عن الحلوى المنزلية .

أشارت فريدة إلى الرفين: «أنا عازمة على بيع هذه الأشياء معاً» .

فحص أحمد العتيقات بشوق ، جلس وحدق إلى السقف: «إنك مطلعة على أن قيمة العتيقات قد هبطت أخيراً ، إن السوق تشكو من قلة النقد ، كما أن الناس يميلون أكثر إلى الأشياء الجديدة . مع كل ذلك ، لا اعتراض عندي . إنني أبذل جهدي» .

احمرت فريدة: «عجيب! حضرتكم تبالغون. إن فكرتي هي أن للأشياء العتيقة دائماً سوقها. لأنه ما عادوا يصنعون نظيراً لها في أي مكان في الدنيا».

شرب أحمد جرعة الشاي، كان غالياً وداكن اللون، فكر أن له طعم صاحب البيت. سأل: «أتبيعين الموبيليا أيضاً؟».

«أفتشترونها؟».

مرر أحمد يده على المخمل المورد: «لاتزال قابلة للاستعمال».

«إذن فخلّصني من الكل».

«ما أخبار شقيقتيك؟».

ابتسمت فريدة: «انتظر لحظة! (خرجت وعادت تحمل بطاقة بريد. أرتها لأحمد. كانت منظراً لمدينة «سيدني»). إنهما هنا منذ أسبوعين. تعرفتا إلى عائلة إيرانية».

نظر أحمد إلى المصابيح على الرف: «محل جميل. عندما كنت أفتى كنت أتمنى أن أدور حول الدنيا، لم يعد عندي حماس وشوق».

خفضت فريدة رأسها: «إلى أي مكان ذهبت فلون السماء هو نفسه. أفرأيت مقبرة (السيدة پروين اعتصامي)؟».

«كلا، أصلاً لا أدري أين، ولكنها نظمت شعراً جميلاً لشاهد قبرها».

تنهدت فريدة وحدقت إلى السقف: «هذه التي صار التراب الأسود وسادتها نجمة فلك الأدب پروين».

الفصل السابع

في ساعة الغداء الإداري، دخل أصدقاء أحمد محل بيع العتيقات واحداً واحداً.

أدار محسن نواب حمالة مفاتيحه الجديدة، التي تتدلى منها جمجمة، حول أصبعه وقال: «إنشاء الله نأكل أرزّ عرس؟».

فسأل ايزدپناه: «عرس من؟».

غمز نواب للصحاب: «شخص جنابكم العالي! إن فريده مير بلوكي وقورة عفيفة جداً، عندها عائلة جيدة، وأهم شيء (ورمى حاملة مفاتيحه إلى أعلى وأمسك بها في الهواء) جهازها، وفقاً لحسابات العبد لله وعياله الدقيقة، سبعة ملايين تومان[١٦] بلا جدال!».

صفق مستوفي يديه: «أحسنت! هذا ما يسمونه الارتباط العاقل. أنا لست غير راض عن زوجتي ولكن ما الفائدة (رفع سبابته إلى أعلى) ينبغي أن يكون للمرأة جهاز».

رأى أحمد في المرآة البيضوية المقابلة وجهه المتعب، نظر إلى الأرض وفكر هاهي النتيجة. ليس للأحلام والرؤى الطويلة غير بويب واحد: بيت مير بلوكي القابض للفؤاد وحب شباب الآنسة ذا الصديد. ولقد عينوا سعري أيضاً. رسم خطاً برأس قلم الحبر الجاف على خشب المنضدة. من قال قليل؟ إنه لزائد أيضاً عن رأسي الفارغ. ما وضع الباقين إذن؟ كانت كل تلك الخيالات فارغة. لماذا نأتي إلى الدنيا؟ نتعذب؟ نموت؟

سأل نوابٌ تفضلي: «أتعرف فريده مير بلوكي؟».

حدق تفضلي إلى خطوط كفه: «رأيت الشقيقات الثلاث عدة مرات. أيهن فريده؟».

«أين حواسك يا أبتاه؟ الأخت الصغرى! صدقني أنها لو مدت على وجهها يداً ليست سيئة الشكل. إن جمال أغلب النساء رهين معجون الأصباغ وأعماله التمهيدية، كحجر المباني. مرة أخرى غلا الحجر الجيري، ليتني كنت حسمت الأمر في الأسبوع الماضي. يجب عدم استشارة المرأة. قالت أشرف: آجر منشور. (جمع قبضته). كنت من البداية إلى جانب الحجر. (وضع يده على كتف أحمد) أفلا ينبغي غسل البيت؟ (لم يجب أحمد) وجّه أنبوبة الماء على الحجر وانظر جيداً! بعد ثلاثين سنة يعود كما كان في اليوم الأول. منشور منجور يعني هراء (احمر خداه) يعني رمي المال الأخرس إلى الأرض. أنا لا أرضى بالحلول الوسط، إما كل شيء أو لا شيء».

نفخ تفضلي على كف يده نفخة: «نحن شخصياً وصلنا إلى اللاشيء».

نهض أحمد عن وراء المنضدة، تمشى على طول الغرفة، أمسك زر جاكتة نواب وسحبه: «لو كنت تدري أي عتيقات عندهم! سأذهب غداً أو بعد غد فأقترض بفائدة وأشتريها، ثم أقول مع السلامة».

الفصل الثامن

جاء الدكتور شقايقي إلى البيت في ساعة غير مألوفة. كانت ليلي، وسماعة الهاتف في يدها، منصرفة إلى الكلام: «من يمكنها الوقوف بوجه پريچهر؟ عندما تدخل فكرة رأسها لا يستطيع حتى الشيطان أن يمنعها. قسماً بروح أبي، توسلت إليها، قلت كفّي! ابقي هنا! تزوجي رجلاً مستقيماً! لم تعودي شابة، ينبغي أن تتمتعي بالهدوء! صدقيني وكأنني لم أقل شيئاً، صار قلبها صلداً كالصخر (وواصلت بعد صمت) لا يا عزيزة قلبي! إن الصلح منتف، لقد تحركت تحت رأس الرُجَيْل، فاأتلف مع إحدى تينك البنات السائبات المنفلتات. (جددت أنفاسها) أدري، ستتعثر، بعد سنة ستجر الجنرال إلى الوحل، سترميه بالرفسات إلى حيث ألقت. الحمار في الخمسين من عمره وقد صار حديثاً كالشبان، بتلك الرقبة الغليظة والبطن الكبير، يلبس لباس الـ«پانكيين»، يذهب إلى الـ«ديسكوتيك» فيرفس كالبغل».

ضحكت واستولى عليها السعال. قطع الدكتور الاتصال: «مات رئيس الجامعة».

ابتلعت ليلي ماء فمها: «لا يمكن! (لطمت خدها) لقد كان سالماً ونشيطاً، ولم يكن متقدماً في السن. (جلست على كرسي وأوكأت رأسها على يدها، جرت الدموع من عينيها) إلهي! أي رجل محبوب! إن الطبيعة لقاسية جداً».

ذهب الدكتور إلى المغسلة، غسل وجهه بالماء ونظر إلى وجهه في المرآة، كان لايزال شاباً ووسيماً، فكر أنه بعيد جداً عن الموت. تبسم وخرج: «أصيب بسكتة في مكانه، لقد كان يستل كثيراً من العمل من نفسه».

رفعت ليلي رأسها: «لم ينقض حتى أسبوع. في دعوة جلالي تحدثت مع زوجته. (مسحت عينيها بالمنديل) المرأة المسكينة! كانت تقول إن البروفسور لا ينام في اليوم الكامل أكثر من ثلاث ساعات، وهاهي النتيجة. المال أهم أم الحياة؟».

سوّى الدكتور شعره المرطوب برؤوس أصابعه: «الإثنان لازمان. هاتي قميصي الأسود! ينبغي أن أذهب إلى بيته! لقد اجتمع الكل حتى الآن».

قالت ليلي: «أنا أيضاً أجيء».

«حالياً ليس ضرورياً. تعالي من أجل المراسم الأصلية».

الفصل التاسع

قرب المغرب، كانت فريدة تجلس جنب الحوض البيضوي، على تخت مفروش. في متناولها كان صحن (كوفته)[١٧]، خبز حصى[١٨] ومخلل وخضرة أكل[١٩]. كانت المربية تدخن الغليون جنب مغسل الرجل[٢٠]: «كلي يا ابنتي! كي تصيري ريّانة (قطفت وردة حمراء من الجنينة، فرطتها وصبت أوراقها في كوز الأرجيلة البلوري) كان رجلاً بمعنى الكلمة جداً، منذ كم من الوقت تعرفينه؟».

وضعت فريدة اللقمة جانباً، ومن صحن الخضرة أخذت رأس بصل أخضر وعضته: «من يا دايتي؟ البصل من الجنينة؟ يقولون إن البصل مفيد. في زمان ناصر الدين شاه جاء طبيب أوروبي إلى إيران. لاحظ أن الإيرانيين لا يصابون ببعض الأمراض. وبعد تحقيقات مفصّلة عرف السبب في ذلك، أكل الخضرة، وخاصة البصل، مع الطعام».

فركت المربية وسطها: «ألا تقولي اسم السيد الفتى؟».

عبست فريدة: «أي سيد فتى؟ أعقلك في مكانه؟».

«كان نجيباً يا أماه! واضح أنه جلس على سفرة أبيه[٢١]».

ركلت فريدة مغسل الرجل برأس حذائها: «من؟ بياع العتيقات؟ إنسان واطئ. ألم تري شكله؟ واضح أنه يدخن السجاير».

نفخت المربية الدخان نحو الأغصان: «ليس عيباً بالنسبة للرجل. عينان واسعتان، حاجبان عريضان، عريض الكتفين، إن الإنسان ليغمره الاستمتاع!».

تذكرت فريدة عيني شقايقي وشعره الأسود ووجهه الأبيض: «أنت تعتبرين هذا الآدمي رجلاً؟ إذن فأنت لم تري رجلاً حقيقياً!».

تنهدت عميقاً ووضعت اللقمة في فمها. حطت بعوضة على ذراعها. قتلتها بضربة كف.

الفصل العاشر

كان صحن (خُلْدبَرِين)[٢٢] غاصاً بالناس، من الطلبة الجامعيين إلى رؤساء الإدارات، المحامين، الممرضات والموظفين. كان نعش رئيس الجامعة، مغطى بالـ(كشمير) وزهور الآس والأقاقيا. وكانت بنات المتوفى وزوجته، وراء الجنازة، يتعثرن مولولات. كانت الحافلات والسيارات تقف أمام مدخل المقبرة. في الساحة الواسعة البهيجة، تحت شمس منتصف النهار الربيعية، تحلق الحشد حول مكبرة الصوت. بدأ معاون كلية الطب الخطابة. خفتت أصوات الهمهمة. لم يعد يسمع إلا أصوات بكاء النسوة، أحياناً. وعلى فضاء الصحن مرّ سرب سنونو.

بعد بحث استغرق وقتاً وجد أحمد إيزدپناه حجر قبر أبيه ووقف أمامه. قرأ الممسوحة: باقر ايزدپناه، ابن محمود، متوفى سنة ألف وثلاثمائة وواحد وخمسين[٢٣]. سمّر بصره على القبة الزرقاء للولي، وتذكر كم بكى في مراسم دفن أبيه. كان شاباً له رؤاه، له أمنيات كبيرة. كان يؤمن بالإنسانية، الحرية، العدالة والحب. ألفاظ بقي منها اليوم قشورها. فكّر أن الحياة رحلة قصيرة، ما أن تطرف عينك حتى تصل المحطة الأخيرة. كانت شجرة التوت القديمة نخرة تصدر عنها عصارة لزجة. كان يرى أبناء المدينة غرباء بعيدين. ما كان يفعل بين هؤلاء الناس؟ ما ربط موت رئيس الجامعة به؟ عندما يدخلون بنعشه

من هذا الباب، من الذي سيبكي عليه؟ أربعة أصحاب ونصف وعمة عجوز، والسلام. سيذهب أبناء العمة ملهوجين إلى محل بيع العتيقات، ينهبون الغنائم، ولن يحدث شيء، ستطير السنونوات في السماء، سيصعد القمر في الليالي، وفي الصحراء المحيطة سيعدّل الصعاليك أمزجتهم، وسيغنون وهم يتعثرون: «أريد أن آخذ جسدك ليلة، الذي هو جسد دورق بلوري!».

سمع وقع أقدام، التفت فرأى فريدة مير بلوكي تتقدم بعينين محمرتين من البكاء. سأل إيزدپناه: «أكنت تعرفينه؟».

«نعم، عن بعد، ولكن موت الأشخاص يحملني على البكاء دوماً».

تورد خدّا الفتاة المتقدمة في السن. وكان ما تحت حاجبيها الكثين وعينيها السوداوين الدقيقتين يبرق. حسب أحمد فائدة السبعة ملايين تومان شهرياً.

سألت فريدة: «أكنت تعرف البروفسور المرحوم؟».

حدّق أحمد إلى الأرض: «أحس أنني لا أعرف أحداً».

«عجيب جداً! مثلي تماماً. أحياناً أبتعد عن الجميع، حتى أختيّ».

كان صوت معاون كلية الطب العالي يلف في الساحة: «كان المرحوم المغفور له، أستاذنا الكبير، مظهر علو الهمة، مثالاً بارزاً لهذا البيت: الغصن المملوء ثمراً يتدلى رأسه إلى الأرض. فمع مقامه العلمي الشامخ ذاك، كان ينهض لمقدم حتى صغار الموظفين.

من هو مقرّب أكثر من غيره في هذا الزمان يعطونه مزيداً من لباس البلاء»

مسحت فريدة الدموع عن وجهها بمنديل، تمخطت وحدقت إلى السماء: «أرأيت طيران السنونو؟».

هز أحمد رأسه إيجاباً، أشار إلى الحجر الأسود: «قبر أبي!».

عضت فريدة شفتها: «قبر حضرته أيضاً هنا؟ (قرفصت أمام الحجر) أريد أن أقرأ الفاتحة من أجل المغفرة لروحه».

دخل درويشٌ المقبرة، كان يحمل (طبرزين)[٢٤] على كتفه، والهواء يبعثر شعره الطويل، هتف (هو) وصاح: «سالكو عشق الحق حياتَهم أعطوا، تركوا

رؤوسهم، رحلوا عن هذا العالم. صانع كوز النبي الخضر والفرّاش المقبل وفيّ، وكلاهما فرّاش لحضرة علي، مفهوم؟ اجتناب شهوات النفس!».

نهضت فريدة، نفضت معطفها الأسود: «أتحب الكتب؟».

«في أغلب ساعات النهار أطالع».

«هنيئاً لك إذ عندك وقت، أية كتب تقرأ؟».

«كل كتاب يقع تحت يدي. ولكنني أفضل الروايات الاجتماعية والفلسفية على الموضوعات الاخرى».

«عجيب جداً! مثلي بالضبط. ما رأيك في (رومان رولان)؟».

اتسعت عينا أحمد، فرك كفيه ببعضهما: «ربما لن تصدّقي، قرأت (جان كريستوف) خمس مرات. حفظت جمله العميقة غيباً. (حدق إلى السماء) تعساً للروح التي لا ترى نفسها مثل شجرة متفتحة في الربيع حبلى بالعشق والحياة».

نظرت إليه فريدة من زاوية عينها، وهزت سبابتها: «ولكن (الواله) إنصافاً شيء آخر. انتبه إلى هذه الجملة: إن مصيرنا نحن النساء أن نحارب في السرداب. ولكنك في الهواء الطليق، على قمة الجبل..».

«تتفاوت أذواق الرجال والنساء عن بعضها».

احمرّت فريدة: «نعم، عالما النساء والرجال متفاوتان».

«النساء أكثر عاطفية، روحهن لطيفة، سرعان ما ينفعلن، أنت، في رأيي، لابد هكذا!».

عضت الفتاة متوسطة السن شفتها، من جذر الزغب الأسود فوق شفتها نزّت قطرات عرق: «أرجوك».

رفع معاون كلية الطب قبضته المضمومة إلى أعلى: «إن المرحوم الذي جعل الله مقامه الجنة نثر، بفاجعة فقدانه غير المنتظر، وردة حياتنا الحمراء، احترقت شمعة وجوده وهانحن نحترق في فراقه، وخير شاهد لنا ومع أبصارنا الذي يغسل وجوهنا.

لم ينكسر ظهري قط من أي انكسار عدا موت أبي الذي جعلني في نصف عمر

نعم، كان لنا أباً، كل ما هنالك أن أبناءه المحترمين لم يتيتموا، لقد أحرق أفئدة نصف أهل المدينة، خاصة أنتم يا سادتي المعظمون، أيها الأساتذة والطلاب».

حشرت فريدة يديها في جيب معطفها وهزت رأسها: «إنني أحب الوحدة أكثر، لست من أهل التزاور».

وضع أحمد يداً على صدره:

«عود فؤادك على الوحدة إذ من الأجساد تصّاعد البلايا»

«كم كلامك مثقل بالمعاني!».

رفع أحمد كتفيه: «من لطفك».

حدقت فريدة لحظة إلى عينيه، وسألت بتوسل: «إذن فلستُ مخطئة؟».

حدق الرجل إلى تموج غطاء رأسها في الريح.

قال الدرويش من بعيد: «إي والله! السجود هو قبول طارقي درب اللقاء الخالد! انتهاء الرق، النحيب الموجوع علم صاحب الزمان ذاك. كل من هو عدو لشيعة علي العمراني، كل من هو عدو للسادات الهاشميين، قلنا من أجل فنائه (هو)، كل من أحبنا نحن الفقراء قلنا من أجل بقائه (حق)!».

اقترب شحاذ عجوز من فريدة وأحمد. أخرجت فريدة من حقيبتها ورقة عشرة تومانات قديمة فأعطته إياها. وضع أحمد فوق مال فريدة عشرين تومان. ضم الشحاذ جُمعه ونظر إلى هذين الإثنين متعجباً ومضى.

الفصل الحادي عشر

عاد الدكتور شقايقي، في حوالي التاسعة والنصف، إلى البيت. تمدد على الديوان وفتح أزرار قميصه الأسود. كان ممتقع اللون ويتصبب عرقاً. مضت ليلي إليه. جعل الرجل رأسه بين يديه. سألت ليلي: «ليست حالك على ما يرام؟».

لم يجب الدكتور. كانت ننه قد ذهبت في إجازتها الأسبوعية. أعدت المرأة كأس شربات وجلبتها، في صينية فضية، للدكتور. نهض الرجل نصفياً وابتسم: «رأسي ثقيل كالجبل. في مراسم الأربعين أيضاً لا يكفون عن البكاء والنحيب. إن أمثال هذه الشكليات تفقدني الصبر، اضطررت أن أتخذ أربع ساعات بطولها شكل من ماتت أمهم. الجميع كانوا يتظاهرون. صار معاون كلية الطب بديله، لكثرة شطارته. إنه يستخرج من الماء زبدة. في فوضى موته، مع الصخب والضجيج، انتزع الدور من أيدي الآخرين. (نظر متعباً إلى النسخة الزائفة للوحة (ملاحو الفولكا)، أوجع انعكاس الإطار العريض المذهّب عينيه، فضم جفونه وتنهد) كان ثمانون بالمائة من الجامعيين يقولون «كان الدكتور شقايقي هو اللائق بهذا المركز».

عقّبت ليلي مسير نظرة الرجل؛ كانت ألوان اللوحة تلمع، كان شيوخ منحنون، والأيدي معقدة، يسحبون الحبال: «أنا شخصياً سعيدة. ألم يصر مصيره عبرة لك؟ (نهضت وأخذت مظروفاً عن الرف، وتقدمت مبتسمة) ضع الغم والغصة جانباً! تعال نتسلّ قليلاً (أخرجت بطاقة دعوة من المظروف ووضعتها على الطاولة. كان على أعلى البطاقة طائران ذهبيان مربوطين بسلسلة أحدهما بالآخر) دُعينا إلى حفل عرس».

جعل الدكتور يداً حائلاً أمام عينيه: «اجعلي النور هنا أقل! فكم مصباحاً نحتاج؟».

أطفأت ليلي الثريا، ركعت جنب الديوان، رفعت البطاقة وقرأت بصوت طنّان: «يحتفل الآنسة مير بلوكي وأحمد إيزدپناه ببدء حياتهما المشتركة. حضوركم أيها الأعزة باعث افتخار».

ابتسم الدكتور وقطب حاجبيه سريعاً، تحت ضغط الألم: «الآنسة مير بلوكي؟ كنت أعرف ثلاث شقيقات بائرات. ليطرش الشيطان، الواحدة أجمل من الأخرى! العروس منهن؟».

تناولت ليلي يد زوجها وداعبتها، راح الزغب الخشن على الأصابع يتحرك

إلى أمام وإلى وراء. صارت حلقة الزواج البلاتينية ضيقة عليه: «المسكين إيزدپناه! قبل زواجنا، كان يتسكع حولي كثيراً. يحمر ويخضر، يتأوه. وذات مرة أعطاني رسالة بيدي أيضاً. ألقيت بها في جدول الماء».

ضغط الدكتور على صدغيه برؤوس أصابعه: «وأي جمال كان لك؟».

فنعّست ليلي عينيها: «سل نفسك!».

«سألتها، ألف مرة. ولكنني لم أجد الجواب بعد».

تركت المرأة يد الرجل: «كانت مزحة مسيخة!».

حدق الدكتور إلى السقف: «ينبغي دهن البيت. تعكر لونه، من دخان التدفئة، شيئاً ما. لا شهية عندي الليلة. أعدي لي (دوغ)[٢٥] فقط. (أمسك بالبطاقة بين أصبعين) ماذا جرى حتى يدعونا؟ لابد أن العريس يريد أن يثير غيرتك».

ابتسمت ليلي: «أشرف هي التي جلبت بطاقة الدعوة. الرُجيل أصلاً لا يدري. يريد الجميع على نحو من الأنحاء أن يذهبوا إلى هذا الحفل. لابد أن رؤية الآنسة مير بلوكي في لباس العرس الأبيض مسلٍ».

«أية أشرف تقصدين؟ تلك السمراء المملوحة؟ أم امرأة مستوفي المتهالكة؟».

اسودت نظرة ليلي، أجابت بصوت مرتعش: «امرأة مستوفي! لقد بنوا بيتاً جميلاً، لم يبق إلا حجر واجهته. (أخذت توقع على زجاجة الطاولة برؤوس أصابعها) أعيناك وراء أشرف ساغرواني؟».

داعب الدكتور منفضة السجاير الأبنوسية: «إه.. بابا! أي خلق لك! وسطها الأعوج المائل ليس سيئاً. (قفز من فمه) ولكن اللعينة لها عينان جميلتان. خاصة عندما تحدق إلى المرء».

ذهبت ليلى إلى المطبخ. أعدت، متعبة، الدوغ، وخرجت والكأس في يدها. لم يكن ثمة أثر من الدكتور. مرت على غرفة النوم. كان الرجل متمدداً، وجبهته المتعرقة تشع في نور القمر. وضعت ليلى كأس الدوغ على

خزانة السرير ، وخرجت على رؤوس أصابعها . قريباً من النافذة ، جلست وراء الطاولة . أخذت علبة الورق . أخذت الفأل ثلاث مرات . فتحت البويب . كانت منهارة الفؤاد من الجوع . التجأت إلى المطبخ . كانت الرفوف البيض ، والأرضية الخشب والطاولة المعدنية ، تحت نور مصابيح النيون ، بنظافة غرفة عمليات . شوت قطعة خبز ، أكلتها مع قطعة باردة من لحم صدر دجاجة وزيتون أخضر ، وهي واقفة ، وعادت إلى الصالة . من البويب نصف المفتوح كان خفاش قد دخل وراح يدور . صرخت المرأة ، ضغطت يدها على فمها وتمترست وراء كرسي الراحة . حط الخفاش بين طيات مظلة المصباح ذي الأرجل . خرجت ليلي من حمى الجدار ، باحتياط . رفعت الورق ونشرته على الطاولة . كانت تلتفت أحياناً وتحدق إلى عيني الخفاش البراقتين السوداوين وجناحيه المرتعشين . اقتربت من المصباح وهمست: «لا تخف مني! لا شأن لي بك». هز الخفاش مجساته ، فابتسمت المرأة .

الفصل الثاني عشر

كان حفل العرس في منزل نواب . بعد انتهاء الوليمة ، جلست العروس والعريس داخل «بنز» أبي صاحب البيت . وهي سيارة براقة سوداء كان لها ، في اعتقاد فريده ، أبهة خاصة؛ وقد زينت بأقحوان أبيض . منعت العروس التزمير بشكل مؤكد . دارا ، أمام سيارات الأصدقاء والأقارب ، في صمت مطبق ، في المدينة . وبعد منتصف الليل بساعة دخلا المنزل . كانت المربية تجلس قريب الباب ، والنعاس يغلبها . بمجرد دخولهما نفخت رماد المنقل . ورمت على آخر الجمرات قبضة سذاب . كان البيت خالياً ، وكل المصابيح مضاءة .

أخذت فريدة أحمد إلى أبيها . كان الشيخ جالساً ، في النور المعشي ، منتصباً مرتّباً ، داخل كرسي الراحة ، وقد تدلى ذراعاه ، وغطت بطانية مربعة ساقيه النحيفتين . كان يحدق إلى زاوية السقف بعينين كدرتين . لم تكن أذناه تسمعان ولا يتذكر أحداً ، وقد تهدّل شعره الأبيض الأشعث على كتفيه .

ركعت فريدة عند ساق الأب. قلدها أحمد. هز الشيخ يديه المليئتين بالعروق والأعصاب كجنح طائر. ضغطت فريده خدها على البطانية الخشنة وقبلت ركبة أبيها: «ادع لي ولزوجي!».

رفع الشيخ رأسه إلى أعلى، وحدق إلى مظلة المصباح، ثم رفع يده وأشار إلى النور الأبيض، تحركت شفتاه، وقال بصوت مرتعش: «سوچ!». ،

نهضت فريدة باكية وغطت وجهها بيديها، وخرجت من الغرفة راكضة. قالت لأحمد في الصالة: «لقد دعا لنا».

خفض الرجل رأسه وعذبت رائحةُ عطَن أنفه. ذهبا إلى الحديقة. مرا من جانب حوض الماء، ظلال أشجار التوت والتفاح والكرز، تحت ضوء القمر. رفعت فريدة التنورة الساتان الأبيض، وضعت قدماً على السلالم الآجرية، ودخلا غرفة مضاءة بنور النيونات، كانت الجدران البيضاء، المصبوغة حديثاً، قد انتفخت في الزوايا. كان السرير الحديد، تذكار زواج أبي فريدة وأمها، بإكليله العنابي المقوّس والغطاء المخملي المورد، في صدر الغرفة. من داخل خشب التسقيف كانت الأرضة تعبر ويسمع صوت تفطر خفيف في الصمت. على خزانتين خشبيتين كان مصباحان يضيئان. وكان تصوير حائل لأم العروس، لابسة چادر صلاة[٢٦]، غائرة العينين ويدين مُعْظمتين، وخدين غائرين وفكين كبيرين بارزين، وسط زهور من قماش أبيض، يبتسم لهما. وقرب السرير كان طائر مالك الحزين مملوء قشاً، يتكئ بقبضته على الطاولة وقبضته الأخرى معلقة في الهواء، يفتح جناحيه، طويل المنقار، يستهدف السقف، زجاج عينيه يُلهب، يتهيأ للانطلاق نحو العريس.

أزاح أحمد ستارة السرير الثقيلة. تمدد بالطقم الأنيق على الغطاء المخملي. وضع يده تحت رأسه وحدق من البويب إلى القمر. من وراء جدار الجيران جاء وقع أقدام، وسعل رجل، واصطدم رفش بصخرة. كان أحمد متعباً. أزعج نور النيونات الساطع عينيه. فكر بمراسم العرس. كان المجلس محترماً، بدون تبذير إضافي، والطعام لذيذاً ووافراً. كانت السيدة صنعتي، المشهورة

في المدينة، قد أعدت الكيك وزينته بشوكولا مبشورة، وفستق أخضر وزهر قداح. كان أبناء العمة يتصببون عرقاً بفعل الحسد. كانت صحون الرز بالباقلاء المزعفرة قد صفت، بين صحون الدجاج المشوي، بوفرة، على المائدة. كان قد أكل قليلاً وقد استولى عليه الضعف الآن. كانت زوجة مستوفي تلبس قميصاً عجيباً، درعاً ضيقاً مغطى من أعلى إلى أسفل بفلوس وخرز ذهبية. كان أصدقاء أحمد مسرورين ويسعون لإحماء الحفل. نبه نفسه إلى أن عليه أن يقدر الناس حق قدرهم. اختفى القمر وراء الغيم. دخلت رائحة فضلات الدجاج والخبز المتحمض، مخلوطة بعطر الزهور، من البويب، بين النافذتين المفتوحتين كان زغب أشجار البلانيرة المائية(٢٧) يجول. أخذت حنجرة أحمد تحك، سحب نفساً، وقال هامساً: «هكذا إذن» خلع حذاءيه اللماعين مدببي الرأسين، حرك أصابع قدميه. كان الجار، وراء الجدار، منكباً على حفر الأرض. كانت أنفاسه مسموعة على البعد. كانت ضربات الرفش تفتت الطين الجاف.

ظهرت المربية عند عتبة الباب وابتسمت ابتسامة غامضة. نظرت إلى السرير وتزيينات الغرفة بفخر. مضت فريده إليها، قبلت جبينها، أشارت إلى تصوير أمها، وبعد مناجاة، بكتا معاً. ضرب الجار الجدار بالرفش. تذكر الرجل أنه في الأسبوع الفائت، عندما كان يعبر الشارع العريض، كان قد رأى بين كوم الآجر والإسمنت قطعاً ملونة من قيشاني كان يرفع لسنوات جسد طاووس على جدار بيت عقيد الجندرمة نبوي، بمباهاة. ثقلت أجفانه ورأى في الحلم أنه يدلي دلواً بلا قعر في بئر. عندما فتح عينيه كانت فريده جنب البويب. كانت بدلة العرس البيضاء، على ظهر كرسي، تتماوج تحت النسيم. كانت العروس ترتدي بنطال جين سميكاً وقميصاً من الكودري طويل الأردان، تمتمت بدعاء ورمت قلم حبر جاف أبيض علامة پنتل نحو شجيرات البقم التعيسة.

شهريور ١٣٧٠

= أيلول ١٩٩٢

الحواشي

(١) في التقويم الرسمي الفارسي، الذي يبدأ بسنة الهجرة النبوية ولكن شهوره شمسية، ولذلك يسمى بـ(الهجري الشمسي). وتعادل هذه السنة سنة ١٩٨٧.

(٢) Alder

(٣) (Travertine)

(٤) Summac Stone

(٥) مختصر: مؤسسة الأمن والاستعلامات الداخلية، وهي جهاز الأمن طوال أكثر من نصف عمر النظام الملكي الإيراني.

(٦) Aspen

(٧) اسم يطلق على المرأة الكبيرة في السن، حتى الخادم، إذا كانت في موضع احترام.

(٨) مكتب رسمي لتسجيل العقود.

(٩) شاعرة معاصرة شابة، من عائلة أدبية، توفيت من إصابة بالسل في عمر مبكر.

(١٠) من الشعراء الكلاسيكيين الفرس.

(١١) من أنواع المعجنات الفارسية.

(١٢) أرومية سابقاً والآن. مدينة في شمال غربي إيران.

(١٣) أوائل مايس (مايو)/ أيار.

(١٤) السيدة، الست.

(١٥) نسبة إلى ناصر الدين شاه، أهم ملوك سلسلة آل قاجار. كان مولعاً بالتدخين والتصوير، فكان له طرز من وسائل الأول ومجموعة من منتجات الثاني.

(١٦) أكثر من نصف مليون دولار بحساب تلك الأيام .

(١٧) كريات لحم .

(١٨) خبز يُخبز في فرن تفرش أرضيته بحصى صغير .

(١٩) تمييزاً لها عن خضروات الطبخ .

(٢٠) حاشية حول الحوض ، من خارجه ، أوطأ من مستوى الأرض المحيطة ، تغسل فيها الأرجل .

(٢١) كناية عن حسن تربيته .

(٢٢) = جنة الخلد .

(٢٣) = ١٩٧٢ .

(٢٤) فأس وبلطة صغيرة على عود واحد ، هما شعار الدراويش .

(٢٥) مخيض اللبن .

(٢٦) لباس فوقاني كالعباءة ، يكون الخاص بالصلاة منه عادة أبيض اللون .

(٢٧) Plane Tree

شهرنوش پارسي پور

ولدت شهرنوش پارسي پور سنة ١٩٤٥ في طهران. كان أبوها حقوقياً من أهل شيراز، وقد انتقل أهلها ـ عندما صارت شهرنوش جاهزة للذهاب إلى المدرسة الثانوية ـ إلى مدينة خرمشهر[١]. تشتغل في سن الثامنة عشرة سكرتيرة وضاربة على الآلة الطابعة في إحدى الشركات. ثم تأتي بعد ذلك إلى طهران وتختار دراسة العلوم الاجتماعية في جامعة طهران، وفي طهران تتزوج وتضع ولداً. ينجر الزواج إلى انفصال سنة ١٩٧٣. تأخذ عملاً في التلفزيون الوطني الإيراني، وتعتقل مدة قصيرة من جانب الشرطة السياسية الإيرانية وعندئذ تذهب لمدة سنتين إلى فرنسا للدراسة، وتدرس هناك الفلسفة واللغة الصينية. كانت تكتب منذ الثالثة عشرة، ومنذ ذلك الحين حتى الآن صدرت لها عدة مجموعات قصصية وعدة روايات.

صدرت أولى رواياتها «سگ وزمستان بلند»[٢] سنة ١٩٧٦ وبعدها بسنة وجدت مجموعتها القصصية «آويزه هاي بلور»[٣] طريقها إلى المكتبات. جلب هذان الكتابان أنظار المراقبين إلى ظهور كاتبة قديرة وذات استعداد.

عادت إلى إيران بعد الثورة بقليل.

كانت تصدر جرائد عديدة حول الثورة وقريباً منها. كانت الجماعات السياسية المختلفة من أقصى اليمين إلى عمق اليسار وجذره تصدر صحفاً. وكان قسم من الناس، الذين ثار فضولهم ليعرفوا ما كانت هذه الجماعات ـ التي أطْلعت رؤوسها من الأرض فجأة ـ تقول وفيم تفكر، يشترونها جميعاً، وكانت واحدة من أولئك الناس شهرنوش پارسي پور. مع تغير الأوضاع السياسية كان هؤلاء الناس أنفسهم يضعون الجرائد التي اشتروها في جوالات ويتركونها ليلاً

أو في منتصف الليل في الطرقات الخالية أو يلقون بها في سواقي المدينة، وكانت شهرنوش پارسي پور أيضاً واحدة من هؤلاء: جمعت الصحف في جوال، وضعتها في مؤخرة السيارة ولكنها نسيت أن تلقي بها بعيداً. وبعد بضع ليال عند عودتها إلى منزلها توقفها دورية. وجد المأمورون في صندوق سيارتها كومة من الصحف الممنوعة. قضت شهرنوش السنوات الخمس التالية في السجن. بعد سنة أو اثنتين من إطلاق سراحها أصدرت رواية «طوبى ومعناي شب»[٤]، التي حظيتا باستقبال واسع وأضافتا إلى شهرتها. وبعد ذلك نشرت مجموعة قصص «زنان بدون مردان»[٥].

أحدث صدور هذا الكتاب فتنة: أُلقيت كاتبته في السجن، وبعد سنة أو سنتين من إطلاقها هاجرت من إيران. وفي الخارج صدرت لها «خاطرات زندان»[٦]، مجموعة قصصية باسم «آداب صرف چاي در حضور كَرگ»[٧]، ورواية باسم «شيوا»[٨]، ورواية أخرى باسم «عقل آبي»[٩]، وأخرى تحت عنوان «برباد نشستن»[١٠]. وتتناول آخر رواياتها المرحلة التاريخية لحكومة الشاه من البداية حتى السقوط.

* * *

اختيرت قصة «ربيع كاتماندو الأزرق» القصيرة من مجموعة «المعلقات البلورية» (١٩٧٧). في هذه القصة توجد حالة عجيبة. راوي القصة امرأة، امرأة شابة نقطة تماسها بالعالم صبي يبيع الجرائد، يجلب لها عصراً جريدة، جرائد ملأى بصور الناس، الناس الذين يشترون الأسواق ويقبلون بعضهم بعضاً أمام الكاميرا ويذهب عدد منهم بالطبع أيضاً إلى الحرب. تتحدث هي والصبي أحياناً عن «القتلة»، القتلة الذين يعجب بهم كلاهما. وعندئذ يدور الحديث عن بوليفيا وشيلي أيضاً. ولكن من هم هؤلاء القتلة حقاً؟ أليسوا هم من تسميهم مطبوعات العالم اليوم بالإرهابيين وكان الرأي العام العالمي يمتدحهم قبل ثلاثة عقود أو أربعة بوصفهم جماعات التحرير؟ فماذا جرى إذن في هذه العقود الثلاثة أو الأربعة؟ هل انمحى الفقر والتمييز وانعدام العدالة من الدنيا؟

في غرفة المرأة توجد جثة، جثة ملوكية لرجل من الأشراف مع تاج نحاس،

وبقية عزة وجلال مفقودين تسرح الآن الخنافس تحت قبائه الذي نخرته العثة، وما من عمل للمرأة غير أن ترفو ثقوب عثة قبائه. هل الناس عشاق؟ أو العشق أصلاً أمر واقعي؟

لغرفة المرأة نافذتان، تطل واحدة على بستان نضير والأخرى على زقاق مملوء ازدحاماً. المرأة ضحية تصور أحمق: لو أنها جلست إلى النافذة المطلة على الزقاق فيمكنها أن ترى أزواج العشاق. ولكن قرين المرأة هو هذا الأمير الميت الذي له شارب موقر وهيكل ضخم وكانت المرأة العاشقة حينئذ تنام إلى جانب جثته. فهل تنبأت كاتبتنا قبل نحو ثلاثين سنة بالموت القطعي لأبطال عصرهم هؤلاء؟ الأبطال الذين سيسمونهم بعد عقود بالإرهابيين، من دون أن يكون قد وقع حادث في أساس الدنيا.

وفي عصر ذات يوم يقع حادث فجأة وتدعو المرأة الصبي إلى غرفتها. وإذ أن كليهما منفعل من اللقاء الذي سيتم سريعاً، فإنهما يهيئان نفسيهما لهذا اللقاء. ولكن ثمة فرصة قصيرة فقط، من القصر بحيث يستطيع الصبي أن يصعد السلالم وتتمكن المرأة أن تغسل الكرز بحماس. يدخل الصبي الغرفة ويقع بصره على الأمير الميت؛ وهو قاتل يخص أزمنة بعيدة ولابد أنه نموذج لمن كانوا يقاتلون في بوليفيا وشيلي، ويمتدحهم الناس في أطراف الدنيا وحتى أنهم مستعدون لإخفائهم في بيوتهم. يذهب الصبي كما جاء، بلا صوت وفجأة، وعندئذ ينقبض قلب المرأة؛ ينقبض قلبها من الوحدة، ينقبض قلبها من تكرر الكليشيهات المبتذلة، من كون الإنسان أينما ذهب، لا يوجد غير شارع واحد طويل باسم عاهل تلك البلاد يصل أخيراً إلى ميدان؛ وفي وسط ذلك الميدان أيضاً تمثال لابد أنه، مرة أخرى، تمثال عاهل تلك البلاد، وعندئذ كيف يمكن ألا ينقبض قلب المرء؟

تغرق المرأة أخيراً في أوهامها، وفجأة نجدها في كاتماندو. هنا، تمنحها المعنوية الملموسة ملجأ؛ المعابد، السماء، وعروق نور الشمس في تركيب من النور الأزرق لقبة المعبد وزرقة السماء.. ويستولي عليها النوم بهدوء، بهدوء.

الحواشي

(١) مدينة في محافظة خوزستان، على نهر الكارون.

(٢) كلب وشتاء طويل.

(٣) معلقات (أو مدلّيات) البلور.

(٤) معنى الليل.

(٥) من دون رجال.

(٦) ذكريات السجن.

(٧) مراسم شرب الشاي في محضر الذئب.

(٨) فاتنة، فصيحة، بليغة.

(٩) العقل الأزرق.

(١٠) الجلوس على الريح.

ربيع كاتماندو الأزرق

شهرنوش پارسي پور

تطل نافذة غرفتي على بستان كبير قديم فيه قناة، وساحة واسعة خضراء ملأى بزهور البطونية والشقائق. أرى أحياناً صاحب البستان الذي يقتلع العلف الوحشي، يبدو على البعد عجوزاً، يلبس لباساً أزرق بلون واحد ويمضي نحو الزهور بيدين مكسوتين بقفازين. يمر بالقيقب، يقتلع العلف الوحشي ويسقي النجيل ماء. عندما ينتهي عمله يخلع قفازيه ويجلس على مصطبة قائمة في جادة البستان المفروشة بالحصباء يتفرج على أزهار النيلوفر داخل الحوض.

«غرفتي غرفة جيدة جداً». لها نافذة كبيرة تطل على البستان ونافذة على زقاق مزدحم ضاجّ، وتبقى الشمس حتى قريب الظهر ضيفة على بلاط أرضيتها الموزائيك. لا أدري لماذا تولّد عندي هذا التصور الأحمق من أنني لو جلست قرب النافذة المطلة على الزقاق يمكنني أن أرى أزواج العشاق الذين يعبرون الأرصفة يداً بيد. طبيعي أنه يمكن نسبة العشق للناس بالحدس والتخمين. لا يقبّل الناس هنا في الأزقة المزدحمة بعضهم بعضاً ولا يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً. ربما كانوا يفعلون ذلك في الأزقة الضيقة جداً. طبيعي أن زقاقنا عريض يسمح بمرور السيارات وليس فيه من مكان لهذه الأعمال. طبيعي أن هذا التصور، عموماً، أحمق، ولكنني أفكر على الدوام أنني لو ابتعدت شارعين عن بيتنا سأجد كل الناس عاشقين.

«غرفتي غرفة جيدة جداً». جدرانها زرقاء وتصوير البستان يظهر في المرآة. سقف الغرفة أبيض ناصع. عندي أربع ملائكة في زوايا السقف الأربع تذرّى

أنف إحداهن. ملائكة لطيفات وسمينات لهن أعين بلا حبات. وضعت جنب النافذة مائدة مع كرسي آكل عليها عشائي وغدائي. سريري في الزاوية الشمالية الشرقية وعلى امتداد هذه النافذة المطلة على الزقاق في سريري جثة رجل ملوكي الملامح وصار جلده، من الموت، أصفر كهرياً. منذ أتذكر كان هذا الرجل ميتاً. قامته طويلة. له شارب موقر وهيكل ضخم. على رأسه تاج نحاسي له مقرنصات مثل مقرنصات قلعة قديمة ومصقول على نحو خشن، ويغطي نصف شعره الملح - فلفلي وجزءاً من جبينه العالي الأصفر. يرتدي لباساً من الأطلس وقباءاً من مخمل أحمر. طرّز حاشية قبائه بخيط أبيض بصور النيلوفر. خيوط الحاشية الأطلسية البيضاء في عدة أماكن. يضع الرجل الميت في يده خاتماً فضياً له حجر فيروز كبير. اسودت حلقة الخاتم بمرور الزمان وتحت أظفار الرجل الطويلة نسبياً مملوء وسخاً. على براجم أصابعه تلوح غضون كثيرة. يبدو الرجل، من وجهه، ابن خمسين سنة. ولكن يديه أسنّ من ذلك بكثير.

عندما أفيق من النوم صباحاً ألعب الرياضة: أقف أمام النافذة وأمارس الرياضة؛ حركات خفيفة وحرة. ثم أتنفس عميقاً وعندما أعود من تحت الدش تكون قلقلة السماور قد ملأت الغرفة كلها. وعندئذ أتناول الشاي على الطاولة جنب النافذة وأنظر إلى زهور الحديقة وأنظر أحياناً إلى الخنافس التي ترقى ساق السرير وتضيع في ثنايا قباء الرجل المخملي.

عندئذ كنت أنام إلى جانب الرجل على السرير. لم أستطع في أي وقت قط أن أغير ملاءة السرير. كان تحريك جثة الرجل مشكلاً جسيماً، لا سيما وقد كانت له مهابة لا تدع الإنسان يجرؤ على مسّه. وعندئذ كنت أضطر أن أنشر الملاءة على الجزء الخالي من السرير وكنت أفز من النوم أحياناً وأراني اقتربت، خلال النوم، وقد سقطت يدي على صدره، وهكذا يبدو لي أن الرجل ينظر بعينين مفتوحتين إلى السقف. كانت الخنافس أسوأ من الجميع، كانت تضل طريقها أحياناً فتأتي من تحت قباء الرجل إلى القسم الذي أنام عليه، وعندما تتحرك اليد أو أتنفس عميقاً تتلبث الخنفساء لحظة ثم تهرب مسرعة وأبقى أحس آثار أرجلها مدة طويلة على مرفقي. كان ذلك سيئاً جداً.

اشتريت كرسي راحة بوجه جلدي ، وضعت الكرسي جنب نافذة الحديقة ، لصق الطاولة . أنام هناك منذ وقت طويل .

في كل صباح أعطي عصافير الكناري حباً ، وأملأ ظرف مائها . أفرم الخبز للطيور ، أكنس الغرفة وأمسح الغبار فتبرق الغرفة نظافة . ولكن لم يكن ممكناً معالجة الخنافس ، والخنافس تزداد يوماً بعد يوم . اشتريت كمية من السم ونثرته بحذر تحت قباء الرجل المخملي ولكنه أيضاً لم يكن حلاً للخنافس .

الآن ، هناك كل هذه الأعمال حتى يحين وقت الغداء . مرة أخرى أجلس إلى الطاولة جنب نافذة الحديقة وفي وقت الأكل أنظر إلى ظهر الحديقة الذي يبدو فائراً . منذ العصر فلاحقاً تحين العطالة . أغفو أحياناً ، وفي أحيان أخرى أسير في الغرفة على رؤوس الأصابع ، وأحوك أحياناً وأرفو ثقوب قباء المرء في أحيان أخرى .

وعندئذ يأتي في الأعصار الصبي بائع الصحف فيرن الجرس . أعرف رنّته للجرس: يرن رنتين قصيرتين ثم دقة طويلة . أدلّي فوراً السلة إلى أسفل ويضع الصبي الجريدة في السلة . أسأله: «هل أمسكوا بالقتلة أخيراً؟» فيقول: «أمسكوا أحدهم . لم يجدوا الآخرين بعد» . كنت والصبي بائع الصحف ، كلانا ، نطري على القتلة ، ولكننا لا نقول ذلك لأحدنا الأخرى قط ، لأنه يقال إن ذلك ليس حسناً .

إن الجريدة شيء جيد حقاً . يمكن القول إنه لو لم تكن هناك جريدة لما كان هناك صبي بائع صحف وإن لم يكن هناك صبي لما كان يمكن أن تكون دنيا . ما أدراني حقاً بما يجري . إنني أرى أحياناً سيارات تمر ، مبوقة ، من الزقاق ، أو أناساً يروحون ويجيئون متفرقين ولا يمكن أن يعرف المرء ما إذا كانوا عاشقين أم لا . من أين يمكن الآن أن يفهم المرء إن كانت هناك حياة؟ ولكن الصحيفة ملأى بالناس ، ناس يشترون الجديد ، ناس يقبلون بعضهم بعضاً أمام الكاميرا وتنشر صورهم في الصحف ويذهب عدد إلى الحرب . إنني أذهب بالجريدة إلى هنا وهناك ، إلى شيلي وبوليفيا ، في غابات بوليفيا أفرش الجريدة على الأرض

وأنام فوقها كي لا يلسعني قُرّاص أو ما أشبه وأنظر إلى الأشجار المتعرقة من الحرارة فوق رأسي وإلى العصارة المرطوبة التي تسيل من بدنها وتتحول قريباً من الأرض إلى اللون البني. آخذ الجريدة فوق يدي وأسبح في قناة السويس وأحرص على ألا تصيبني طلقة. قناة السويس على النحو الذي كانت عليه في فيلم لورنس العرب. وفي سيبريا ألعب التزحلق وفي فيتنام أضع المرهم على جراح الجرحى وأسدّها بالجريدة.

الجريدة هكذا، وفي بعض الأحيان قبل أن أشتري الجريدة أتحدث إلى الصبي قليلاً. أتذكر أنني سألت الصبي ذات يوم في أواخر الربيع: «ماذا هناك في السوق؟» فقال: «جاء الكرز»، قلت: «أتشتري لي؟» ودلّيت له مالاً. اشترى لي الصبي كيس كرز وأرسله إلى الأعلى في السلة. وفي إحدى المرات خطرت لي فكرة. قلت: «أتصعد تأكل كرزاً؟»، فذهب الصبي نحو الباب. شددت حبل الباب وغسلت الكرز بحماس. وفيما كان صوت أقدام الصبي يقترب كانت حركاتي تزداد سرعة وقد اشتدت قلقلة السماور. ثم رأيت وجه الصبي الخجول من بين فتحة الباب نصف المفتوح وفتحت الباب. بقي ينظر إلي وقتاً بحياء وفضول وأنا أتفحصه، وأتفحص أحواله. مضى زمن لم أرَ فيه إنساناً عن قرب. كان له وجه أحمر جبلي، ولايزال خداه السمينان يابسين من برودة بضعة الأيام السابقة. كانت عيناه خضراوين تميلان إلى الزرقة وشعره بنياً وقد سقطت خصلة شعر على جبينه. كان شيئاً يشبه ملائكة زوايا السقف، وكان اختلافه أن الدم يتماوج تحت جلده وأنه يمكن فهم ذلك بيسر. قلت: «ادخل، اجلس هناك». مضى على نحو أخرق إلى الكرسي وجلس عليه، كان ينظر بعينيه المستطلعتين إلى ملائكة السقف. قلت: «تشبهك، لا؟» عندئذ أدار وجهه الذي احمر خجلاً نحو الحديقة ونظر إلى الزهور. وضعت سلة الكرز أمامه وجلست على نحو بحيث لا يقع نظره على الميت وضحكت بوجهه. كانت قطرات الماء تنحدر عن الكرزات وكان لونها الكبدي البراق يكتسب تلألؤاً محيراً في ضوء العصر وكان كل شيء أساساً محيراً وكنت أظن من المحتمل، لو أستطيع أن أبتعد

عن البيت بزقاقين، أن يكون الجميع بالتأكيد «ختماً» عاشقين. فلت: «ها، أتحب القاتلين؟» أيد برأسه. قلت بحماس: «أنا أيضاً كذلك. إن كانوا يريدون فأنا مستعد لأن أخفيهم في بيتي. أتعرفهم؟» رفع رأسه إلى أعلى بمعنى لا وعلى هذا النحو وقع نظره على جثة الميت فتييس وبدا للحظة أن السماور سيكف عن القلقلة. قلت: «حسناً، ربما كان هو أيضاً ذات يوم قديم بعيد قاتلاً لو أننا، أنا وأنت، كنا حينئذ موجودين لكان بمقدورنا أن نحبه». وقال الصبي، ومازالت عيناه مسمرتين: «اغفري لي أنني بالحذاء المطين. . . » فقلت: «وما يهم، تعال الآن كل كرزاً». ودفعت السلة نحوه، ثم ذهبت نحو النافذة الصغيرة كي أجلب ما لا أدري أي شيء لعين إذ عندما عدت كان قد رحل.

قلت هذا كي يصير معلوماً لماذا ينقبض قلب المرء أحياناً. طبعاً أحياناً يكون هكذا ولا يأتي ضيف لزيارة المرء فيكون المرء وحيداً جداً. وفي أحيان أخرى لا يود المرء أن يأتي أحد ولكنه مع ذلك ينقبض قلبه. أنا أصير هكذا أحياناً. أجلس ساعات على المصطبة وأحرك سبابة رجلي وأنظر إليها وفي أحيان أخرى أسير في الغرفة ساعات، حتى أنه يجب أن أعترف أن الجرائد لم تعد قادرة أن تضع شيئاً في أمثال هذه الأوقات، إلى أي بلد يذهب المرء يجد أولاً شارعاً طويلاً باسم ملك ذلك البلد، ثم ميداناً وفي وسط الميدان تمثال. هذا هو السبب في أن المرء لا يرى شيئاً جديداً فينقبض فؤاده أكثر. جاءني أحد انقباضات القلب السيئة جداً جداً في مغرب أحد الأيام عندما كنت ذهبت إلى كاتماندو. قرأت شيئاً في الليل عن كاتماندو، عن معابد كاتماندو. كان مراسل الجريدة قد كتب أن في كاتماندو هذا العدد من المعابد وذلك الشيء وهذا وذاك. نمت ليلاً وعندما حل الصبح كنست الغرفة وأفطرت وأعددت الغداء وأكلته ثم، جاء الكسل الأحمق بعد الظهر ونظرت ألف ساعة إلى سبابة قدمي ورحت أحركها بين وقت وآخر. عندئذ أخلى الكسل مكانه للتخيل فذهبت إلى كاتماندو. كانت كاتماندو فوق جبل مرتفع ومقرنصات جدران معابدها تلتصق على البعد بالغيوم. كنت وناس كثيرون نصعد بمشقة إحدى الجادات. نسي المراسل أن يكتب كم يستغرق

ذهاب المرء من الجادة إلى المدينة. كان المراسلُ قد نسي أصلاً أن يكتب شيئاً عن الجادة، وكانت الجادة مبهمة ملتفة وجبلية لأن كاتماندو مدينة جبلية. كان الوقت ظهراً والهواء ثقيلاً والعرق يسيل من جسدي كله وتبدو كاتماندو مثل سراب بعيد.

ثم وصلنا كاتماندو. كانت بالضبط ذلك الشيء الذي يمكنها أن تكونه. لا أستطيع التنبه إلى التفاصيل. لا طاقة لي على هذا العمل خارج البيت. كان لكاتماندو شارع طويل أصلي سمّي باسم ملك كاتماندو وفي آخر الشارع ميدان فيه تمثال عاهل كاتماندو. كان صحيحاً ما كتب المراسل: المدينة ملأى بالمعابد، رأيت بعض المعابد ثم ذهبت إلى معبد له باحة أرضيتها مرصوفة بالحجر، كبيرة جداً، وقد برزت الخضرة من بين الحجر. كان للمعبد قبة وبضعة منائر وللناس وجوه مبهمة. في الحقيقة لم أدخل أياً من المعابد، كنت أدخل باحاتها فقط، وكنت أفكر أن داخل المعابد يشتعل العود حتماً وأن ثمة رجلاً يجلس في زاوية يتلو شيئاً وربما تكون جثث بعض الموتى مودعة في الأروقة أمانةً. كان يحتمل أن تكون هذه الأشياء وقد تمددتُ على حجر الباحة، كنت متعبة بلا حدود وقد عرقت الجريدة في يدي. فوق رأسي كانت القبة الزرقاء السماوية لعصر كاتماندو وسقف سجني والمعبد. كانت السماء زرقاء زرقاء، وفي الغرب تنفذ عروق نور الشمس وفي تلفيق ضوء قبة المعبد الأزرق وزرقة السماء ونور الشمس تبدو عروق بيض تصل أحياناً إلى وسط السماء وقد غرقتُ في النوم في كاتماندو في ذلك الوضع.

منيرو رواني پور

ولدت منيرو رواني پور سنة ١٩٥٤ في بوشهر، الميناء على شاطئ الخليج الفارسي. وقد صدر لها حتى الآن ثلاث روايات، خمس مجموعات قصصية وعدد كبير من كتب الأطفال.

درست في جامعة شيراز علم النفس، وابتدأت نشاطها الأدبي الجدي سنة ١٩٨٩ بإصدار «أهل غرق»[١]. لقد ربى جنوب إيران كتاباً متمكنين؛ فچوبك وگلستان ومحمود ثلاثتهم رواة الجنوب؛ ولكن رواني پور - في مزج معنوي بين الخيال والأساطير ومعتقدات أهالي هذه المنطقة - لفتت أنظار قراء الأدب الفارسي المعاصر إلى أراض بكر لم يكن لها قبل ذلك مكان في كتابتنا القصصية.

* * *

انتُخبت قصة «سفينة المنكسرين» من مجموعة «زن فرو دگاه فرانكفورت»[٢] التي صدرت سنة ٢٠٠١. هذه القصة هي رواية حديث معروف. حديث أولئك الذين يأخذونهم دائماً من أجل سؤال بسيط واحد فقط ثم لا يعيدونهم أبداً. أو إذا ما أعادوهم، فإنهم يعيدون جنائزهم، حاملة حفراً حمراء على صدورها أو ضائعة الدماغ. وفي بعض الأحيان يكون حتى هذا غير موجود. يدلونك على قطعة تربة مبللة وبارزة في مقبرة بعيدة ويقولون: هذا هو!

وأنت لا تصدق أبداً. إن إدراك هذه الوحشية الواضحة لا يقدر عليه ذهن الإنسان. وكم هن الأمهات اللائي قابلن في وطني، في هذه السنوات، هذا المرتفع الترابي، من دون أن يؤذن لهن حتى بأن يضعن حجراً لتعليمه ويحفرن عليه اسماً؟! إن هذه ليست قابلة للكتابة، مجرد إحساس صدر عن غضب وحزن يرتسم على صفحة الورق في زمن صدأت عقارب ساعته.

ولكن كيف يمكن عدم الكتابة في حين لا يمكن للتاريخ أن يحاكم إلا حين لا يعود محكومٌ موجوداً؟ فنحن نكتب إذن. إننا نكتب قصصنا، ولهذا السبب يخاف أولئك إلى هذا الحد من القصص.

«وكان البحر الآن مملوءاً بالموتى الذين مضوا بمجرد هذا السؤال البسيط ثم لم تلامس أقدامهم اليابسة قط».

نعم، هو ذاك!

الحواشي

(١) أهل الغرق .

(٢) امرأة مطار فرانكفورت .

سفينة المنكسرين

منيرو رواني پور

فكرت أن تكتب: «كانت المرأة تجلس في السرداب». ولكنها لم تكن قد رأت سرداباً. كان يجب أن تكتب في ممر أو مكان انعقد الملح على جدرانه ورطب بسفع البرودة التي للجزيرة ورياح شهر آذر[1]، ثم تذكّرت أن شهر آذر في الجزيرة ليس بارداً كثيراً وأن الجو لا يتلحلح إلا من أول شهر دي[2] فيتخلص من الحرارة والشرجي[3]. كان يجب أن تكتب شهر دي وأربع شموع مضيئة في تلك الغريفة المظلمة أو القبو الذي لابد أن يكون مبللاً، لأنك في كل مكان تكون من الجزيرة وتحفر ولو شبراً واحداً يصعد الماء. كانت الجدة المدفونة في هذه المقبرة القديمة ذاتها، تقول دائماً: «كل شيء هنا متجه إلى الماء، كل شيء، إننا نكتفي بأن نسلي أنفسنا بأننا نعيش فوق الأرض». كانت الجدة تقول حقاً، ليس للجزيرة أرض يابسة، وإذ يكون الموقع سرداباً فلا شيء بعد. لابد أن أرضيته مبللة. والسقف مشروخ والجدران مغطاة بالملح.

كان يمكنها أن تكتب أن المرأة كانت وحيدة ليس عندها غير سرير خشبي وبطانية التف في داخلها واحد ما. وكانت البطانية جديدة، جديدة، مربعة بالأبيض والوردي. في مثل هذه الأوقات عادة ما يأخذون أفضل الأشياء وتصير البطانية البيضاء والوردية بعدئذ مطينة. يلتصق بها التراب والطين، وترسم فوقها قليلاً قليلاً بقع الدم مثل سرطان يمد مخالبه متوسلاً في كل اتجاه. السرطان، سرطان يريد أن يهرب، يهرب من كل طرف. سرطان التاث عقله، يمد مخالبه

من كل ناحية ويبقى في مكان واحد. فجأة، على البطانية وتمتد مخالبه فقط فتبلغ حاشية البطانية الوردية. بطانية ان لم يكن كَلستاني قد ربطها بمكان ما، بشجرة مثلاً، لابد أنها ستصير مطينة، أو دامية، يختلط الطين بالدم عليها. لأن كَلستاني لابد قد وقع بعدها، انطوى أولاً على ركبتيه، ثم أراد أن يبقي نفسه واقفا فحصده رشق الرصاص التالي الذي يشبه قلب العاصفة الذي يُسقط شجرة، ثم اهتز مثل صقر ثم فتحتها يد، وفيما كان كَلستاني منحنياً على ذلك النحو سقط على رأسه فوق الأرض ثم تناولت يدان رجليه وتشبثتا بها. تشبثتا بها وأخذتاها إلى زاوية كي تربطا الشخص التالي بالشجرة. الشجرة التي صارت تفغ منها رائحة البارود، التي كانت منذ وقت طويل تعطي رائحة بارود. ولكن أية شجرة، أية شجرة ضخمة توجد في الميناء يمكنها أن تصمد؟ النخل لا يستطيع حتماً، سيتسوى حسابها مع أول شخص وأول رشقة رصاص، وشجرة سنط الحرير لا تسمح لك قط أن تربط بجذعها شخصاً وتقتله. لقد رأت الجدة قبل أن تموت بعشرة أيام، بعينيها، أن شجرة سنط حرير الميدان، مثل امراة صاحبة عزاء، اقتلعت نفسها من الجذر وهي تعول، وذهبت باتجاه البحر كي تُغرق نفسها.

لم يُعرف من الذي ضرب البجع، ولكن البجع في قوسه ذي المأتم طار عن شجرة سنط الحرير فكانت الجدة تقول لابد أن قطرة دم سقطت من فوق على الشجرة.

نهضت. لم تكن تريد أن تفكر بالجدة والذكريات التي لا تتركها قط. ينبغي أن تكتب القصة، قصة السرداب، ولا تفكر بشيء لا بالجدة ولا بشجرة سنط الحرير ولا بنخل الجزيرة الذي لم يعد في روحه رمق. ولكن لم يربطوها بالنخل حتماً، لم يكن بمقدور النخل أن يتحمل، حتى لو كانت تلك مرته الأولى، لا، وثمة طرق أخرى أيضاً، كان بإمكانهم مثلاً أن يضربوا أولاً على رأسها، فيفقدوها الوعي ثم يشدوا يديها من وراء وينيموها بطولها على ظهرها

فيضربوها مستقيما في قلبها، وإن كانوا ضربوها في قلبها لا تعود طلقة الخلاص لازمة، لم تكن لازمة حتماً . . .

لم تقل السيدة كَلستاني شيئاً، قط، كانت ذاهلة دائخة. لم تكن كلمات السيدة كَلستاني المقطعة تنفع درياري. ولكنه كان واضحاً كالنهار أن إنسانة مثل كَلستاني لا تترك يديها ورجليها تربط ويخيطونها على الأرض، لابد أنها قاومت وتقاوت وتلوت على التراب فضربوها على رأسها وهذا هو، وهذا ما يدل على أن البطانية لابد أن تكون مطينة.

تناولت سيجارة. خلف النافذة كانت السماء سوداء والريح تلتف في النخل. كان للريح رائحة غريبة، كانت بعيدة وقريبة، وكان شيء، شيء ينطوي أمام ناظريه. كما هي الحال عندما كان النسيم يملأ وشاح الجدة الحريري، وفي وشاح الجدة الأخضر. تهرأت السيجارة. كان فتات التبغ معلقاً باتجاهه. اقترب من النافذة. سمع خشخشة الأصوات، كما لو أن عدداً من الناس يفرغون التوابيت متكتمين خائفين. كما لو أن بعضهم يرشون في الظلمة، وفي أيديهم المساحي، التراب على القبور. كما لو أن كل شيء مستمر، كل تلك الأشياء التي بدأت بعد وفاة الجدة بستة أشهر. كانت الجدة قد قالت: تعال ليالي الجمعة، في أيام الأسبوع يذهب الموتى إلى البحر، ولا تصح قراءة الفاتحة على القبور الخالية.

نظر مذعوراً إلى التقويم على المنضدة. ارتاح. كان مساء الإثنين. إن كل موتى المقبرة الآن، حتى أولئك الذين دفنوهم ليلا بعد السيد كَلستاني، على البحر. لم يكن الآن أي ميت في مكانه، فالموتى لا ينامون في قبورهم إلا عشيات الجمعة ويكونون طوال الاسبوع في البحر، في عمق المياه الخضراء، حيث يمكنهم أن يبحثوا، دون خشية أو خوف، أن يتكلموا، وأن يصرخوا ما تشاء لهم أفئدتهم. إن الجزيرة آمنة الآن، وليس في الظلمة خوف ويمكنه أن يكتب قصته مرتاحاً. بدون أن يخاف السيد كَلستاني ويديه النحيلتين الطويلتين اللتين تمسكان من داخل الظلمة حافة النافذة فيصعد لينظر في الأوراق ويقول:

«يا بنت، هذا اللغو لا يناسب هذا الزمان». فتجيبه: «إيه يا سيد كَلستاني، ليس شرطاً أن يفكر الجميع مثلك . . ».

الآن مساء الإثنين والمقبرة لا تخيف. ها يمتلئ البحر ذات يوم أو ذات ليلة بالموتى وتخلو الجزيرة من الحياة، حتى يعود الموتى أخيراً مرة أخرى إلى بيوتهم، ولم تكن حيواتهم أيضاً مثل الآن، كانت الجزيرة ما تزال ملأى بالأحياء وكان بمقدورها أن تكتب مرتاحة دون أن يكون لها شأن بخرافات الجدة. عليها أن تتمسك الآن بالقصة، وتملأ الورقة التي ما تزال بيضاء.

حسناً، كانت المرأة جالسة في السرداب . . . بأية حال كانت المرأة يمكن أن تكون هذه اللحظة؟ في الليل يعودون قبل الدعوة، كانت المرأة قد قالت: «كنت أبحث في حقيبتي عن المفتاح حين خرج شخصان من الظلمة وقالا: «يا سيد كَلستاني من فضلك عندنا سؤال بسيط». وأخذوه.

لقد سمعت هذا في وقت متأخر من المساء، ذات مساء بعد الحادث عندما ذهبت إلى بيت كَلستاني سمعته من السيدة كَلستاني. لم يعد يمكن أن تسأل عن تفاصيل ذينك الشابين، يعني أن السيدة كَلستاني قد نسيت الوجوه تماماً. ولكن يمكن، على أية حال، القيام بأمر ما، فقد كانا مثلاً في الظلمة، أيديهما في جيوبهما وياقتاهما مرفوعتان إلى أعلى من لسع برودة شهر دي، يتكئان بالجدار، يبدو عليهما الانتظار.

حاولت أن تجعل السيدة كَلستاني، بتينك العينين المتعجبتين والواسعتين، والشفتين الرقيقتين المنضغطتين على بعضهما، تنطق ولكنها لم توفق.

في اليوم التالي تشتري السيدة كَلستاني، مثل المرة الأولى التي أخذوا فيها كَلستاني دون سابق إنذار، بضعة كيلوات من الفواكه وتحمل طاقمي ملابس وبطانية، بطانية مربعة بالأبيض والوردي وتذهب، ولابد أنها كانت آملة وكانت مضطربة. وفي اللحظة التي يقولون لها فيها تبقى يداها في الهواء مع كيس الفواكه والملابس، مثل تمثال تتيبس باتجاه الشاب الذي قال تلك الجملة. لم تكن السيدة كَلستاني ترى حتماً أي شخص ولو لم يكن الشاب مدمناً فلابد أنه كان

سيهرب أو أنه كان سيبقى في مكانه مكشراً نحو يدي السيدة كَلستاني المتيبستين والبرتقالات التي كانت تساقط من الكيس وتتدحرج على الأرض . . . لم يكن السيد كَلستاني يحب التفاح وإلا لكان بمقدور الشاب أن يلتقط إحدى التفاحات سهلة القطاف فيعضها ثم يصرخ أحدهم ، امرأة لا تدري أين هي ومن تكون ثم سيارة حمل صغيرة والسيد كَلستاني الذي يهتز رأسه على ساقي المرأة والطريق الوعر الصخري الذي يبدو وكأنهم ملأوه بالحصى كي لا يصلا إلى المقبرة . . . كي تضطر السيدة كَلستاني أن تحتضن كَلستاني الملفوف بالبطانية كي لا يقع ، ولا يسقط من سيارة الحمل .

ثم كان الغروب ، وجميع المحال مغلقة . . .

كانت السيدة كَلستاني تقول: وحتى لو كانت مفتوحة ما كنت لآخذه ، كنت أريد أن أرى إن كان ذلك صحيحاً ، كنت أريد أن أفتح ثنية البطانية وأرفعها كي يأتي ويزيح الستائر التي بقيت نصف مفتوحة . كانت المطرقة وأخشاب الستائر علي الرف وأرضية الغرفة باقية ما تزال وكَلستاني . . . كَلستاني . . .

إن تذكر بكاء السيدة كَلستاني يعذبها . بلوعة كانت تبكي . بكاء لا علاج له ويمكنه ، كجرح مؤلم ، أن يربك فضاء السرداب المغموم .

في سيماء المرأة التي كانت تجلس قرب البطانية ، البطانية التي كان كَلستاني ملفوفاً فيها والشمعات الأربع التي كانت تشكل في السرداب ضوءاً مظلماً لابد أن الحيرة وحدها والانبهار مرتسمان ، لا البكاء الذي لا يستطيع المرء أن يجد له كلمة . وكأن هذه الكلمات تسخر من الإنسان . مثل السيد كَلستاني الذي كان يسخر دائماً: «ماذا هناك مرة أخرى بيدك الدفتر وتدونين ملاحظات ، أنت يا بنتنا يجب أن تصيري مؤرخة ، علي جبينك عدم إحساس المؤرخين وعدم غيرتهم» .

ولكن على كل حال فمهما كان السيد كَلستاني يقول ، قاله ، وعلى الكاتب أن يتابع كل شيء ، كل شيء من الأول عندما يأتي شخص ويقول: من فضلك سؤال بسيط . . .

والآن البحر مملوء بالموتى الذين ذهبوا بهذا السؤال البسيط إياه . ثم لم تلامس أرجلهم اليابسة .

اشتدت الريح . خشخشة النخل ، والقش والتراب المعلق في الهواء والهمهمة التي تلتف في الهواء . همهمة غامضة وغريبة . همس عصبي وخائف .

أمامها تنفتح النافذة في الظلام . تنصب رائحة المطر المالحة في الغرفة ، كان كل شيء مرطوباً لزجاً . كانت نافذة منزل كَلستاني مضيئة . ضوءاً مأتمياً مخنوقاً ، نوراً أصفر كأنه مات منذ سنوات يأتي إلى حافة النافذة .

أرثت سيجارة أخرى ، وحدقت إلى سواد النخل الذي يغطي المقبرة .

كن ثلاث نساء فقط . ثلاث نساء وآخرون يقفون على مبعدة ، أصابعهن على القبور[٤] ، وينظرون ، بذريعة ما - كانت السيدة كَلستاني جالسة قرب هذه البطانية المربعة نفسها التي كان كَلستاني ملفوفاً فيها حائرة تنظر إلى السماء والأرض . كانت الدنيا ضيقة عليها . ضيقة جداً . وهي ، دفتر ملاحظاتها في حقيبتها والشادر على رأسها ، أصبعها على قبر مجهول ، جالسة تنظر . عندما جاء حفار القبور اتكأ على مسحاته وبأصابع متربة ورّق الأوراق الثلاثة التي أرته إياها السيدة كَلستاني وهز رأسه . كان جاهزاً وما عليه إلا أن يزلج السيد كَلستاني إليه ويهيل عليه التراب . وكانت إجازة الادعاء العام موجودة أيضاً . ولكن حفار القبور قال: لا يمكن هذا ، كل من يأتي ندفنه ، ثم نظر إلى حذائي السيد كَلستاني الـ (أديداس) وتحسر .

رأت من هنا أن حفار القبور أخذ ورقة خمسمائة من يد إحدى مرافقات السيدة كَلستاني ثم جلس عند قدمي السيد كَلستاني وتقاوى حتى خلع الحذائين . ثم انحنى وفك بأسنانه رباط الحذاءين . لم تكن ساقا كَلستاني تحت تصرفه ، كانتا واقعتين كخشبتين جافتين . وأخيراً قام حفار القبور ، وزوج الحذاء الأديداس في يده . كان القبر حاضراً وجاهزاً .

القبور الجاهزة ، أحذية الأديداس ، حاولت أن تكتب هذه الكلمات في الزاوية العليا من التقويم ، على رأس يوم الإثنين . كانت صفحة الورق مبتلة

وقلم الحـبر الجاف يكتب معرّقاً وبلون سـيء، كما لو أنه بقي سنوات دون استعمال.

أوجعها رأسها، كان فمها مراً وعلبة السجائر على المنضدة سجائر تنفك عن نفسها بأدنى إشارة. كان السيد كَلستاني مدخناً. كان كل الموتى الذين هم الآن مجتمعون تحت مياه البحر حول بعضهم ويتكلمون، أو يجلسون في زاوية منعزلة انتخبوها لأنفسهم ويحاولون أن يعالجوا بالأعشاب البحرية أو كِسَر الأصداف الميتة مواضع جروح الطلقات، مدخنين.

رفعت القلم الجاف كي تكتب وكتبت: «رائحة الرطوبة، رائحة التفسخ وشعلات الشمعات الأربع المتساقطة على جدران السرداب المملوحة والظلال المضيئة التي تتشكل.

كانت المرأة تجلس في أعلى السرير، أوكأت مرفقها على حافة السرير وكانت شفتاها ترتعشان، كانت البطانية قد أزيحت عن الوجه والسيد كَلستاني أبيض وبلا دم ممدداً. كان فمه مفتوحاً. نصف مفتوح وصف أسنانه ظاهراً، على نحو وكأنه كان يريد أن يقهقه. ابتلع ضحكته، وكانت السيدة كَلستاني شبحا نحيلا وبلا لون».

عندما نظرت إلى صفحة الورق، لم تر غير محل انغراز طرف القلم والورقة المبللة والمرطوبة لا تزال بيضاء. نهضت متعجبة. كم هو حسن أن السيد كَلستاني لم يكن موجوداً فلا يرفع ـ بعينيه السوداوين والبرق الذي يلتمع في عينيه دائماً عندما يبلغها ـ أصابعه النحيلة والطويلة فيهزها ويقول: «إنك تخدعين نفسك، تتظاهرين بأنك تريدين الكتابة وتهربين من النفاق، مجرد الكتابة من أجل ماذا؟ إن التاريخ لا يستطيع المحاكمة إلا عندما لا يعود المحكوم موجوداً أو يكون فقد قدرته...».

كما لو أن أحداً يدق في رأسها طبلاً، لم يكن نفسها يرتفع. كانت تقف في مواجهة النافذة. لم يكن أي مكان مضيئاً. نظرت إلى ساعتها التي صدئ عقرباها. حاولت بأظفارها التي كانت طويلة وهشة أن تنظف الصدأ قليلاً.

كانت صفحة الساعة تميل إلى الصفرة، كان عقربا الساعة قد توقفا عن العمل عند الثانية. مثل ساعة السيد كَلستاني التي توقفت على الثالثة وتقويم الساعة الذي يعرض الثلاثاء الخامس من شهر دي. قالت السيدة كَلستاني: ضربوه في الساعة الثالثة، الثالثة بعد منتصف الليل، الساعات تتوقف في اللحظة التي يرمون.

والآن كانت الساعة الثانية. ولم يكن يأتي من هناك، من ذلك الطرف، من جانب ذلك البيت، بيت كَلستاني، إلا بصيص نور. . لا، لم يكن ذلك النور من السرداب، كانت نافذة كما لو أن أحدهم ترك إحدى ظلفتيها مفتوحة عمدا كي تتمكن أن تسلك طريقاً مستقيماً وتعد القبور وهي واقفة وراء النافذة باتجاه الظلمة، والقبور المصفوفة وراء بعضها، صغيرة وكبيرة وبلا نهاية.

لو أن السيد كَلستاني كان حياً كان سيجلس الآن في هذه الغرفة نفسها وراء النافذة ويقرأ كتاباً، يقرأ كتاباً ويترك إحدى ظلفتي النافذة مفتوحة، ولكن السيد كَلستاني كان ميتاً ولابد أن زوجته جلست كحالها دائماً وراء تلك النافذة وتبكي. ذلك البكاء إياه الذي لا يمكنك بأية وسيلة أن تأتي به في قصة «السرداب».

صفقت الريح المفاجئة ظلفتي النافذة معاً. خافت. من تلك الهمهمة الغامضة ومن تلك الأصوات التي كما لو أن أشخاصاً شباباً يدفعون بأيد معاقة في عمق المياه الخضراء الماءَ كي يذهبوا من زاوية إلى أخرى. خافت. بحثت عن صوت جدتها. كان الصوت بعيداً وعتيقاً: لا يستقر الموتى في أماكنهم إلاّ عشيات الجمعة. في الليالي الأخرى يكونون في البحر. ثم صوت قريب، أقرب وأعرَف. صوت أمها التي تطمنها ألا تخشى شيئاً. بقي وقت طويل حتى تخلو الجزيرة، تخلو من السكان، وعندئذ يأتي الموتى إلى بيوتهم وحيواتهم فيسكنون فيها. . .

لماذا تخاف؟ لابد أنه كان الإثنين وهم في البحر في عمق المياه الخضراء يفتحون سُفرة قلوبهم. من فوق الماء لا يسمع أحد قط أصواتهم، مهما قالوا

مهما كتبوا ولكن يوم الإثنين. . . الإثنين من أية سنة؟ حدقت إلى الظلمة وأصغت. كما لو أن شخصاً يجاهد كي يرفع نفسه إلى النافذة. نظرت فرأت يدين نحيلتين وطويلتين ومتجلطتين من البقاء سنين طوالاً تحت الماء ثم رأت السيد كَلستاني الذي سحب نفسه حتى العنق إلى وسط إطار النافذة:

«لا تزالين تفكرين بالسرداب».

نظرت إليها بيأس وعرفت أن السيد كَلستاني قد جاء مرة أخرى كي يجعلها في موته يقظى كي يقول:

«أنت هنا في عمق المياه الخضراء، مثلنا جميعاً. . منذ وقت طويل أنت هنا، يجب أن تصدقي».

الحواشي

(١) الشهر التاسع من التقويم الفارسي، يبدأ في ٢٢ تشرين الثاني وينتهي يوم ٢١ كانون الأول.

(٢) الشهر العاشر من التقويم الفارسي، يبدأ في ٢٢ كانون الأول وينتهي يوم ٢٠ كانون الثاني.

(٣) حرارة مرطوبة بنسبة عالية، لا تجف وإنما تجعل الأجساد دبقة.

(٤) كناية عن قراءتهم الفاتحة على ساكن القبر المعني.

أمير حسن چهل تن

أمير حسن چهل تن مولود سنة ١٩٥٦ في طهران، من عائلة متوسطة، درس في فرع الهندسة الكهربائية وتخرج منه. أكمل دراسته الجامعية في إيران وإنكلترا، وصدرت له حتى الآن خمس روايات وخمس مجموعات قصصية. صدرت مجموعته الأولى باسم «صيغه»[١] سنة ١٩٧٦، وطبعت روايته الأولى باسم «روضة قاسم»[٢] سنة ١٩٨٣. بقيت هذه الرواية مدة عشرين سنة في محاق التوقيف. كانت «تالار آينه»[٣] روايته الأولى التي وصلت إلى أيدي القراء سنة ١٩٩١. وكانت رواياته الأخرى: «مهر كَياه»[٤]، «عشق وبانوي ناتمام»[٥] و«تهران، شهر بي آسمان»[٦]. وكان آخر كتاب يصدر له مجموعة قصصية باسم «ساعت پنج براي مردن ديراست»[٧]. وثمة سيناريو لفيلم سينمائي بقلمه موجود لدى الرقابة الحكومية منذ شهور بانتظار الحصول على جواز النشر.

قضى چهل تن ما بين ١٩٩٩ و٢٠٠١ ـ بوصفه كاتباً تحت المطاردة ـ في مدينة فلورنسا الإيطالية، ضيفاً على برلمان كتاب أوروبا. في حزيران سنة ٢٠٠٣ ألقى كلمة وقام بقراءة بعض قصصه في مدينة «سولوتورن» السويسرية، بناء على دعوة من المهرجان الأدبي المسمى «أيام آداب سولوتورن».

إضافة إلى كتابة الرواية والقصة، يكتب أحياناً مقالات للصحيفتين الألمانيتين المعروفتين: «سود دويچه تسايتونك»، و«فرانكفورتر آلكَماينه». وهو من جملة الكتّاب الذين يسعون لإضفاء الطابع الرسمي على «مركز كتّاب إيران».

في الرسالة التي كتبها سعيد إمامي (مهندس قتل الكتاب والسياسيين) إلى وزير الأمن في تلك الأيام، والتي كشف عنها النقاب فيما بعد، ورد اسم أمير حسن چهل تن، مع دولت آبادي وكَلشيري بوصفهم كتاباً خطرين!

الحواشي

(١) زوجة الصيغة ، أو الزوجة المؤقتة .

(٢) روضة القاسم ، وقد فسرنا «الروضة» سابقاً .

(٣) قاعة المرايا .

(٤) (نبات) اليبروح .

(٥) عشق وسيدة لم تكتمل .

(٦) طهران ، مدينة بلا سماء .

(٧) الساعة الخامسة متأخرة بالنسبة للموت .

في أحد هذه الأصياف

أمير حسن چهل تن

مادام في البيت يكون مكتئباً. عندما يذهب إلى الشارع يأتي دور القلق. قلق لا ينتهي وفي بعض الأحيان يشتد بحيث يريد قلبه أن يخرج من حلقومه. كان (فريبرز) ذريعة. كان هو أيضاً يدري أنهم كذبوا ولكن هذا المرض بقي معه أخيراً؛ وكونه يعود إلى الشارع، فقد كان بين أوان وآخر يعود وينظر إلى حياته. وحدث عدة مرات أن اصطدم بالناس الذين يأتون من أمام، وذات مرة حتى براكب دراجة. كانوا في الأغلب ينتهرونه ويشتمونه. وفي كل مرة أيضاً كان السيد متين هو الذي يسقط وينهض دائماً، وقبل أن ينتبه لحاله ووضعه، أي أنه بهذا الوضع المشوش المضطرب يبدأ بالاعتذار.

كانوا يسخرون منه، وأقل ما هنالك أنهم يقولون له: أين حواسك يا عم؟

في الشارع، ضاع الزمن. كان الزمن يضيع ولا يزال هو ملتفتاً كي ينظر إلى حياته وفجأة يرى نفسه على مصطبة المتنزه. على المصطبة ذاتها التي كان يجلس عليها دائماً. يجلس ويجلس حتى يقتلعه القلق من مكانه. عسى ألا يتلفن فريبرز أو . . . أو هل لدى عصافير الكناري ماء وحبّ؟

كانت عصافير الكناري قد ماتت في اليوم السابق بالطبع. كانت ساقطة على أرضية القفص وميتة، وقد وقف صباح اليوم عند القفص الخالي، كان ينتظر شخصاً كي يعلن خبر الموت المفاجئ لعصافير الكناري. وكانت السيدة جواهري ـ التي جاءت إلى الفيرندا لتأخذ السلة ـ قد قالت فقط:

ـ متأسفة. كما لو أنه بدأ ثانية مجدداً.

كان السيد متين يريد أن يقول من أجل جلب تعاطف أكثر من الجيران، ولكن هذه كانت على كل حال تذكار فريبرز، ولكن السيدة جواهري قرعت السلة بالجدار ومضت.

كان المتنزه خالياً، وليس هناك إلا امرأة تجلس على الطرف الآخر فوق مصطبة وتحوك. . . داخل البيت كان هكذا أيضاً، كلما رأى أميال حياكة زوجته يتذكر بلا إبطاء، حتى أخفاها أخيراً بهذه القطع نصف المحوكة وكريات الصوف، داخل الخزانة. ذكّرته ذكرى المرأة التي كانت جاءت تبحث عن أميال الحياكة، في منتصف الليالي، بأن المرأة كانت تنهض فجأة وتبكي مصوتة كالطفل. عندما ينتهي البكاء، كانت تنام. ثم جاء دور قلق السيد متين. القلق والوسواس، أي أسوأ أمراض الدنيا! كان يختبر كل الأبواب. يفتح متاريس النوافذ ويغلقها ثانية. يلصق أذنه بالجدران، وفي الآخر عندما يتعب تماماً يذهب إلى الفراش على رؤوس أصابعه.

لم يكن يجرؤ في النهارات أن يذهب إلى الشارع. كان يخشى الشرطة. لم يكن بيده. يخاف كثيراً كما لو كان يخفي في جيوبه رأسين مقطوعين. وقد سرى هذا المرض إلى زوجته أيضاً. كانت السيدة متين ما أن ترى الشرطة حتى تضغط حقيبتها بإحكام تحت إبطها وفي بعض الأحيان تلتفت وتنظر إلى الطريق وتبحث عن قطرات دم يمكن أن تكون قطرت، من ذلك الشيء الذي ليس في حقيبتها، على الأرض.

وعندئذ صار الالتفات عادة، للمرأة والزوج، كليهما. سواء في الشارع، أو في البيت. سواء أكان ثمة شرطة، أم لم يكن. حتى في غرفة النوم كانا يلتفتان وينظران خلفهما وكأنما كانا في هذه اللحظات ذاتها بالضبط يستطيعان أن يكشفا حياتيهما أخيراً. يلتفتان، كانا يلتفتان في أوقات غير منتظمة وينظران إلى حياتهما.

بعد ذلك انصرف مرة أخرى، وهذه المرة بوسواس لا سابقة له، إلى تطهير البيت. تخلص من بقية الكتب أيضاً. ألقى كل الكتب بعيداً. حتى كتب الطبخ

أو البستنة. عندما ألقى كل الكتب في كيس القمامة، وعقد رأسه، اتكأ على المكتبة الخالية وتنفس الصعداء. بعدئذ لم يشتر جريدة عصراً. لم يكن معلوماً عم سينجلي غداً من يكتبون مقالات اليوم في الجرائد. رفع حتى الجرائد الموضوعة على أرضيات الخزانات، ووضع بدلاً عنها نايلوناً أو ورقاً ملوناً، وذات عصر عندما كان مشغولاً بنقل الرزم داخل الخزانة، ركبه الهوس فجأة أن يفتح العلبة التي يحتفظ فيها بصحنين كبيرين من الصيني وأن يلقي نظرة على الصحنين المزينين بصور الورود والطيور. كان الصحنان تذكار أمه وخوفاً عليهما من الكسر كان قد أبعدهما عن الأيدي منذ سنوات. عندما فتح غطاء العلبة أوشك أن يصاب بالسكتة خوفاً. حيث تجمع الصحف بالضبط وتذهب إلى وراء الصحن، كان مكتوباً بعنوان كبير: ملحمة سياهكل[1] بحضور عشرات الآلاف. . .

عندما رفع السيد متين رأسه كانت زوجته واقفة بعينين مرتعبتين في عتبة الباب وترتجف. أيقن السيد متين أن خبراً مشؤوماً جاء أخيراً من فريبرز. ولكن السيدة متين أشارت بيدها وأخذت زوجها إلى الخزانة.

أحرقا الجريدة ورميا رمادها في البئر.

استعرض ألبوم التصاوير بنظرة جديدة، وألقى بعيداً حتى الرسائل التي كان قد احتفظ بها طول عمره. تصوير لمتين في السنوات الماضية في ميدان ٢٦ كانون الثاني[2] في مدينة رشت. كان ينظر حتى إلى ما وراء التصاوير. كان يخاف أن يكون ثمة في زوايا التصاوير الخفية شيء بقي خفياً على نظرته. ألقى الرسائل، كل الرسائل، جانباً، وعندما قرأ في رسالة من ابن أخته: إننا نهيئ أنفسنا للتمرينات الرياضية ليوم السادس والعشرين من تشرين الأول[3]. . . لم يعد يريد شيئاً، لا تصوير، لا رسالة، لا خاطرة. لا شيء! وذهب حتى إلى دفاتر التلفونات. نظر في ثلاثتها بوسواس. ألقى الأرقام غير المعروفة جانباً، وخشية أن يكون المعارف الأبعد قد باعوا تلفوناتهم في المدة التي لم يكن عنده فيها خبر منهم أو عنهم إلى أشخاص لا يعرف شيئاً عن أفكارهم، اتصل بهم جميعاً واطمأن إلى أنهم لم يبيعوا تلفوناتهم وأنهم لا تصميم عندهم حالياً على

القيام بذلك. ولكن هذا لم يكن كافياً. كيف كان بمقدوره أن يفهم طريقة تفكير أولاد ابن عمه غير اللح، الذين كبروا الآن ويدرسون في الجامعة، وإلى أي اتجاه سياسي كانوا يميلون في الماضي البعيد أو الماضي القريب؟.. أو أحفاد خالاته؟ إذن فقد طرحها جميعاً. كل دفاتر التلفونات. كل شيء.

في الشارع والزقاق كان يهرب من الناس. في صفوف الخبز واللحم والجبن الطويلة، كانت جهود كل من يحاولون فتح باب الحديث معه على نحو من الأنحاء تبقى بلا نتيجة وعندما يجلس في سيارة الأجرة كان يلملم نفسه ويطويها بحيث يتأكد الجميع أنه لا نسبة ولا قرابة عنده مع الجالس قربه.

وفجأة تذكر. في ازدحام حاشية شارع مغلق جاءت على باله فجأة خاطرة بعيدة ضائعة. كأنه كان في السابعة أو الثامنة من عمره. في الصف الأول أو الثاني، في هذه الحدود. مازال يتذكر العلم الصغير الورقي ثلاثي الألوان في يده. حتى أنه يتذكر ازدحام الرصيف الذي كان يقف الشرطة على جدوليه مجموعة مجموعة وكان هو قلقاً على ربطة رأسه البيضاء التي كانت ضاعت. كانوا قد أخرجوا الجميع من المدرسة. كان الصبية يهللون وكانت خاتمة الأمر عبور بضعة من راكبي الدراجات النارية وعدد من السيارات الضخمة السوداء.

بحث عن تصاوير مرحلة طفولته. كانت الألبومات ملقاة جانباً. أخيراً حصل على واحد، وبقي يحدق إلى التصوير ساعات. العينان، العينان لم تتغيرا، كان يمكنهم أن يعرفوه من نظرته. اشترى نظارة، نظارة سوداء. حتى داخل البيت لم يكن يرفعها عن عينيه. في الليالي، حتى في الليالي كان ينام بالنظارة السوداء. كانت العينان المحرومتان من النور تتألمان وملتهبتين ودامعتين تخزان. العينان، صارت العينان بلاء لروحه. وذات يوم أمام المرآة، عندما حضّر مخالبه لغرزها في عينيه، أمسكت متين بيده.

- متين!.. يعني أرآني أحد ذلك اليوم؟ إنني أتذكر أن مصوراً أو إثنين أيضاً كانا هناك لا يكفّان عن التقاط الصور.

قرب متين يدي المرأة المرتجفتين إلى شفتيه.

ـ لا يكونن تصوير أو شيء ما من تلك الأيام قد بقي في الأرشيفات. إنني أخاف يا متين! . . أخاف!

قبل متين يدي المرأة. دفع حلقات الشعر المبللة عن جبينه وفجأة ضم المرأة إليه وعندما انطفأ التهاب المرأة في أمن أحضان رجلها، بكى السيد متين متجهاً إلى نافذة الغرب اللازوردية بلا صوت ولا دموع.

ثم وقعت السيدة متين فريسة للجنون. كانت تصرخ في أوقات غير معينة، كانت تكسر كل ما تحت يدها وتقول: أفهو ممكن؟ يقولون إنه صُفِّي. أريد أن أراه. أريد أن أراه.

وفي أوج العصبية والجنون تعود وتنظر إلى حياتها. حتى في واحدة من أعراض هذا الجنون الآني ذهبت نحو شرطي، فتحت حقيبتها وقالت صائحة:

ـ انظر! انظر جيداً! انظر في داخلها!

لم يكن داخل الحقيبة بالطبع غير منديل مدعوك، فرشاة شعر، وأحمر شفاه أو أشياء من هذا القبيل. لا، كان ثمة أيضاً تصوير لفريبرز.

كان السيد متين يشد يدها ويتوسل إليها أن تهدأ، وعندما كانوا يقودونها إلى الرصيف، أتيحت له لحظات يلتفت فيها. يلتفت وينظر إلى حياته، وحينذاك رأى المشهد مرة أخرى. من أمام ومن دون أن يكون له دور فيه.

كان فضح الحياة واقعة مشؤومة ثم تعود أن يلصق ظهره بالجدار أينما يكون. يجد زاوية ويلصق فيها ظهره بالجدار، حتى في الليالي، في الليالي أيضاً لم يعد ينام على السرير. كان يحس شعور انعدام أمن من الفراغ تحت السرير. حتى غرفة نومه بدلها. ذهب إلى غرفة لم تكن مثل غرفته السابقة التي كان تحتها قبو وغرفة زهور. ومع ذلك فقد كان يسمع في الليالي أصواتاً خافتة لمناجيات لا بد أن تكون حسب إحدى الروايات أصوات حشرات ما قبل التاريخ الضخمة التي صارت عندها القدرة الاستثنائية على التكلم، وربما بسبب بقائها في الترسبات العميقة في باطن الأرض.

بعد ذلك بقليل كان هذا الصوت يستمر من المساء حتى الصباح. وبعد مدة

أخرى كان يسمع صوت هذه الحشرات حتى نهاراً. كان هذا الصوت في كل مكان، لم تعد لديه الجرأة أن يدير الراديو أو التلفزيون مثلاً. من كل مكان كان ذلك الصوت المزاحم والغامض يطرق الأسماع، حتى من مكبرات الصوت التي كان صوتها يبلغ البيت. فازدادت هذه العقيدة قوة من أن هذا الصوت يخص حشرات أقامت في عمق الأرض وجاءت من ماض سحيق جداً في القدم.

ثم بدأت مرحلة الأرق الطويل. جعلت أقراص النوم ضعفين وحتى عدة أضعاف، بلا فائدة. حتى صار في الغالب يغمى عليها، بعد بضعة أيام من الأرق، في زاوية من المنزل. كان السيد متين يأخذ، بأنواع المشقات، جسد زوجته النحيف إلى الفراش. يغطي وجهه بيد المرأة وعندما لا تعود المرأة تحس، كان يبكي من صميم فؤاده.

ـ أتسمح لي بالجلوس؟

رأى السيد متين فجأة صبياً في العاشرة أو الثانية عشرة من العمر، في مقابله، ينظر إليه من وراء نظارة بلا عضدين، ويداعب بيديه الانحناءة الخفيفة لمظلة شمسية تخص البنات كان قد أوكأ قبضتها المعدنية البراقة على كتفه. لملم السيد متين نفسه ورتبها. لم يكن يتحمل، ولم يقل شيئاً تقريباً، ولكن الهزة الخفيفة التي قام بها على رأسه أو حتى على يده ورجله اعتبرها الصبي جواباً موجباً.

أغلق الصبي المظلة بلين خاص، جلس على زاوية المصطبة ثم قال: ما من شيء يعذبني بقدر الوحدة.

كانت لهجته وقورة. لاسيما التأمل المملوء معنى الذي وضعه على كلمة «الوحدة»، كان يضفي على لحنه ونظرته حالة مفعمة بالوقار والجدية. أدار السيد متين رأسه ومرة أخرى راز الصبي. كان الصبي يرتدي لباساً مرتباً. يرتدي جوراباً طويل الساق صوفياً، وإذ هو جالس لم يكن يفصل الجوراب والبنطلون القصير الأسود غير خط ضيق من جلد بدنه.

قال الفتى: اضطررت صباحاً إلى تركهم.

فقال السيد متين: «من؟».

وضع الفتى ذؤابة المظلة على الأرض. ضم اليدين على مقبض المظلة وقال:
ـ أبي وزوجة أبي.
هز السيد متين رأسه بشك وغموض.
كان الفتى يبدو نافد الصبر. مكث قصيراً ثم قال مضطراً:
ـ لقد منحاني إلى الليلة فقط فرصة إخراج عصافير الكناري من البيت.
مرة أخرى هز السيد متين رأسه بشك وغموض. ولكنه اضطر بعد لحظة أن يقول:
ـ آه.. أفهم!
قال الفتى بتأكيد خاص: ولكن هذا بعيد عن العدالة.
صار السيد متين بعدئذ مهتماً، ولهذا قال: «هذا مؤلم!».
قدّم الفتى رأسه وكما لو كان يكاشف غريباً بسر، قال بهدوء: «ولكنني أقاوم».
ابتسم السيد متين، لوّح يده في الهواء وقال: «أنا موافق!»، ثم داعب برأس الأصبع ـ في علامة على نوع من الصميمية، ولابد ـ ساق المظلة وقال:
ـ إنك تبدو أكبر من سنك.
أوكأ الفتى ظهره على ظهر المصطبة العالي، ونظر إلى أطراف أغصان الأشجار، وتنهد وقال:
ـ مشكلتي الرئيسة هي هذه.
ثم التفت فجأة وصرخ وهو يواجه السيد متين، بصوت مرتفع ونسائي:
ـ لكن قل لي أنت، ما الذي يجب أن أفعله.
رفع السيد متين كتفيه ببرود وقال: «لا شيء! ينبغي أن تنصاع لقولهما».
لكن الفتى كان لايزال يحدق إلى البعيد بحزن شاعري، وقال:
ـ إنها مجرد زوج من عصافير الكناري الصغيرة المسكينة لا أكثر.
قال السيد متين: «في كل حال، ليست مشكلة كبيرة. يمكنك أن تبيعهما».

ـ أبيعهما؟ هذه مهزلة. إنهما متعودان عليّ.

قال السيد متين: «أو اعطهما لأحد».

ـ لا أستطيع حتى التفكير في ذلك. ما من أحد يستطيع أن يعنى بهما مثلي.

ثم مرة أخرى قال باللحن الشاعري. «إنهما زوج كناري صغيران مسكينان لا أكثر!».

هذه المرة كان واضحاً أنه يغص. سيطر على ارتجاف جداري الأنف وضغط المظلة بين ساقيه.

قال السيد متين: «أرجو المعذرة، هذا سؤال خصوصي كثيراً. ولكن لابد أن المقصر الأصلي زوجة أبيك؟ أليس كذلك؟».

هز الفتى رأسه إنكاراً: «لا.. لا! إنها إنسانة عادية».

رفع السيد متين كتفيه: «ماذا عن أبيك؟.. أقصد كيف هي علاقتك به؟».

قال الفتى ببرود واضح: «لا أرتاح له. إنه دكتاتور».

فقال السيد متين: أريد الآن أن ألقي عليك سؤالاً شخصياً آخر.

حدق الفتى بتعجب إلى السيد متين. لملم السيد متين نفسه ثم قال باحتياط، وفيما هو يراقب الفتى سراً: «أمك؟ أقصد أين هي؟».

قال الفتى بلا تردد: «لا أحب قط أن أتحدث عنها مع أحد».

قال السيد متين: «أرجو المعذرة. أرجو المعذرة بجد».

ارتجفت شفتا الفتى مرة أخرى وقال هامساً: «إنهما مجرد زوج كناري صغيرين مسكينين لا أكثر».

ثم استدار وقال وهو يحدق إلى عيني السيد متين:

ـ أكرهه. إنه دكتاتور كامل العيار. حتى لا يسمح لي أن أبقى بعد الظهر في خلوتي. أتدري.. كيف أقول؟ لقد أعددت لنفسي في زاوية الباحة حُقّاً، جنب نافذة القبو، تحت ظل شجرة السفرجل، مكاناً حيث اقتربتْ أغصان

الأشجار كثيراً من الأرض، زاوية حميمية. أحب أن أجلس هناك بعد الظهر أفكر قليلاً. في بعض الأوقات آخذ قفص الكناري معي. أستطيع أن أقرِّب أهدابي من بعضها وأدخل فجأة دنيا أخرى. أستطيع أن أرى فلاء أفراس تعبر من حاشية الجدول الذي يمر وسط الباحة.. أو.. منديلاً حريراً كبيراً، مملوءاً بالتفاح معلقاً لوحده في مكان ما بين الأرض والسماء، وهناك أستطيع أن أتكلم عن كل شيء. حتى مع الأحجار. وهي أيضاً تجيبني. أنت تفهم أن الأحجار تجيبني.

قال السيد متين بتعجب: «لا يصدَّق. ما أجمل ذهنك».

قال الصبي: «هذا هو! كلكم تقولون هذا بالضبط. ولكنكم ترونني في الأغلب غلاماً صغيراً وشبه أبله أيضاً».

قال السيد متين: «ليس هكذا قط. أقلاً ليس هكذا في نظري».

قال الصبي: «كنت أقول لك.. أستطيع في بعض الأوقات أن أدخل، من ستارة أهدابي المشبكة، إلى بستان. هناك، توجد زهور حديقتنا أيضاً، التي لكل منها نافذة مضيئة، أستطيع أن أعبر من زجاج هذه النوافذ. الجو هناك مشمس؛ ثم أن مغسل رجل بلورياً...

من منعطف جادة قصيرة مفروشة بالحصباء تمتد إلى مصطبتهما، خرجت فجأة امرأة وقالت:

ـ يا أصغر! أماتك الله أين ذهبت؟

كانت المرأة قد وضعت يديها، على نحو مهدد، على خصرها. دفع الصبي رأسه إلى أمام وقال:

ـ هذه العفريتة أمي. لينّه الله الأمور بخير.

اقتربت المرأة من المصطبة وقالت: «انظروا إليه بالله. من أين جئت بهذه الملابس؟ لمن تعود هذه المظلة؟

نهض الفتى عن المصطبة. ألقى المظلة على الأرض. أغمض عينيه. وبعد عدة لحظات، إذ أصدر من حنجرته صوتاً كصوت صاروخ ناري، فرّ هارباً.

نظرت المرأة لحظة إلى الغلام الذي كان الآن يبتعد. ثم وضعت يدها على صدرها، أغمضت عينيها وقالت بأنّة متوجعة:

ـ قتلك الله، إنك تهلكني.

كان السيد متين ينظر إلى المرأة باهتاً غير مصدق.

فتحت المرأة عينيها، وقالت للسيد متين بنظرة معتذرة:

ـ ألم يطلب منك مالاً؟

فقال السيد متين:

ـ أبداً. أرجوك تفضلي اجلسي. حدثيني ما الخبر؟ بدا لي نابغة.

قالت المرأة:

ـ كلكم تقولون هذا، جميعكم. إنه طفل شرير لجوج كذاب.

قال السيد متين:

ـ لقد دخت تماماً، ما الموضوع؟

قالت المرأة:

ـ إنه شرير ومجنون. سيقتلني أخيراً.

قال السيد متين:

ـ لا يصدّق.

وقالت المرأة:

– إنه قاتل العصافير. يكمن في الأعصار في زاوية الباحة ويمزق بمصيدته كل عصفور يستقر على شجرة. وقد حبس الآن عصفورين جريحين في قفص، ولا يجرؤ أحد على لمسهما.

فجأة ركب القلق السيد متين. استدار. كان يحس انعدم أمن. ليت مرجاناً تأتي فتأخذه هو أيضاً. تأخذه إلى تلك المدينة البعيدة. كان الخوف قد ركبه. مرة أخرى نظر إلى الطريق وسمع حتماً الصوت المؤذي والمزاحم للحشرات القديمة. ولكن فريبرز؟ كان ممكناً أن يتلفن. نهض. من أي جانب كان ينبغي أن يذهب؟ انطلق مسرعاً. وراء ظهره كانت ضجة العصافير. كان يخاف أن

يلتفت. ركض حتي البيت. في نفس واحد. وهو الآن واقف مقابل البيت، لايجد المفتاح. فتش كل الجيوب وفي الآخر.. فتح الباب. كان التلفون لايزال يرن.

ركض السيد متين: «هلو»

قال صوت من الجانب الآخر: «منزل السيد متين؟»

– نعم؟

– تفضل بالقدوم إلى هنا.

– ها؟

– أقول تعال خذ أغراضه.

مرة أخرى كان صوت الحشرات قد ارتفع وكان كل مكان مملوء ببقع كان كلاهما، المرأة والزوج، قد فتشا عنها في الأشهر الماضية جميعاً. يخاف. البقع تخفيه.. تراجع إلى وراء. اتكأ بظهره على الجدار. لكن الجدار أيضا لم يعد يحقق أمناً. قفز كالمجنون من البيت. ولكن خارج البيت.. لا، لم يكن ممكناً. كان نسيم لطيف يهب عليه من كل جانب. ضيّق عينيه وعبر من خلال مشبّك الأهداب. كان منديل حرير مملوء بالتفاح معلقاً بين الأرض والسماء. والأحجار، أحجار حاشية الطريق تقول له شيئاً همساً. كانت كل الجدران تميل إلى الأخضر، وضباب حليبي اللون يجري في كل مكان على سطح الأرض. كانت الزهور تفتح نوافذها، ورأى، بين الشمس التي كانت هناك، زوجته؛ كانت تبتسم له من وراء تول قبعتها. كم كانت فتية وجميلة في السترة والتنورة الصيفية. كان على حافة قبعتها وردة وطائر. لوّحت المرأة بيدها. كانت تطير فوق السواقي، تأتي نحوه. لاتمشي، تطير. كانت بجعات بيض تسبح في بحيرة فضية اللون، ومن الزهور ينتشر بخار دافىء في الجو. وضع السيد متين ذراعه في ذراع امرأته ورأى– مفعماً بالحس العطر الذي كان يحيطه– فتى غارقاً في ذلك الضباب إياه المتصاعد من أسفلت الشارع، يأتي نحوه حاملاً بيده قفصاً، وكان هو يستطيع أن يسمع بوضوح صوت الكناري.

الحواشي

(١) كانت مجموعات فدائيي خلق [فدائيي الشعب] أول مجموعة شيوعية في ايران تبدأ - بإعلانها سياسة الكفاح المسلح- النضال المسلح ضد نظام الشاه. وقد لفتت هذه المجموعة كل الرأي العام إليها بتجريدها عدد من مراكز الشرطة في منطقة سياهكل شمالي ايران في ٨ شباط ١٩٧٠ من أسلحته. واشتهرت الحركة باسم حركة سياهكل . وقد جرى بعدئذ اعتقال جميع أفرادها وقتلهم. .

(٢) يوم الاستفتاء على إعلان «مبادىء» «ثورة الشاه والشعب البيضاء» .

(٣) تاريخ ميلاد محمد رضا شاه، وكان يحتفل به في كل أنحاء ايران .

الفهرس

	الصفحة
– **مقدمة**- أمير حسن جهل تن	٥
– ملاحظات المترجم	٧
– محمد علي زاده	٨
مشوي الأوز	١٢
– صادق هدايت	٢٦
داش آكل	٣٠
– بزرك علوي	٤٦
الرجل الجيلي	٥٠
– صادق جوبك	٧٣
عصر يوم في آخر الخريف	٧٦
– سيمين دانشور	٨٩
كيد الخائنين	٩٣
– جلال آل أحمد	١٢٠
ابن الآخرين	١٢٣
– أحمد محمود	١٣١
أين تذهبين يا ننه أمرو؟	١٣٤
– رضا براهني	١٧٧

الصفحة

قابلة بلادي ١٨١

– غلام حسين ساعدي ٢١٤

حمّى ٢١٧

– هوشنك كلشيري ٢٤٦

رسام باغان

– كلي ترقي ٤٤٩

شجرة الكمثرى ٢٦٨

– محمود دولت آبادي ٢٩٧

رجل ٣٠٠

– غزاله علي زاده ٣١٧

سوچ ٣٢٠

–شهرنوش بارسي بور ٣٤٦

ربيع كاتماندو الأزرق ٣٥٠

– منيرو رواني بور ٣٥٦

سفينة المنكسرين ٣٥٩

– أمير حسن جهل تن ٣٦٩

في أحد هذه الأصياف ٣٧١

الطبعة الأولى / ٢٠١٠

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

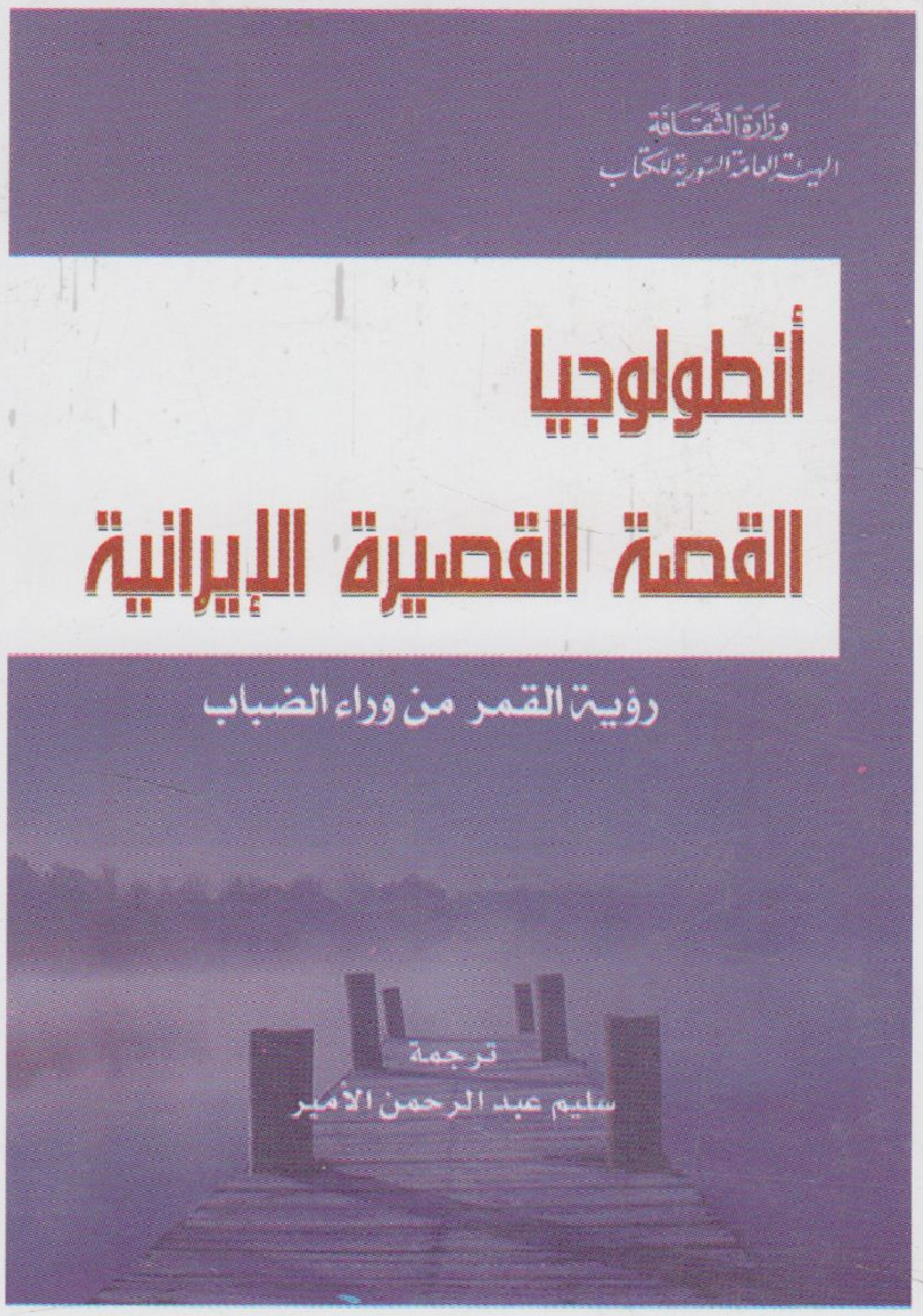

الهيئة العامة السورية للكتاب

The Syrian General Organization of Books

www.syrbook.sy

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٠

مخصص للمعارض الخارجية الدولية

Bibliotheca Alexandrina
1105406